t.me/qurssan

حافظ، حاتم.
كقطة تعبر الطريق: رواية / حاتم حافظ .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.
264ص؛20سم.
تدمك: 0 - 303 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 1580 /2021

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : 2021م

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

t.me/qurssan

حاتم حافظ

نقطة تعبر الطريق

رواية

الدار المصرية اللبنانية

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إلى

توفيق الحكيم

ومصباحه الأخضر

حاتم

t.me/qurssan

t.me/qurssan

امرأةٌ غاضبةٌ.. رجلٌ ضجرٌ

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

لا شيء يضاهي لحظة ملامسة الطائرة الأرض غير لحظة انفصالها عنها.

وصلتُ بازل ليلًا، كما أفضّل دائمًا. كانت لِيلِي نائمةً فاضطررت إلى إيقاظها. فتحتْ عينيها الصغيرتين بتثاقل كما لو كانت تفتحهما على حُلم. كنتُ مرهقةً وغير مستعدةٍ لحملها. كانت الصالات والممرات بمطار بازل مزدحمةً بأشخاصٍ مستيقظين أكثر مما ينبغي فتمنيتُ أن أكون في هذه اللحظة في سريري.

لِيلي التي كانت تقاوم خدر نومها طلبت مني الانتظار ريثما تشرب. كانت ظمآنة. نامت طوال المسافة من بيروت لبازل مرورًا باسطنبول. لا طعام. لا شراب. كان جسدُها المدسوس في جنبي طوال الرحلة ناعمًا وطريًا لدرجة أني كنت أستطيع إعادة تشكيله، لولا أنني أحب شكلها هكذا.كل ما في ليلي أحبه، عدا الأنف الذي ورثَته عن أبيها. أنف رقيق ومعقوف ومرح كتوقيعٍ على بطاقة معايدة، لكنه كان يذكّرُني به، وبعامين قضيناهما معًا ظننتُ ألا ينتهيا أبدًا، لكنهما، ككل شيءٍ ينتهي في موعده، انتهيا.

t.me/qurssan

قبل أن نخرج من صالة المطار إلى الشارع أغلقتُ سحّاب الجاكت الخاص بليلي ولففتُ رأسها بشالٍ شغلته أمي خصيصًا لها. بعد موت أبي، قبل ثماني سنوات، صار لدى أمي متسعٌ من الوقت لشغل مثل هذه الأشياء التي ما زالوا يحبونها في درعا. وقفتُ ووقفتْ لِيلي مشدوهة. قفزتْ فرحة حين اكتشفت وجود ميشيل في انتظارنا. أما أنا فقد كانت رؤية ميشيل الساعة الرابعة فجرًا خارج المطار لا تجعلني أقفز في أي مكان. منذ شهرين بدأتُ في التعامل معه كعبءٍ رغم أنه لم يفقد مرَحَه ولا حنانه طوال العام الذي عشناه معًا كرفيقين.

لِيلي التي أحبت ميشيل أكثر مما أحببتُه قفزت في حضنه كأنها لم تره منذ شهور. رغم أننا لم نغب لأكثر من عشرة أيام. ميشيل أيضًا أحبّها أكثر مما أحبَّني.

في بداية علاقتنا ظننتُ أن وجود طفلةٍ في حياة عزباء عربيةٍ تقيم في سويسرا بدوام غير منتظم سوف يُهدّد استمرار علاقتها بأعزب فرنسي يُمضي نصف وقته في البارات دون أن يسكر. بعد سنة واحدة اكتشفتُ أن هذا الوجود نفسه يُهدّد رغبتي، وربما رغبته هو أيضًا، في الانفصال.

قبَّلني ميشيل قبلة أزعجتني. كان يمكنني رؤية لِيلي وهي ممسكة بكفي وبكف ميشيل في انتظار أن يُنهي قبلته لي والتي أصرّ، للا سبب، أن تكون طويلة، وبريئة. لف ذراعه حول رقبتي وأمسك بكف ليلي وصار يقفز راقصًا في الطريق لسيارته كمهرجٍ، متجاهلًا المطر الذي

t.me/qurssan

كان يسقط فوق رؤوسنا بلا رحمة، والحقيبة التي كنت أجرّها خلفي وكانت تصدر صريرًا على الأرضية المبتلة.

في السيارة فضّلتُ ترك المقعد المجاور لميشيل لليلي. تحججتُ برغبتي في أن أمدد جسدي على الكنبة الخلفية بسبب إرهاق الرحلة. لم يبد أن أحدًا كان في انتظار الاستماع لحجتي. طوال الطريق لم يَكُف ميشيل وليلي عن الكلام. حكت له تقريبًا عن كل شيء رأته وعن كل شخص التقته وعن كل طعام أكلته وعن كل لعبة لعبتها في بيروت. لم يعد لديّ ما أحكيه لميشيل. هذا جيد. انسحب صوتهما تدريجيًا فقد وضع أسطوانة لإديث بياف ورفع صوتها وراح يغني مع ليلي فلم أعد أسمع إلا صوت بياف L'homme à la moto والإيقاع شبه العسكري للأغنية.

في الشهور الأولى لإقامتي في بازل لم أسمع غير إديث بياف. كانت نصيحة صديقة مصرية سبقتني في الوصول لهُنا. إن أردتي أن تتعلمي الفرنسية بسرعة عليك الاستماع لبياف ليل نهار. في النهاية صرتُ بفضل بياف أتحدث الفرنسية كالفرنسيين. المزعج أن ذلك جعلني أبدو كباريسية، وهو ما لا يحبه السويسريون فيّ. وحتى الآن لا أعرف إن كنت قد توقفت عن الابتسام بسبب باريسيتي التي أصبحت عليها أم بسبب الطريقة التي عشت بها قبل أن أصير باريسية. ميشيل كان من الجنوب، من منطقة ريفية يبدو أن سكانها لا يكفون عن الابتسام. كنت أبدو، لندرة ما ضُبِطتُ متلّبسة بالابتسام، ولأني

t.me/qurssan

كنت أنطق الـR كما تنطقها بياف، باريسية أكثر من ميشيل. هذا ما كرَهه فيّ هو أيضًا على ما أظن.

زرت باريس مع ميشيل منذ عدة شهور. طلبت منه أن يرحل بي لباريس لكنه فضّل القيام بزيارة سريعة. ذهبنا بالقطار وعدنا بالقطار. الوقت الذي قضيناه في القطار كان أطول من الوقت الذي قضيناه في باريس. بعد عودتنا ظل عدة أيام متجهمًا كما لو كانت زيارة باريس أحزنته. بعدها عاد لمرحه فجأة. لم يذكر زيارتنا لباريس ولا أنا ذكرتها بعدها. صورتي الوحيدة التي التقطها لي ميشيل بجوار كاتدرائية نوتردام لم أضعها في أي مكان خشية أن تذكّره بزيارةٍ غير مرغوبة.

أمام البيت تذكّر ميشيل الحقيبة. رفعها فوق كتفه وأمسك بكف ليلي وصارا يتقافزان على السُلّم بمرحٍ. وقفت أتابعهما وهما يتقافزان داخل إطار باب البناية في الضوء الخافت كما لو كنت أشاهد فيلمًا صامتًا. غابا عن نظري.

فكرت لو أنني رحلت الآن فلن يلاحظ ميشيل، ولا ليلي، قبل الصباح.

لم أرحل. كنت قد أسرفتُ في الرحيل فيما مضى واستنفدت مرات الرحيل المناسبة لشابة توشك على الثلاثين. في درعا انفصلتُ عن وليد. كان جاري، وأخته الصغيرة زميلتي في المدرسة. لم أتحمل الطريقة العنيفة التي كان يعامل بها أخته، ومبكرًا فهمت أنه لن يستمر طويلًا في معاملتي كإنسان. فارس كان شيئًا آخر. كان لطيفًا عن حق،

t.me/qurssan

لكنـه كان لطيفًـا مع كل الفتيات، حتى أن نصـف زميلاتي في الجامعة أحببنـه، وبدا أنه يسـتمتع بهذا الأمـر. تركته لزميلاتـي ونقلتُ أوراقي لجامعـة أخـرى دون أن يعلـم، أو تعلـم زميلاتـي. في جامعة دمشـق أحببت اللغة الفرنسـية بسبب أنطون. أحببت أشياءَ كثيرة بسبب أنطون أيضًا. السياسة، وأم كلثوم، وكرة القدم، وحسن نصر الله. بعد التخرج كنت قد كرهت السياسة وكرة القدم وحسن نصر الله. كنت قد كرهت أنطـون فكرهـت الأشـياء التـي يحبهـا. كان يخيفنـي حيـن يتكلم في السياسة وحين يتكلم في الكرة بالقدر نفسه. أخافني أكثر حين اشترى سـلاحًا ولم يخبرني عن السـبب. احتفظـتُ - منه - فقط بـأم كلثوم. أقنعت نفسي بأن أم كلثوم ليست ملكًا لأنطون ولذا يمكنني أن أحتفظ بها كما أشاء.

احتفظتُ بأم كلثوم وبلغةٍ فرنسية كنت أنطقها على طريقته. المَدرسة التي عملتُ بها في درعا تركتها بعد عامين بسـبب عمّار. كانت الثورة قـد بدأت. ظن أنه يمكنـه الاحتفاظ بعقله وبحياده. ظننا كلنا ذلك. كنا شـبابًا، وكنا رومانسيين. قُتل ابن أخيه فقرر أن يشارك العائلة في الثأر. لم يكن يعلم ولا عائلته ممن يمكن أن يثأر لكنه كان الأسرع في اتخاذ القرار. صار يتغيب عن المدرسة لأيام. في كل مرة يعود كان يبدو كأن أعوامًا قد أضيفت لعمره. أخبرني كم قَتل. سـألته عن عدد الأشخاص الذين يجب عليه أن يقتلهم كي يثأر لدم ابن أخيه. لكنه لم يكن يعرف. كانـت الطاحونة قـد دارت. لم يأت مرة أخرى. أرسـل لي رسـالة مع تلميذة قرب نهاية العام. فضضت الرسالة. لم يكتب غير عبارة واحدة "انطريني.. عن قريب برجع وبطلب إيدك".

t.me/qurssan

غادرت سوريا كلها.

طلبت من ميشيل أن ننفصل عن بعضنا البعض لفترة. لم تكن ليلة مناسبة لمثل هذا الكلام. يبدو أنها أصبحت عادة لديّ. أن أقول أشياءَ في غير الأوقات المناسبة لها. تفاجأ ميشيل. زادني ذلك غضبًا. كنت أظنه يعرف أن موعد طلب الانفصال قد آن. ظننت أن هذه هي رغبته أيضًا، لكن يبدو أنها لم تكن. سألني عن الأسباب فقلت له كلمة واحدة "مللتُ". تلك عادتي الأخرى. ما إن أشعر بأني بدأت في التصرف بقسوة حتى أتمادى في القسوة حتى النهاية. وكما في كل المرات التي فعلت فيها ذلك ما إن وجدتني وحدي حتى بكيت بحرقة. طلبت منه ألا يغادر البيت، على الأقل حتى تتفهم ليلي أسبابنا للانفصال. قال لي - مصحّحًا - إنها أسبابي وليست أسبابنا. تجاهلتُ ملاحظته. لسبب ما كنت أرغب في أن أحمِلَه على الاعتراف بأن لديه ما يكفي من الأسباب للانفصال عني، لكنه لم يعترف. افترضتُ أن الموقف الآن أصبح متعادلًا في قسوته.

- "لديّ عمل في برن" قال. وأضاف "يمكنني أخْذ ليلي معي.. سوف يكون لديك وقتٌ كافٍ للتفكير".

- "لست في حاجةٍ للتفكير".

- "تحتاجين الوقت للتفكير أكثر مما تتخيلين".

- "لأي شيء؟".

t.me/qurssan

- "للتراجع.. لاكتشاف كم أنت مخطئة.. أو على الأقل لاختلاق أسباب معقولة".

هكذا تعادلنا.

صحوتُ في الساعة الرابعة عصرًا. نمت كجثة. على هاتفي وجدت اتصالين من أمي واتصالًا من ميشيل وآخر من ريما. كان عليّ الاتصال بأمي لطمأنتها لكني فضّلت البدء بالاتصال بميشيل للاطمئنان على ليلي. اتصلت لكنه لم يرد. تعادلنا مرة أخرى. اتصلت بأمي. كان لديها مزاجٌ طيب ورغبةٌ في إطالة الكلام وأنا لم يكن لديّ لا المزاج الطيب ولا الرغبة في الكلام. فهمتْ من الطريقة التي أردُّ بها على كلامها. سألتني عن ليلي. قلت إنها نائمة. كذبتُ. أمامي مدة قبل أن يحدث بيننا اتصال جديد. وقتها سوف يكون عندي مبررٌ لغياب ليلي. الآن يكفي أن أقول إنها نائمة. أغلقت الهاتف واتصلت بريما. كانت في طريقها للبيت. اقترحتْ أن نلتقي بعد ساعة في مطعم قريب. أخبرتها أني في مزاج سيئ. ألحّت، لكن ليس بالقدر الكافي لتغيير رأيي. كانت تعرفني. تعرف أني أكره أن يجبرني أحدٌ على تغيير رأيي، خصوصا بدافع التعاطف. اتصلتُ مرة أخرى بميشيل. لم يرد. هكذا أفضل. مرتان ضد مرة. أغمضت عيني. لم أكن أرغب في النوم. كنت أفضّل في هذه اللحظة المساحة الفاصلة بين النوم واليقظة. لكني غفوت.حلمتُ بأني ما زلت في الطائرة. ليلي لم تكن معي. صحوت مرة أخرى. لم أغف فترة طويلة. كانت دقائق كافية لمضاعفة الشعور بالخوف. اتصلت بسرعة بميشيل. رد عليّ.

t.me/qurssan

- "كنت على وشك الاتصال.. أنا وليلي..". قاطعته "أعطني ليلي".

جاءني صوتها مبتهجًا. قالت إن صديقة ميشيل علّمتها نطق بعض الكلمات الألمانية. سمعت صوت ميشيل مرة أخرى. كان يبدو أنه يرغب في تقديم تفسير يخص صديقته. أعرف من الكلمة الأولى ما يود ميشيل قوله دائمًا. معي كان يكفيه صفحة واحدة من القاموس لكي يتواصل معي. قاطعته متحججة بأني يجب أن أغلق الهاتف لأن ريما تطلبني. كذبت مرة أخرى. أعرف أن ليلي تسمي كل الناس أصدقاء، كل الناس أصدقاؤها، وكل الناس أصدقائي وأصدقاء ميشيل. لو رأتني أدفع حساب البقالة لعاملة الكاشير فهي حتمًا صديقتي. لم أكن في حاجة لتبرير. هذه المرة بالذات لم أكن في حاجة لأي تبرير.

ارتديت ملابسي بسرعة للحاق بريما. شعرت بالجوع لكني لم أجد لديّ الرغبة في الأكل. في الشارع كان الجميع مبتسمين كالعادة، خصوصًا وقد اقترب موسم أعياد الميلاد. لا أعرف إن كانت الابتسامات حقيقية أم أنها مرسومة على الوجوه فقط لتذكيري بأني أبدو كالباريسيات.

ريما كانت في انتظاري. قبّلتني كما لو أني غبت عنها شهورًا وليس أيامًا. طلبتْ لي بيرة داكنة دون أن تسألني عن رأيي. كان طلب البيرة طريقتها دائمًا للاحتفاظ بي فترة طويلة. كأس بيرة في مقابل الإنصات للهذيان الذي كانت تردده طوال الوقت. انفصَلَت عن بيير.

t.me/qurssan

لكنها التقت شخصًا آخر وانتقلت للعيش معه. هكذا في عشرة أيام. لكنها تشعر بالأسى فقد بدأت تشعر بالملل. كل هذا في عشرة أيام. لم تسألني ريما عن شيء بخصوص أمي ولا بخصوص أمها التي التقيتها في بيروت. بعد الحرب اضطرت عائلتانا للنزوح لبيروت. نصف عائلتي صارت تعيش في بيروت والنصف الآخر صار يعيش في القاهرة. قررتُ وريما الرحيل لأوروبا. تركنا خلفنا كل شيء لا نحتاجه وهو ما كان يعني كل شيء. لم ينقطع حديث ريما إلا حين رنّ هاتفي. كان اتصالًا من باريس.

منذ شهور تواصلتُ مع دار نشر باريسية للعمل كمترجمة. بعد الحرب في سوريا صار لديهم شغف بالتعرف علينا، بالتعرف على المجانين الذين يسكنون نصف الكرة الآخر والذين لا يكفون عن قتل بعضهم بعضًا. أخبرتني أولجا الموظفة في الدار أنهم يرغبون في لقائي في أسرع وقت. ما كان يعني أني سوف أضطر للسفر دون ليلي. أغلقتُ الهاتف فنظرت لي ريما بفضول. أخبرتها لكنها اكتفت بابتسامة قبل أن تسألني عن رأيي في ترك بيير. لم أجد ما أقوله. تعرف ريما أني لست الشخص المناسب لتوجيه النصائح ولهذا لم تنتظر إجابة على سؤالها. طلبت لي كأس بيرة أخرى قبل أن تخبرني بأنها سوف تمنح ريكاردو فرصة أخرى لتفادي الملل. أفرغت آخر قطرة في كأسها وأخبرتني أنها سوف تحتفظ بطريق للعودة لبيير إذا استمر مللها في وجود ريكاردو. بدت سعيدة بطريقة محيّرة غير أني كنت مكتفية بحيرتي. أمامي رحيل جديد لم أستعد له. شكرتني بشدة كما

t.me/qurssan

لو كنت قد قدمت لها يد العون. أمسكتْ بكفي بامتنان ولم تنتبه لنظرة عدم التصديق التي كانت على وجهي. قبّلتني بمبالغة وقامت لتفرغ مثانتها. في طريقها للحمام رأيتها تتراقص كما لو كانت سعادتها حقيقية. اتصلتُ بميشيل لأخبره. انتظرت طويلًا حتى فُتح الخط لكني لم أتلق ردًا. كانت على الطرف الآخر أصوات صاخبة لكني استطعت تمييز صوت ليلي. كانت تضحك بسعادة. لحظات ثم أُغلق الخط. كيف تضحك ليلي بهذه الطريقة في غيابي. حين عادت ريما وجَدَتني أبكي.

كان عليّ أن أسافر لباريس وحدي. ميشيل سوف يستغرق بضعة أيام في برن. اتصل بي في المساء ليطمئنني على ليلي قبل ذهابها للنوم. لم يمكنني متابعة ما تحكيه ليلي ولا كنت مهتمة لكني تركتها تنهي حكاياتها كلها. في النهاية أرسلَتْ لي قبلةً وقالت "تصبحين على خير يا أمي". قالتها بالألمانية غالبًا لأنها بعد أن تركت الهاتف لميشيل بدأ في تبرير اندساس لغة جديدة وسط اللغات التي تضطر ليلي للتعامل معها. أظنه ذكر شيئًا عن صديقة ألمانية أو شيئًا من هذا القبيل. الحقيقة لم أكن منتبهة. كنت أرغب في ترتيب الأمور معه في حال سفري لباريس. كنت على استعداد لإلغاء الرحلة والبقاء في انتظار ليلي إذا ما قدّم اعتذارًا عن البقاء معها لحين عودتي. لم يفعل. لم يفعل كالعادة. كنت أعرف أنه لن يفعل. كنت أعرف أنه سوف يشتعل حماسة. أنه سوف يطمئنني على ليلي. أغلقت الهاتف في النهاية وشعرت بالألم يلتهم أحشائي. لم تكن البيرة الداكنة. لم تكن الكُفتة المصنوعة

t.me/qurssan

بـرداءة علـى الطريقـة العربية التي قُدمـت لنا باردة. لم تكـن حتى آلام القولـون المعتادة. هذا ألم أعرفه. ألم يأتي من مكان بعيد كسَـهم غدّار يصوّب من مجهـول نحو نقطة محددة. نقطة قاتلة. يداهمني هذا الألم كلمـا شـعرت بأني مجبرةٌ على شـيء. داهمني حيـن وجدتُني مضطرةً للاسـتمرار في علاقتي مع عمّار. حين بدأتْ نوبات اختفائه عرفتُ أنه لـن يعود مـرةً أخرى. صحيح أنه عاد لكن الذي عاد لم يكن الشـخص نفسه الذي أعرفه، والذي انسللتُ مرات معه للتل. حين عرفتُ أنه قتل جنديًا قررتُ انتهاء علاقتنا. لم أخبره ويبدو أنه لم يكن مسـتعدًا لسماع خبـرٍ كهـذا. بدا أيضًـا أنه لن يكون - فـي هذه اللحظة - مهتمًا بسـماع خبـرٍ كهذا أو بتجنبِ سـماع خبرٍ كهـذا. كان عقله قد صـار هناك.. في الجحيم. وأي تعديل في حياته لن يكون أكثر من حريق صغير في الفناء الخلفـي للمعركة. اختفى بعدها مرة أخرى. انتهيت منه تمامًا حتى أني لم أشعر بالحزن. اكتشفت أن هجرانه كان أسهل من الطريقة التي كنت أُغفّل بها أمي للذهاب للقائه. وفي اللحظة التي شـعرت أنه صار اسـمًا من الماضي اكتشفت أنه وضع بذرتَه داخلي. داهمني الألم. وحتى بعد أن تمسّـكت بهجرانه داهمني الألم لأني اكتشفت - بلا سبب محدد - أنـي مضطرةٌ للاحتفاظ بالجنين. وداهمني حين اضطررت للرحيل عن سوريا. وداهمني حين اضطررت للرحيل عن القارة كلها.

ميشـيل اعتبرني مجنونـة حين ذكـرتُ اقتراحًا بإلغـاء الرحلة. قال ببسـاطة وبإلحـاح "اذهبـي.. اذهبي.. قبـل أن نعود سـوف تكونين قد رحلتِ وعدتِ.. اذهبي.. اذهبي".

t.me/qurssan

- "لو وُفّقت في المقابلة فقد يطلبون مني الانتقال لباريس" قلت.

قال ببساطة وبسرعة كما لو أنه استعد عمره كله لهذه اللحظة "بارات باريس كبارات بازل".

- "الحقيقة البارات هي نفسها في كل مكان.. حتى أن ناس البارات هم نفسهم في كل مكان" أردف ضاحكًا.

قاطعته. كان يجب أن أقاطعه. كان يقصد أنه على استعداد للانتقال معي. كنت أرغب في انفصال وكان يرغب في المواصلة.

- "سوف أنتقل أنا وليلي وحدنا ولا داعي لمجيئك" قلت بحدة.

قطع كلامه وصمت للحظات. لحظات كافية لأعرف مدى قسوتي. رغبة في تلطيف الطريقة الحاسمة التي تكلمت بها قلت "على أية حال أنت تكره باريس". لم يرد. انتظر صامتًا حتى شعرت بالحرج فقلت بصوت متحشرج "لا داعي للنحيب الآن.. آخر ما أرغبه الآن هو سماع نحيب رجل لأن فتاته ترغب في هجرانه.. تصبح على خير". صمت للحظات ثم قال "لن ينتحب أحد.. اذهبي.. اذهبي.. فأنت لا تعرفين الرجال الفرنسيين بعد". ثم قال "تصبحين على خير".

قالها بالألمانية.

وأغلق الخط.

t.me/qurssan

2

أغلقتُ الخط واندسست في السرير بجانب زيلما وليلي. ليلي قبلتني بسعادة مبالغ فيها وفي اللحظة التي كنت أختار فيها بين الحكايات التي يمكن أن أحكيها قبل نومها نامت. زيلما كانت قد سبقتنا للنوم. من مكاني كان يمكنني رؤية ظهرها العاري. سلسلة ظهرها برزت كسمكة بعد التهامها. أطفأتُ نور الأباجورة وانتظرت أن أنام ولم أنم. أرّقني غضب عالية غير المبرر. قبل سفرها للبنان زادت حدة انفجاراتها الغاضبة. كانت كبركان يستعد للفوران عند أدنى سبب. لم تكن كذلك حين تعارفنا وقررنا السُكنى معًا. صحيح أنها لم تتخل عن التوتر والشك والقلق والإفراط في الحساسية لكنها أبدًا لم تكن غاضبة. أنظر لليلي الآن محاولًا اكتشاف لأي درجة تشبه ملامح أمها. رغم أني لست والدها كثيرًا ما فكرت في أن ملامح ليلي تشبه ملامح أمي. لو أني قدمتها لأمي لما شكت أبدًا في كوني والدها. أما الأنف الدقيق المعقوف الذي تحمله فربما نسبته أمي لأنف أحد أسلافها اليهود. كنتُ وليلي ثنائيًا رائعًا. وكنتُ وعالية رفيقين رائعين لو كفّت فحسب عن غضبها. أو لو - على الأقل - فَسّرته لي!

t.me/qurssan

حين صحت زيلما كنت ما زلت مستيقظًا في السرير لكني لم أشأ أن أخبرها وتركتها تتصرف بحرية. زيلما سويدية من أصل ألماني. التقينا مساء عند طاولة الاستقبال في الأوتيل. كنتُ وليلي نسأل عن مفتاح غرفتنا حين سمعنا صوتَ قدمٍ تضرب الأرض بغضب طفولي. كانت تدبدب كطفلة يرغب أهلها في تركها بالمدرسة بينما يهمون بالذهاب لمدينة ديزني لاند. كانت تحتاج لغرفة حتى الصباح فقط. كانت في سهرة مع رفاق عمل وأوصلوها لهذا الأوتيل عن طريق الخطأ بسبب التشابه بين اسمه واسم الأوتيل الذي تم حجز غرفة فيه. المسافة بين الأوتيلين فيما يبدو كانت بعيدة جدًا ولم يكن أمامها غير عدة ساعات قبل أن تغادر سويسرا كلها. بسبب موسم الأعياد لم تكن هناك غرفة واحدة خالية هنا. اقترحتُ أن تنام في غرفتي وليلي دعمت الاقتراح. زيلما كفّت في التو عن ضرب الأرض بقدميها المحاطتين بصندل وقَبِلت الدعوة دون أن تشكرني أو تشكر ليلي. فقط سألتني بجدية مفرطة عن رقم الغرفة وسبقتني إلى بابها. في الغرفة أشرت إلى طرف السرير الذي اقترحت أن تشغله. لم تعلّق نهائيًا. تركت فستانها الأزرق ينزلق من على جسدها دفعة واحدة وألقته على المقعد المجاور ثم اندست أسفل الغطاء عارية. كنا ما زلنا واقفيْن أنا وليلي مذهولين حين نظرتْ لليلي وابتسمت لأول مرة. قالت تصبحين على خير بالسويدية تقريبًا لأن أيًا منا لم يفهم. وبسبب بلاهتنا في الغالب أعادت العبارة بالإنجليزية ففهمنا أنها تحية ما قبل النوم. وقبل أن نرد كانت قد غطّت في النوم حتى أنها بدأت في الشخير. ضحكتْ ليلي بمرح لكنها

t.me/qurssan

بشعور كاف بالمسئولية وضعت كفها على فمها لتمنع ضحكاتها من أن تكون مسموعة خشية إيقاظ الضيفة غريبة الأطوار.

اتصلتُ بعالية للاطمئنان عليها. كانت الرحلة إلى بيرن لا داعي لها لكني فكرت أنها فرصة جيدة لعالية للتفكير، أو للهدوء، أو كما أخبرتها قبل الرحيل من أجل اختلاق أعذار معقولة لطلبها الانفصال. كانت قد اتصلتْ منذ ساعتين تقريبًا وكنا في حفل فلم أرد. كان من المفترض أن نكون وسط موعد عمل أو ما شابه ولم أرغب في أن أظهر بمظهر الرجل الكاذب. بالكلام مع ليلي في القطار فهمتْ أنها لا يمكنها إخبار أمها عن سر رحلتنا. ليلي كانت أكبر من سنها فيما يخص مثل هذه الأمور وأصغر من سنها فيما يخص أمورًا أخرى. ليلي لم تكن في مثل عمرها أبدًا. اتصلتُ بعالية وتركت الهاتف لليلي. لم يكن وجود امرأة سويدية من أصل ألماني في غرفتنا ضمن اتفاقات السرية بيني وبين ليلي فوجدتها تبدأ في إخبار أمها لكني سحبت الهاتف مسرعًا. حاولت شرح الأمر لتفادي سوء ظنها المعتاد لكنها كانت ما زالت في مزاج سيئ وكان لديها ما تقوله لا ما تسمعه. أخبرتها أن بإمكانها السفر لباريس كما تشاء. الحقيقة أني ألححت عليها. صوتها الغاضب جعلني أفكر في مد فترة الانقطاع بيني وبينها. رحلة بيرن لم تكن كافية فيما يبدو فوهبني الله رحلة إضافية لباريس. على أية حال لم يكن هناك ما أفعله لا في بيرن ولا في بازل ولا في باريس.

زيلما انسلت من السرير عارية. في الضوء الخافت لنهار سويسري شتوي كان يمكنني رؤية جسدها كاملًا. كان جسدها جميلًا. في

t.me/qurssan

المساء لم أنتبه لذلك. في المساء كانت نصف مخمورة نصف ألمانية وهو ما جعلها تبدو منفرة لدرجة أن التفكير في طَرق رأسها بمطرقة لم يكن ليبدو كفعل من أفعال الشر. لكن في الصباح وقد استعادت وعيها وسويديتها بدت أكثر رقة. دست جسدها في فستانها مرة أخرى بعد أن اغتسلت. كان الماء ما زال يقطر من جسدها حتى أن الفستان ابتل عند فتحة الصدر. أخرجت من حقيبة يدها زجاجة عطر. رؤية الرذاذ في الضوء الخابي أكثر من رؤية جسدها العاري أثارتني. كان عطرًا جميلًا. ليس عطرًا غاليًا أو رخيصًا، لكنه جميل. قلّبَت في حقيبة يدها ثم نظرت لي فأسرعت بإغماض عيني. اقتربت مني وجلست على حافة السرير بجواري ونكزتني مرتين برفقٍ. فتحت عيني متظاهرًا بالنوم. بصوت يوشك على البكاء طلبت مني أن أقرضها عشرين يورو. كانت سويدية كاملة في تلك اللحظة ولم يكن أمامي غير إقراضها مالًا أعرف أنها لن تعيده دون حتى أن أسألها عن السبب. قمت وأخرجت من محفظتي عشرين يورو. شكرتني بقبلة على خدي. أوصلتُها حتى باب الغرفة. عند الباب دون سؤال أخبرتني أن قصة الأوتيل كانت خدعة. كانت تريد النوم فقط. بدت طفلة كاملة في تلك اللحظة. طفلة حين يداهمها النوم - في أية لحظة وتحت أية ظروف - تنام، وعلى الله أو العالم مسئولية حملها إلى سريرها.

فتحت الموبايل لأعرف التوقيت. تجاوزت الساعة التاسعة بقليل. لم نكن في بداية النهار كما توقعت لكن الضوء الكابي للشتاء هو

t.me/qurssan

مـا أوهمني بذلك. لم تتصـل بي عالية ولم تترك لي رسـالة. فقط عدة رسـائل من البنك تفيد بنقصان متزايد للحسـاب المودع. نبهتني عالية أكثر من مرة لضرورة أن أكسـب رزقي لكني أجّلت البتّ في صلاحية الفكـرة لحين نفاد رصيدي. الحقيقـة أن التفكير في مبررات القيام من السـرير لم تكـن تتضمن بحال من الأحوال الرغبـة في بذل الجهد من أجل ثراء الآخرين. قبل سـت سـنوات كنت داخل ستديو لتسجيلات الأغاني حين قررت الخروج من الستديو ومن باريس كلها. في الكتب التـي كنا نقرأهـا في صبانا ذُكر شـيء عن لحظة غثيان ما وأحسـب أن تلك اللحظة أدركتني وأنا في السـتديو. كنت غاضبًا بشدة لأن المغنية تتعمـد القفز من نغمة لأخرى كصعود أربع درجات دفعة واحدة ولأن عـازف الجيتـار كان يتبع صوتهـا بدلًا مـن أن يقودها لاتخاذ المسـار الصحيح. لسـبب ما لم تتصرف بعناد كما في مرات سـابقة. يبدو أنها كانـت على موعد لا ترغب في تفويته فاسـتجابت بل إنها أرسـلت لي قبلة لتهدئة سـورة غضبي. جلسـتُ مرة أخرى خلف الميكسـر وبدأنا في إعادة التسـجيل. كان صوتها ينسـل ناعمًا وهو يصعد النوتة بخفة. لكـن الخفـة تسـربت لـي في تلـك اللحظـة. شـعرت أن العالـم بات خفيفًـا كريشـة. السـتديو الـذي احتفل منذ فتـرة بمرور خمسـين عامًا على تأسيسـه كان يحتفظ بصور كل موسـيقي خطت قدماه عتبته على الجـدران. من مكاني كنت أسـتطيع رؤية صور الموسـيقيين الراحلين والموسيقيين الذين كانوا - غالبًا - في طريقهم للرحيل. فكرت في أن حياتي سـوف تنتهي في يوم من الأيام إلـى أن تكون صورة على جدار

t.me/qurssan

ويبدو أني لم أكن أحب لحياتي أن تنتهي على هذا النحو بالذات. قبل أن ينتهي التسجيل وجدتني أقوم لمغادرة الستديو حتى أني خلفت ورائي جاكت جلد أسود وعلبة سجائر دافي دوف وموبايل أركوس وعقدًا مع الستديو ينتهي بعد عشرة أعوام. حتى مفاتيح سيارتي الرينو الجديدة تركتها. أمي الوحيدة التي لم تعلق على ما حدث فقد أحبت عودتي للجنوب خصوصًا بعد أن رحل أبي ليعيش مع امرأة أخرى.

بذكر أمي قررت أن أوان تعريف ليلي بأمي قد حان. فمن ناحية سوف تسعد أمي بوجودي لأني سوف أمنحها فرصتها في سب أبي. فأمي لا تسب أبي في غيابي خشية أن يشفق عليها الآخرون أو أن تشمت فيها الأخريات. ومن ناحية سوف تعتني بليلي فترة غياب عالية. ومن ناحية سوف يكون في مقدوري البقاء مطولًا دون فعل شيء، وهو أكثر الأشياء التي أرغب في فعلها حتى مماتي، باستثناء وجودي بالقرب من عالية.

ليلي ما تزال نائمة ويبدو أنها سوف تكون نائمة لفترة طويلة. قمت وارتديت ملابسي واتصلت بعالية. كان عطر زيلما ما يزال في الغرفة ولسبب ما لم أنتبه لوجوده حتى سمعت صوت عالية. كان صوتها مرهقًا بدرجة مرعبة. يبدو أنها لم تنم ليلتها. كان لها صوت امرأة مُغرية. أخبرتها بخطتي. سألتني عن العمل الذي سافرت لبيرن من أجله فارتبك صوتي. من جانبها لم تلح كأنما سألت من باب الواجب. فقط علّقت بأن خطتي مناسبة لأن وجود ليلي - لا وجودي أنا - في

t.me/qurssan

نيم سوف يجعلها قريبة منها، وأضافت - بنغمة استئذان رسمية- إن كان بوسعي إحضارها إليها في باريس إذا لزم الأمر. أنهيت المكالمة دون ردود مناسبة. لا أذكر أني قلت شيئا يليق بقسوتها. حتى أني لا أذكر ما قالته عن اقتراحي العودة لبازل ثم الذهاب معا لباريس. كان بإمكاني وليلي مغادرة بازل فور صحيانها واللحاق بعالية في الوقت المناسب. يبدو أنها رفضت لأني أغلقت الهاتف ولديّ شعور جارف بالخيبة والغضب.

داهمتني الأسئلة المعتادة. إن كنت لم أرغب في أن تنتهي حياتي كصورة على جدار في ستديو باريسي عتيق فهل أرغب في أن تنتهي حياتي كمرور عابر في حياة امرأة عربية لم تعد - لسبب لا أعلمه - تحبني؟!

طوال خمس سنوات تجنبت كل ما يمكن أن يجعلني عالقًا في متاهة. حتى الستديو اضطررت مرغمًا أن أدفع له مبلغًا كبيرًا لأتحرر من العقد الذي يربطني به. مدير الستديو ظن أن لديّ عرضًا كبيرًا من ستديو منافس فعرض أن يدفع ضعف ما كان يدفعه لي لكني رفضت. استقلت من الحزب حتى لا يُملي عليّ أحد شروطًا. تنازلت لأدريان عن نصف ممتلكاتي لإتمام الطلاق بعد عام ونصف من المساومة والعناد. طلبت من وكيلي عدم إرهاقي بأي من الشئون المالية في المستقبل. فقط عليه أن يودع في حسابي الأرباح وأن يدفع ضرائبي في الموعد مقابل تنازلي له عن ثلاثين

t.me/qurssan

فـي المائة منها، وهو أكثر بعشـرين في المائة ممـا كنت أدفعه له من قبـل. كفأر تعب من كثرة الدوران فـي متاهة بحثًا عن مخرج قررت أن أتخلى عن كل شـيء وأن أبقى فـي مكاني متعلقًا بأمل أن يموت من وضعني في المتاهة من الحنق قبل أن أموت أنا من الجوع. كان رهانًا ساخرًا وكنت في موضع الفائز. الآن أشعر كما لو أنني صرت عالقًـا مرة أخـرى. حين التقيت بعاليـة كنت أمد يـدي لإنقاذها من متاهتهـا. كان يمكن أن تنتهي حياتها وهي تهرب من شـيء ما لكني أوقفت مسيرة هروبها تلك. عام كامل ونحن نعيش معا كعصفورين على فرع شـجرة. دون التزامـات. دون خوف من الفقدان. أحببتها، ومـن أجلهـا أحببت ليلـي. لكني الآن أشـعر كما لو أنهـا راغبة في استئناف هروبها وأشعر كأني عالق بمحاولة منعها.

كانت ليلي ما تزال نائمة. لم ألتفت حتى الآن لكونها نائمة بملابسها. نوم زيلما المفاجئ كما لو أنه أصابنا بعدوى النوم. دخلنا الفراش لننام بملابسـنا. تذكـرت الآن أني لم أفـرغ حقيبتي بعد. حيـن وصلنا بيرن ألقينـا بالحقيبة في الغرفـة ودُرنا بالمدينة. كانت ليلي سـعيدة وأردتها سـعيدة. زرنا المتحف الوطني وبرج الساعة. أخذتها لمتجر للألعاب فابتهجت لرؤية الألعاب لكنها لم ترغب في شراء شيء. لم ترغب في أكل طعام أمريكي على غير العادة فذهبنا لمطعم هارموني وأكلنا لحم خيل. أكلتْ بنهم شـديد. ونحن خارجان رأت صورة هزلية لأينشـتين معلقة على شـجرة فسـألتني عن صاحبها ولما عرفت أنه عالم مشهور وأن الصـورة ضمن ملصق للإعلان عن متحفـه طلبت رؤية منزله. لم

t.me/qurssan

يكـن المنزل قريبًا فركبنا تاكسـيًّا. لم أفهم رغبتها فـي رؤية منزل عالم متخصـص في الفيزيـاء الرياضية. في منزله قابلتنا امرأة شـابة تشـرف علـى المنـزل. أعطتنـا بعـض المطبوعات وقالـت وهي تهـم بالعودة لمكانها إنها تحت أمرنا في أية تفاصيل إضافية. كانت مرهقة أو ملولة من عملها أو كانت ترغب في اسـتمرار وحدتهـا لكن ليلي لم تتركها. فجأة وجدتها تعلق بكفها ببهجة كما لو أنها تعرفها. اسـتأذنتُ لتدخين سيجارة بالخارج فيما بدأت ليلي جولتها مع المشرفة الشابة. من الباب أمكنني رؤية المشـرفة الشابة وقد زال مللها وامتلأت حماسة. دخلت لأبحـث عنهمـا فوجدت ليلي واقفة تهدهد مهد طفـل في غرفة النوم. كان المهـد خاليًـا وبجواره فسـتان يخـص زوجة أينشـتين معلق على شماعة. رؤية المهد الخالي والفستان المعلق في فضاء الغرفة جعلتني أبكي. هربت من المنزل قبل أن تشـاهدني ليلي وأنا أنتفض بشدة دون أن أعـرف السـبب. بصعوبة قمت بتهدئة نفسـي وانتظرت انتهاء جولة ليلـي. حيـن انتهت الجولة أوصلتها المشـرفة الشـابة للخـارج. قالت لي المشـرفة إن ليلي شـديدة الـذكاء لدرجة أنهـا التقطت عدة كلمات بالألمانيـة حتـى أنهـا اقترحت علـى ليلـي أن تعيد على مسـامعي كل مـا حفظتـه عـن تاريخ أينشـتين وحياته قبـل وبعد تخليه عن الجنسـية الألمانية. ابتسمتُ للمشرفة الشابة وشكرتها. قبل أن نمضي في طريقنا نـادت عليّ بحجـة إعطائي مطبوعات أخرى وأشـارت إلى رغبتها في الكلام معي بمفردي. حسـبت أنها سوف تشـكو من ليلي أو شيء من هـذا القبيل لكني وجدتهـا تخبرني بأني في حاجـة لصحبة. قالت إني أحتاج للكلام مع شخص عابر. قالت إنها شاهدتني وأنا أبكي. وقالت

t.me/qurssan

إنني يمكنني انتظارها في مقهى قريب لحين انتهاء عملها. شكرتُها بشدة وأخبرتُها أني بخير. ادعيتُ بأن رؤية المهد ذكرتني بموت ابنتي الأولى. تأسّفت وقبلتني في خدي ودعت لي بالسعادة، ودّعت ليلي أيضا بقبلتين في كل خد. كذبت حين قلت إن لديّ ابنة ماتت، وكذبت حين قلت إن ليلي ابنتي. وكذبت أكثر حين قلت إني بخير.

في المساء حين رأيت زيلما شعرت أن عليّ تمرير لطف المشرفة الشابة لها فدعوتها للنوم في غرفتي. والآن سوف يكون على أحد ما تمرير اللطف الذي عاملت به زيلما إليّ مجددًا. في تلك اللحظة أنا في حاجة لصحبة ما. الحقيقة في تلك اللحظة أنا في حاجة لعالية فقط.

اتصلت بها مجددًا وسألتها عما سبق أن قالته حين ذكرت أمر الرحيل معًا لباريس. لم تندهش لسؤالي كما لو أن الحوار الذي أتخيل حدوثه لم يحدث أبدًا. قالت إنها تهم بالنزول للمغادرة لباريس الآن وأنها لن يمكنها انتظاري لعدم رغبتها في تفويت موعدها. هذه المرة كانت أقل حدة وأكثر رقة. على الأقل لم تكن غاضبة كما كانت الفترة الماضية. تمنيت لها رحلة سعيدة وتمنت لي وليلي رحلة سعيدة واتفقنا على التواصل فور وصولها. أغلقتُ الخط.

t.me/qurssan

3

اكتفيتُ برواية شارع المتاجر المعتمة لرحلتي في القطار إلى باريس. ميشيل - لسبب لم يستطع تفسيره حينها - يحب صاحب الرواية، ولهذا يحتفظ له بأغلب رواياته. فوزه بنوبل العام الماضي كان فوزًا لميشيل نفسه. قبل سفري لباريس قرأت ما كان متاحًا من الأدب الفرنسي بالعربية. قرأت البؤساء وأحدب نوتردام. أنطون أجبرني على قراءة روايات فولتير بالفرنسية. لم أحبها. حتى أن الفكاهة فيها لم أفهمها. حين وصلت بازل درّبت نفسي على مشاركة الناس في الضحك حين يضحكون. أكثر دعاباتهم لم تكن مفهومة بالنسبة لي حتى بعد أن أجدت اللغة. وتجنبًا للإحراج هيئت نفسي للضحك في أية لحظة يضحك فيها الآخرون. ذات ليلة انتبه صديق لميشيل لذلك فاعتذر برقة:

- "نحن الفرنسيون نظن أن العالم كله يجب أن يكون فرنسيًا.. والمؤسف أننا نتصرف على هذا الأساس". ميشيل فسّر العبارة بعد أن وصلنا للبيت. "لدى فرانسوا كل الحق". بدا جادًا أكثر من اللازم.

- "نحن - أكثر مما فعل الإنجليز - بغزونا نصف العالم ظننا أننا نقدم خدمة جليلة للإنسانية، وأن الإنسانية يجب أن تكون ممتنة لذلك".

t.me/qurssan

بدا وكأنه يعتذر نيابة عن فرنسا كلها. لم تكن تداخلني أية ضغينة تجاه فرنسا فبدا لي اعتذاره هزليًا. قام وسحب كتابًا من على الرف وأعطاه لي.

- "يمكنك الآن أن تعرفي كم نحن ضائعون".

وأضاف بعد لحظة صمت كما في مسرح فرنسي.. "وتائهون".

كان الكتاب رواية شارع المتاجر المعتمة. لم أقرأها في حينها فقد ذكّرتني رؤية يد ميشيل الممدودة بالكتاب بطريقة أنطون حين كان يهديني كتابًا. نظرة التفاخر التي كانت لدى أنطون لم ترتسم على وجه ميشيل لكني حسبت ذلك مهارة في الخداع. بيني وبين نفسي كنت أفترض أن لكل رجل طريقته في التباهي. أنا فقط لم أعرف طريقة ميشيل بعد. تأملت في غلافه حتى خرج ميشيل من الغرفة. أعدت الكتاب للرف فيما بعد ولم أقرأه.

هذا الصباح بحثت عن الكتاب لأقرأه في القطار. وجدته في نفس المكان وإلى جواره النسخة الإنجليزية. المترجم الإنجليزي أعطاها عنوان "شخص مفقود".

في منتصف الطريق رفعت عيني لأجد عين المرأة العجوز الجالسة أمامي تحدّق في الكتاب. كنت قد اعتدت - بعد عامين في أوروبا - على أن أقرأ في الباصات دون الشعور بالخجل الذي كنت أشعر به في باصات سوريا. كانت رؤيتي أقرأ تثير سخريات اعتدت على تقبلها طالما لم توجه لي بشكل مباشر. السخرية لم تزعجني بقدر انزعاجي

t.me/qurssan

من تحديق الناس فيّ وفي ما أقرأ. اعتدنا في سوريا على أن قراءة الجريدة هي القراءة المسموح بها فقط في أي مكان عام. كانت لدينا صحف تكفي العالم كله وكان مسموح بقراءتها طالما كان مسموح بطباعتها في سوريا. قراءة جريدة أجنبية عرّضت صاحبها للتحقيق ذات مرة حتى تبيّن أن الجريدة تطبع في سوريا من أجل الأجانب المقيمين فيها. الكتب كانت متاحة وغير متاحة. لم يكن هناك - فيما أظن - قانون بذلك وتُرك الأمر دائمًا لتقدير الواشين وإخلاصهم للبلاد. في بيروت كنت سعيدة لأني استطعت أخيرًا السير في الشارع بجونلة قصيرة. وفي بازل صارت سعادتي مضاعفة لأني استطعت أخيرًا القراءة في مقهى على رصيف الشارع بجونلة قصيرة دون أن تلاحقني العيون.

العجوز الجالسة أمامي انتبهت لغضبي فابتسمتْ وضمت كفيها على صدرها عدة مرات كما لو أني صماء.

- "أعتذر.. في سني ينتهي الأمر لأن تصوبي نظرك في أية ناحية دون أن تنتبهي إلى أنها صارت ملتصقة بشيء أو بشخص ما".

- "ذات مرة تعرضت لحادثة".

- "كنت أقف في إشارة مرور ولما طال الوقت حدقت - دون أن أنتبه - في أعين رجل كان يقف على الرصيف في الجهة المقابلة.. ظن الرجل أنني أعرفه.. ظن أنني أتعثر في محاولة تذكره.. لدرجة أننا ما إن بدأنا في السير وكنت ما زلت أحدق في عينه حتى توجه لي

t.me/qurssan

مباشـرة مادّا كفه ليسـلم عليّ.. حين لمس كفي ارتعبـت لدرجة أنني صفعته بقسوة".

تأثر صوتها بشـدة. بدت أنها لم تغفر لنفسـها أبـدًا رغم أنها أكدت "الرجل كان لطيفًا للغاية فقد تفهّم الأمر فيما بعد". وبحزن شديد قالت إن عليهـا مـن الآن ارتداء نظارتهـا الداكنة لتجنب مثل هـذه المواقف حتـى أنها بدأت فـي البحث عنها فـي حقيبتها. مددت يـدي وأوقفت عملية بحثها."لا داعي لذلك الآن". "لا يهم".

سألتها بجدية "هل بدا أني غاضبة لهذا الحد؟!".

حيـن طلبت من ميشـيل الانفصـال طلب مني ألا أتخذ قـرارًا أثناء غضبـي. لم أكن غاضبة. كنت عائدة للتو من بيروت بعد غياب قصير. في بيروت تخلصت من التفكير في ميشيل نهائيًا حتى أنه بدا كشخص متوهّم. حين خرجت من المطار ووجدته دهشت. كان ميشيل حقيقيًا. قبل سـفري وبعـده لم أكـن غاضبة. حقيقة لم يتسـبب لي ميشـيل في مـا يثير الغضـب من الرجال عـادة. كان ميشـيل هادئًا. مرحًـا. مرفهًا. وغالبًـا مخلصًا. وعلى عكس كل الرجال الذين عرفتهم لم يكن غيورًا ولا أنانيًـا. ميشـيل كان يذكرنـي دائمًـا بعاطفية أمي أكثر ممـا يذكرني بالرجـال الذيـن عبروا فـوق روحي وجسـدي بعنف. لـم أكن غاضبة ولهـذا اندهشـت حين أشـار لغضبـي. رغبت في سـؤاله حينهـا لكني خشيت من مضاعفة قسوتي. هل بدا أني غاضبة لهذا الحد؟!.. سألتُ المرأة العجوز.

t.me/qurssan

- "حين نغضب نزم شفاهنا". "منذ بداية الرحلة لم تتوقفي عن زم شفتيك". "حين بدأتِ في الكلام صرتِ أجمل لأنك اضطررت إلى فتح فمك فانبسطت شفتاك". "أنت جميلة.. إذا ما كنتِ لا تعرفين". "في البداية ظننت أنك غاضبة بسبب الرواية لكن الروايات لا تسبب كل هذا الغضب الممتد". "في الروايات نغضب ونفرح ونحزن ونبتسم ونشعر بالخوف والقلق ونبحث عن عزاءات لأحلامنا المجهضة ونبتئس ونسترد الأمل". "لستِ غاضبة بسبب الرواية". "أنت غاضبة منذ صعدت إلى القطار". "لم أنتبه للرواية التي تقرئينها وحتى لو انتبهت فغالبًا لم أكن لأعرفها". "أنا أقرأ للنساء فقط". "عادة لازمتني منذ كنت في الجامعة". "كنا نقرأ سيمون دي بوفوار ونفضلها على صديقها المنتفخ بلغته". "مارجريت دورا وأندريه شديد". "جوليا كريستيفا كانت رفيقتي في سكن الطالبات". "كانت مثلك غاضبة". "وبالطبع ناتالي ساروت وكوليت". "كنا فتيات غاضبات حتى وإن كان أكثرنا لا يعرف سببًا لغضبه". "كانت الموضة أن نكون غاضبات فكنّا غاضبات". "اللاتي غضبن دون معرفة سبب واضح لغضبهن بحثن عن سبب ولم يخب أملهن". "في تلك الأوقات كان يمكن أن يُشن الغضب على الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة أو على فرنسا نفسها بنفس حماسة إعلان الحرب على رابطات العنق وفطيرة Flamiche". "كنت شابة مرفهة.. لديّ عائلة جميلة.. والداي كانا متحررين أكثر مما اعتاد جيلهما أن يكون.. أدرس في كلية أحبها.. ولديّ صديق يحبني وأحبه

t.me/qurssan

وعلى وشك إعلان الخطوبة بعد لقاء عائلتينا". "ومع كل هذا شاركنا معًا في الغضب.. حتى أننا غضبنا بسعادة". "جوليا كانت تقول إن كل شخص له الحق في أن يغضب على طريقته". "كانت الموضة – كما أخبرتك – أن نكون غاضبات فكنا غاضبات". "بعكسك أنت لم نزم شفاهنا بهذه الطريقة".

– "أنت غاضبة حقيقية يا صغيرتي" أضافت.

لم أكن مضطرة لسماع كل هذا الخبل لاستدعاء الشرطي. ولو أني في مزاج أفضل لأخبرت الشرطي بأن هذه العجوز كاذبة. "في البداية ادعت أن تحديقها في وجهي كان عفويًا.. حتى أنها قصت عليّ قصة لا يمكن تصديقها أبدًا لتجعلني أصدق براءتها". "لكنها اعترفت لتوها بأنها كانت تراقبني.. حتى أنها حملقت في كتابي.. في شفتي المزمومتين.. حتى أنها حاولت اكتشاف أسباب غضبي يا سيدي الشرطي". لم أقل شيئًا من هذا بالطبع. حين جاء الشرطي أخبرته بعبارة حرصت على أن تكون قصيرة وواضحة بما يكفي وبفرنسية باريسية "هذه المرأة تزعجني". الشرطي نظر للمرأة مستفهمًا. كان يريد تفسيرًا. احمر وجهها وتغضنت بشرتها حتى أن عروقها الزرقاء برزت كما على خارطة جوجول. لم تدافع عن نفسها بكلمة. لم تقل إنها كانت تحاول أن تجري محادثة ليس إلا. لم تقل إنها كانت تحاول أن تكون لطيفة أو إنها كانت تحاول تمرير الوقت وإن حياتها التي تكاد تنتهي كان ينقصها بعض الثرثرة مع غريب. فقط قالت بصوت

t.me/qurssan

اسف "أعتذر سيدي.. أعتذر سيدتي". أسندت رأسها على النافذة بأس. نظر لي الشرطي محاولًا إخفاء تعاطفه معها. أما أنا فأسرعت نحو الحمام. أغلقت بابه وبدأت في البكاء. بكيت وقتًا طويلًا حتى أن الباب تم طرقه مرتين. حين انتهيت غسلت وجهي وخرجت. عدت لمكاني مرة أخرى. طوال الطريق حتى باريس انتظرتُ أن ترفع المرأة رأسها لكنها لم ترفعه عن النافذة أبدًا.لم يتغير شعورها بالأسى. وفي انعكاس النافذة رأيت شفتيّ مزمومتين.

وصلت باريس. كان الثلج قد بدأ في التساقط. قدرت الوقت بطريقة خاطئة فوصلت مبكرًا أكثر من اللازم. هذا التقدير الخاطئ كلفني عشرين يورو إضافية للسفر بالقطار السريع، وأربعين لو أنني حجزت بالدرجة الثانية. كنت جائعة لأني لم أفطر. خفت من رجرجة القطار. كما خفت من التهاب القولون. أجّلت الفطور لحين وصولي. كنت جائعة لكني غير راغبة في الأكل. أجلت فكرة الطعام لحين انتهاء المقابلة. فردت مظلتي وخرجت من المحطة. كان عليّ أن أصل أولًا لمكان دار النشر في شارع سان برنارد قبل التفكير في أي شيء آخر. منذ وصلت أوروبا ولديّ فوبيا الوصول متأخرة. فوبيا التأخير في الصحيان. التأخير في النوم. التأخير في تسليم مسودات الأخبار التي كنت أحررها لبعض الصحف المحلية في بازل. التأخير في تسجيل اسمي واسم ليلي في دفاتر اللاجئين. التأخير في الاتصال بأمي. التأخير في انتظار أن يهجرني ميشيل أولًا. في دمشق لم يكن لديّ مثل

t.me/qurssan

هذه الفوبيا. دمشق مدينة صغيرة مهما اتسعت. كان يمكننا قطع المدينة كلها في وقت قصير. كان يمكننا قطع المدينة سيرًا على الأقدام. في دمشق يسير المرء كثيرًا لأنه يطمئن إلى أنه - مهما سار - لن يمضي بعيدًا. كانت الشمس تغيب دون أن نتنبه إلى أننا ما زلنا سائرين. كنا نتسكع أكثر مما كنا نسير. بسطات الكتب. الباعة الجائلون. الواقفون عند النواصي يضحكون. الروائح. رائحة عرانيس الذرة. الفول النابت. الصبارة. العوجة. الشاورما. البوظة. الكعك. كاسات الشاي. دخان الأركيلي. الطريق من جبل قوسيون إلى الميدان. من أبو رمانة لحديقة تشرين. قصر الشعب القديم. الطريق إلى الفردوس. المبنى الغامض الذي أبدًا لم نر أحدًا خارجًا منه ولا داخلاً إليه. الحارس الذي يُدخّن أمامه في ملل والذي كانت الشمس منعكسة طوال الوقت على سن سلاح البارودة التي يحملها بضجر.

انتبهت على صوت أم كلثوم. للحظة ظننت أنني في دمشق ما زلت وأن كل ما مر بي كان مجرد حلم. ظننت أنني أحمل حقيبتي لألحق بمحاضرة دكتور شعلان في معهد اللغات. ظننت أني في شارع نادي المعلمين بانتظار سلمى وميسون وفاطيمة. لكن صوت أم كلثوم لم يكن آتيًا من محل البوظة في شارع نادي المعلمين. كنت -وكانت أم كلثوم- خارج محطة ليون. آتيًا من نافذة سيارة أجرة. كان الصوت خافتًا لكن أذني لم تخطئه. كان من الأفضل الذهاب بالباص بالطبع. التاكسي في باريس كما في دمشق للأغنياء فقط. لكن صوت

t.me/qurssan

أم كلثوم الآن وفي تلك اللحظات كان يستحق التضحية. ملت على نافذة التاكسي ونظرت للسائق الذي كان في شبه قيلولة. عرفت أنه عربي من طريقته في النوم بنصف عينين مغمضتين ومن الطريقة التي يلف بها عنقه بالغترة اتقاء للبرد. طرقت على زجاج النافذة فابتسم لي نصف ابتسامة. ركبت في الخلف. قبل أن تمتد أصابعه لغلق الكاسيت أشرت له بأن يتركها تنوح. كانت تغني أغنية قديمة وعلى الطريقة القديمة كانت تنوح كامرأة تتألم. السائق - على عكس ما توقعته - لم ينظر لي مرة واحدة في المرآة. لم يكن فضوليًا كعادة سائقي التاكسي. كنت في مزاج أفضل بسبب وصولي باريس مبكرًا ولم يكن لديّ مانع من الكلام. بفرنسية مدجنة سألني عن وجهتي. بفرنسية حرصت على أن تبدو مدجنة أخبرته. اندهش فيما يبدو لأن شارع سان برنارد لم يكن قريبًا. بحكم الخبرة يعرف أن الذين يركبون معه لمسافات طويلة إما أنهم من السائحين أو من الذين يزورون المدينة للمرة الأولى. لم يبد من هيئتي أني من السائحين ولا من الذين يزورون المدينة لأول مرة فنظر ليّ أخيرًا في المرآة بفضول. عقد حاجبيه قبل أن يسألني "تركية؟".

كانت ملامحي أقرب للإيرانيين منها إلى أي جنسية أخرى. ومن لكنته خمنت أنه مصري لكن آهة إعجاب بالست أم كلثوم صدرت عفوًا تأكدت منها أنه سوري. كان يمكنني المراهنة على أنه من حمص.

t.me/qurssan

انطلقت سيارة الأجرة من ساحة ما في دمشق. انطلقت مرورًا بشارع الثورة، جسر النصر، ساحة الأمويين، طلعة عدنان المالكي، ساحة ذي قار بالقرب من مشفى الشامي، بمحاذاة قبر الجندي المجهول، وكانت أم كلثوم تغني، أو ربما كانت - كما تفعل الآن - تنوح. كان الوقت ليلًا. ليل متأخر جدًا فيما يبدو. أو لم يكن متأخرًا جدًا. لكنه كان ليلًا دمشقيًا صافيًا. لم يتوقف سائق الأجرة عن التحديق بي عبر المرآة، فوجودي معه في هذه الساعة المتأخرة كان مريبًا. وكم هو مريب أن تستقل فتاة سيارة أجرة في وقت متأخر كهذا، في الوقت نفسه الذي تعود فيه سندريلا نصف حافية. كنت عائدة من مشاهدة عرض مسرحي وافترقنا أنا وأنطون لأنني سمحت لنفسي بأن أناقش السياسة معه في طريق العودة. تركني في الشارع ومضى لأني نصف برجوازية نصف علوية. نعست. أعدت رأسي إلى الخلف. غفوت للحظة، استيقظت.

- "شو قصة أم كلتوم والتكاسي؟" سألته.

- "كيف يعني، أختي؟" أجاب مندهشًا.

- "أنا صفيت ما بسمع أم كلتوم غير إذا أخدت تاكسي بوقت متأخر" وضّحت.

- "شكلك من زمان ما سمعتي أم كلتوم؟" أراد أن يفهم أكثر.

- "حسب السهرة" وضّحت.

t.me/qurssan

- "الله يستر علينا" قال.

بعد برهة أضاف "أنت متل أختي، الله يستر على أخواتنا.. بس والله ما بيجوز تطلعي بتاكسي لحالك بنصاص الليالي".

- "ليش؟" استفسرت بحدة.

- "يعني والله ما بيجوز" وضّح.

لم أفهم فقلت بصوت أكثر حدة "بس ليش؟". ارتبك.

- "يعني صبية متلك والوقت متأخر، وولاد الحرام كتار..".

أضعت الأبيات الأخيرة من القصيدة وأنا أغصب نفسي على الاستماع إليه. كنت غاضبة من أنطون لكني تذكرت أن الرجل الذي يعمل سائقًا للأجرة هذا المساء ويحدثني بنبرة ودودة ليس أنطون، ولا عمي أبو حاتم، ولا مذيع الراديو الذي يخبرنا بأخبار الرئيس ولا الرئيس نفسه.

- "مو بيقولولك ما تخاف من يلي بيخاف ربه؟" سألت بلطف.

- "صحيح" قال.

- "وأنا ما بخاف من يلي بيسمع أم كلتوم" أضفت مداعبة.

صَمُتَ. صمت. أم كلثوم. تشويش البث عند "قبر الجندي المجهول". عودة البث. عودة الحديث.

- "والله ما بيجوز" قال. ضحكتُ وضحك.

t.me/qurssan

- "سُوريّ؟" قطعت الصمت الباريسي وسألت بالفرنسية.

- "حمصي" أجاب دون نية في استمرار الحديث.

ابتسمتُ.

- "هلأ حزرت أنك حمصي" قلت بالشامية.

- "هاد هو الحكي.. صار لك في باريس مدة طويلة؟" سأل.

فهم أني سورية لأنه تكلم باللهجة الشامية.

- "بلشت على سويسرا من تلات سنين" أجبت.

دون سؤال قال هذه المرة بالفرنسية:

- "كنت أستعد للعودة حين اشتعلت الحرب.. قيل لي أن أبقي فبقيت".

- "عم بيسموها آل عمار ثورة" قلت.

لم يسأل عمن يكونون آل عمار ولا عمن يكون عمار.

- "المهم أنها كانت سببًا لمزيد من الغربة" قال.

لا أعرف لماذا عاد للكلام بالفرنسية فقلت بالشامية:

- "إلك حق".

أخذ نفسا عميقًا. تضرع صوت أم كلثوم "يا نَفسُ دُنياكِ تُخفى كُلَّ مُبكِيَةٍ وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ". صمت سائق الأجرة وأنا معه. وهكذا حتى وصلنا إلى شارع سان برنارد. توقفنا. حاسبت. وقبل أن أنزل قال "الله يحميكي". لم يبقَ ما يُقال.

t.me/qurssan

- "يعطيك العافية".

كان لديّ وقت طويل قبل موعد المقابلة. اكتشفت أن ميشيل لم يطلبني فحزرت أنه ينوي معاقبتي على قسوتي. كنت أريد الاطمئنان على ليلي والبحث عن حجة غياب إذا ما طلبتني أمي. اتصلت بميشيل. لحظات ثم سمعت صوت ليلي. صوتها كان مبتهجًا فبدأت أشعر بالعصبية. كنت أرغب في بكاء. في صوت متوسل ألا أتركها مرة أخرى مع غريب. لم بعد ميشيل غريبًا لكن في غيابي أريد من ليلي أن ترى الجميع كغرباء. لا أريدها أن تخاف الآخرين لكن أريدها ألا تشعر بالأمان إلا حين تكون معي. سألتها بحدة لم أقصدها "ألم أوحشك؟". أرسلت لي قبلات كثيرة كما لو أنها تدربت عليها الليلة الماضية. سألتها عن ميشيل وقبل أن تعطيه الهاتف أخبرتها أني أسأل فقط. قالت إن ميشيل يستعجل الطعام. انفعلتُ "كيف يتركك وحدك ويذهب...". "إنه أمامي" قاطعتني. سألتها عن أخبار عمله فارتبكت. كنت أعرف أن سفره لبيرن ليس من أجل العمل كما أخبرني. ميشيل قرر ألا يعمل مرة أخرى وكان مصرا على ذلك. أحببت كونه يكذب فعلى الأقل يمكنني الآن أن أغضب. أن أتهمه بالكذب. بالإهمال. بأي شيء. أخبرت ليلي أننا - أنا وهي - سوف نكون معًا قريبًا. قالت إن ميشيل أخبرها بأننا - وكانت تقصد هي وأنا وميشيل - سوف نكون معًا قريبًا. بدا من صوتها أنها متأكدة فقط لمجرد أن ميشيل - وليس أنا - وعدها بذلك. أغلقت الخط.

كان لديّ وقت طويل قبل موعد المقابلة، لكني في هذه اللحظة، فكرت في أنه وقت أقصر مما يكفي للسفر لبيرن.

t.me/qurssan

4

ضحكت بشدة. تكررت فيما يبدو مرات سؤالها إن كانت إيطالية.

- "أمريكية". أجابت. وأضافت "وهذا يعني أن تكون أي شيء أو كل شيء إن شئت الدقة".

كنا واقفيْن أمام عجلة دوّارة من عجلات الملاهي صمّمت لكي يشاهد منها السائحون مدينة بيرن من أعلى. كان لديّ فوبيا من الأماكن المرتفعة فعهدت بليلي لعائلة كورية وافقت بلطف شديد على أن تصاحبهم. الأمريكية التي ظننتها إيطالية بسبب بشرتها الداكنة كانت واقفة تتابع ابنها الذي كان شجاعًا كفاية ليصعد وحده.

- "ظننتك إيطالية بسبب...".

- "بسبب لون بشرتي.. أعرف". قاطعتني.

- "أورثتني عائلتي كثيرًا من الشمس التي حصلوا عليها قبل هجرتهم لأمريكا".

ابتسمت ابتسامة لطيفة للغاية.

- "تونسية إن كنت تصر على أن تعرف".

t.me/qurssan

- "سافر والدي إلى أمريكا ليحصل على شهادة فحصل على زوجة".

ضحكت مرة أخرى. ضحكتها رائقة كأغنية للبيتلز.

- "زوجة تونسية".. أضافت فعرفتُ سبب ضحكتها.

- "كان يمكن ألا يلتقيا أبدًا لو أنهما ظلا في بلد مساحته أقل من مساحة ولاية أمريكية متوسطة". ضحكتْ مرة أخرى.

- "هل تعلم أن مساحة كاليفورنيا التي التقيا فيها تعادل ثلاثة أضعاف مساحة تونس؟!".

- "وماذا تفعل أمريكية من أصل تونسي في بيرن؟" سألتُ.

- "أمي لم تحب أمريكا. كانت تقول إن أمريكا لا شيء. بلد منتفخ كمعدة محشوة بأصناف طعام لا علاقة لبعضه ببعضه.. يسبب السمنة والتهابات الأمعاء".

- "حين كنت مراهقة بدأ وزنها في الازدياد بسرعة.. اتهمت أمريكا وقررت العودة لتونس". بابتسامة متعبة أضافت "هَجَرتنا".

كانت ليلي قد صارت في أعلى نقطة فلم يعد من الممكن رؤيتها ولا رؤيتي، ورغم ذلك لوّحتُ بذراعي كما لو أني أراها وتراني.

- "ابنتك؟" سألتني.

- "ابنة صديقتي".

t.me/qurssan

- "واووووو".

عبّرت عن إعجابها أيضًا بالضغط على إطار نظارتها الطبية كما لو كانت تتحقق من وجودي.

- "لك عينان جميلتان" قلت.

- "أشكرك.. أنت رجل مجامل آخر".

التعليق بأني رجل "آخر" ضايقني.

- "لا أقصد.. أعتذر.. ليس هناك رجل يشبه الآخر ولا امرأة تشبه الأخرى" استدركتْ.

- "لكن الرجال حين يغازلون يكونون الرجل نفسه في كل مرة" أضافت.

- "لم أكن أغازلك" قلت. "أقصد لم أبدأ في مغازلتك بعد" أضفت اعتذارًا.

- "سألتَني ماذا أفعل هنا.. في سويسرا؟.. هل ما زلت مهتمًا بالحصول على إجابة؟".

لم أحر جوابًا ويبدو أنها لم تكن في انتظار أي إشارة لاستكمال الحكاية.

- "بعد أن هجرتنا أمي وعادت لتونس ماتا.. مات أبي من الاكتئاب.. لم يصدق أنها استطاعت فعل ذلك.. حين مات تصلّب

t.me/qurssan

وجهه الميت على علامة استفهام كبيرة.. أما أمي فاكتشفتُ حين حاولتُ الاتصال بها لإخبارها بموت أبي أو للومها إن شئت الدقة أنها ماتت قبل رحيله بأسابيع.. عرفتُ أنها سوف تموت.. كانت مريضة ولم تخبر أحدًا.. رغبت في الموت في بلدها.. بعد ثلاثين عامًا من العيش في بلد بعيد فكّرَت أن تمضية العمر في بلد لا يعني أنه صار البلد الذي يمكن للمرء أن يُدفن فيه كما لو أننا ندفن بجواز السفر وكما لو أن الأرض التي هنا ليست الأرض التي هناك".

صمتتْ. وصمِتُ. تغير مزاجها تمامًا. نبرة صوتها صارت أكثر ارتباكًا وأكثر ألمًا حتى أنها صارت تشبه أغنية من أغاني البلوز. ملامح وجهها تبدلت كما لو صارت امرأة أخرى. امرأة أخرى تمامًا. لكن عينيها ظلتا جميلتين. أشاحت بوجهها بعيدًا. نحو العجلة الدوارة التي كانت تدور ببطء شديد ليتمكن الراكبون من رؤية المدينة على مهل. المدينة التي يعني اسمها الدب.

الدوق الذي أنشأ المدينة قرر أن يمنح اسم أول حيوان يصطاده لها. دبٌ مسكين كان يبحث عن طعامه في الغابة تصادف أن قاطَع طريق دوقًا مغرورًا في رحلة صيده منح المدينة اسمها. كانت العجلة تدور ببطء شديد وفي الخلفية كانت نافورة على شكل دب متجمدة من البرد أسفل الجسر حتى بدت كعمل فني من الزجاج.

- "يأتي السياح للفرجة على بيت أينشتين" قالتْ فجأة.

- "يظن السويسريون أن أينشتين لم يكن قادرًا على اكتشاف نسبية العالم لو أنه بقي في ألمانيا" أضافت.

t.me/qurssan

- "زرت ألمانيا الشتاء الماضي.. لم أجد فارقًا كبيرًا.. الحقيقة لم أجد فارقًا كبيرًا بين بلد أوروبي وآخر.. كلها مقاطعات قرون وسطى متشابهة". "الأوروبيون غارقون في القرون الوسطى أكثر مما يعرفون.. هل تعرف ذلك؟!".

كنت قد بدأت في رؤية ليلي أخيرًا. لوّحت لي كما لوّحت لي الأسرة الكورية كلها. الرجل والمرأة والطفلان كلهم لوّحوا وعلى وجوههم نفس الابتسامة السعيدة. لم أفهم ما قالته الأمريكية التونسية لتوها. كأوروبي كنت لا أفهم مبالغتنا في الاحتفاظ بكل آثار الماضي رغم أنها لم تعد تعني أي شيء لأي شخص. الكاتدرائيات لم يعد يزورها أحد لكن الحروب التي خضناها ضدها لم تجعلنا نفكر في هدمها. الأوروبيون - الذين كنت منهم - بدوا محيرين في هذه اللحظة.

- "على أية حال أنا هنا لأني أهرب من مفارقة كمفارقة لقاء أبي بأمي في أمريكا".

- "لا أهرب من التونسيين إن كان هذا هو المعنى الذي وصلك".

- "أنا أذهب من بلد لآخر للهروب من أي لقاء محتمل".

- "العالم تاريخ من التعاسة المتصلة المبنية على المصادفات.. وأنا قررت ألا أشارك في هذا التاريخ".

- "سوف يكون لكم تاريخكم ولي تاريخي".

t.me/qurssan

لـم أفهم أيضًا. اعتدت على ترديد مثـل هذه العبارات من قبل. في شـبابنا - والـذي كان يعنـي قبل عشـرين سـنة مـن الآن - تعرفنا على نظريـة الفوضـى. كانت دعابة أينشـتين المحتجة علـى النظرية إحدى دعاباتنـا المكـرورة. اللـه لا يلعـب النـرد. وأنـت لا تملـي علـى الله مـا ينبغـي أن يفعـل أو لا ينبغـي أن يفعل يا مسـتر أينشـتين. لكن حتى هـذه العبارات التـي قالتها الأمريكية والتي قلتها والتي سـمعتها مئات المرات في شـبابي بدت لي فجأة غير مفهومة على نحو مفزع. لمجرد أنها قيلت خـارج المجموعة التي اعتادت ترديدها جعلها مبهمة وغير حقيقية. أو أن ذلك جعلها أكثر حقيقية مما اعتدت. حتى أنها أصابتني بالاكتئـاب فجـأة. حين ذهبنـا أنا وليلـي لنتغدى اتصلـت عالية. كنت أستعجل الطعام حين رأيت ليلي تمسك هاتفي وترد. عرفت أنها عالية فابتهجت. مجرد اتصال عالية على هاتفي ما زال يسـبب لي السـعادة. حين عدت لطاولتنا كانت قد أغلقت الخط. سألت ليلي إن كانت أمها قد سألت عني فهزت رأسها. كنت أعرف أنها تكذب. كان حبي لأمها جـزءًا مـن خطط تواطئنـا الثنائي. ليلي نفسـها كانت تحـب رؤيتنا معًا أكثر من رؤية أي منا منفردًا. في الصباح سـألتني فجأة إذا ما كنا سـوف نعود لبازل. سؤالها كان جديًا ففهمت أنها تريد العودة فعلًا. سألتها إن كانت اشتاقت لأمها فقالت "اشتقت لكما".

لـم تقصد أن تقولها بهـذه الطريقة. حين نكبر نتعثر في قول ما نريد قولـه لكن في طفولتنا ورغم تعثرنا في اللغة نفسـها فإننا غالبًا نعبّر عن

t.me/qurssan

الشيء الذي نريده بدقة كبيرة. في طفولتنا نطلب الطعام أو الماء بأكثر الطـرق اختصارًا. حتى الحب نطلبه بالطريقة نفسـها. حين نكبر نكون قـد تعلمنـا اللغة بالقدر الـذي يجعلنا نكذب بها. بالقـدر الذي يجعلنا نخطئ. تشـوش اللغة معرفتنا بأنفسنا. معرفتنا بما نريده وبما لا نريده. تريدنا ليلي معًا. أنا أريدنا معا. لكن عالية يبدو أنها الوحيدة في علاقتنا التي لم تعد تريدنا معًا. أم أنها لا تعرف ما تريده بعد؟

مـا إن فُتـح باب العجلة الـدوارة حتى جرت ليلي نحوي بسـعادة. كان ابـن الأمريكية لم يأت دوره بعد. الأمريكية ربتت على شـعر ليلي ثم اسـتندت علـى ركبتها وأخبرت ليلي كم هـي محظوظة.. وجميلة. حركـت ليلـي كتفيها ببراءة. نقّلت نظرتها بيني وبيـن الأمريكية كما لو كانت تطلب العـون. الأمريكية - لتبدد حيرتها - قالت "عكّرت مزاج هـذا الرجل المسـكين لكنه ظـل يعاملني بلطـف". وأضافت "لا تجد النسـاء رجـالًا مثله هـذه الأيام". ليلـي احتضنتني كما لـو كانت تؤكد ما قالته الأمريكية. قامت الأمريكية واقتربت مني لتسألني بهمس "هل مـا زلت ترى عينيّ جميلتين؟!". ابتسـمت ولـم أرد. كان ابنها قد جاء الآن. أكبـر مـن ليلـي بأربعة أعـوام تقريبًا. لـم أكن قد رأيتـه جيدًا قبل صعـوده لدرجة أنـي تفاجأت الآن بعـد نزوله بأنه ذو ملامـح أوروبية صرفـة. كانت ملامحه تشـبه التماثيـل الرخام في كل ميادين أوروبا. ابتسم لي ولليلي ببراءة ممزوجة بشقاوة طفولية.

- "إن كنت ترغب في اسـتكمال حديثنا يمكنني إعطاؤك رقمي".. قالت.

t.me/qurssan

- "بالمناسبة هذا ليس ابني.. أنا جليسته.. لكن هذه قصة أخرى.. قصة مزعجة أخرى من قصصي" أضافت مداعبة.

- "سوف نسافر هذا المساء.. كان يسعدني استكمال حديثنا بالفعل.. لكن لعبة المصادفات تجبرني على الرحيل" قلتُ بمواساة.

ابتسمت ابتسامة رائقة مجددًا. ثم نظرت لليلي وقالت "ألم أقل لك.. هذا الرجل ما زال يثير دهشتي.. حين تلتقين أمك أخبريها أن امرأة التقته مصادفة وأحبته منذ اللحظة الأولى". "أخبريها أيضًا أني كنت أنوي اختطافه لولا أنه يحبكما.. أخبريها ألا تتركه وحيدًا لأنه اجلًا أم عاجلًا سوف يستسلم للاختطاف". أرسلت لنا - معًا - قبلة في الهواء ثم مضت. الطفل ابتسم لنا ابتسامة سعيدة أخرى ثم رحل معها. ليلي التي يبدو أنها لم تفهم بعد ألعاب الكبار احتضنتني مرة أخرى ثم بدأنا في السير.

- "هل أعجبتك العجلة الدوارة؟!".

- "حين صعدَت بي لأعلى لم أكن راغبة أن تهبط بي أبدًا".

- "ألم تشعري بالخوف؟!".

- "شعرت بالبرد.. كان الجو باردًا جدًا.. لكن المرأة أمسكت بكفي ونفخت فيهما واحتضنتني بقوة".

- "لن أتصل بأمك مجددًا.. إن أردت أنت الحديث معها يمكنك الاتصال بها وقتما تشائين.. لكني لن أتصل بها مجددًا إلا إن أرادت هي الحديث معي".

- "هل أنتما متخاصمان؟!".

t.me/qurssan

5

- "هاي.. أنا أولجا أولتسكايا". "يمكنك أن تناديني أولجا". "جئت في موعدك تمامًا". "تفضلي هنا.. دقائق وسوف يكون فرنسيس جاهزًا لاستقبالك".

استقبلتني أولجا بحسب الاتفاق. كانت مشغولة فيما يبدو فاختصرت كل الطرق بأربع عبارات سريعة. الآن عليّ أن أنتظر تفرغ فرنسيس لي كما قالت. جلست على الكرسي الذي أشارت إليه أولجا. كنت أحمل حقيبتين. حقيبة ملابسي وحقيبة العمل. في المساء حين عدت للبيت جمعت كل قصاصة نشرت لي في ملف. أعددت كل الأوراق التي حسبت أنهم قد يسألون عنها في دار النشر. دار النشر بدت صغيرة أكثر مما تخيلت. شقة في بناية قديمة بوسط المدينة تشبه بنايات دمشق الفرنسية. على الجدران لم تكن أغلفة الكتب -التي تخيلت أن تكون موجودة- موجودة. قبل إرسال طلبي للعمل في الدار منذ شهور بحثت عنها على الإنترنت. عرفت من الأخبار المنشورة عنها أنها دار متوسطة. ليست دارًا مشهورة مثل غاليمار مثلا لكنها ليست مجهولة ككثير من دور النشر الفرنسية الصغيرة الأخرى.

t.me/qurssan

ومع هذا لم أتخيل أن الدار التي تنشر كل هذا العدد من الكتب سنويًا تدار من شقة صغيرة بوسط باريس لا تسكنها أسرة صغيرة. أولجا التي لا أعرف طبيعة عملها بالضبط كانت تدور في المكان كما لو كانت في مطبخها. كانت تسأل عن موعد حفل توقيع كتاب وعن التخفيضات التي يقدمها مطعم مكسيكي وعن صحة خالتها وعن سعر إصيص الزنبق الذي أحضره عامل في اللحظة نفسها. كانت تتكلم في التليفون وترد على أسئلة الآخرين ولا تكف عن التدوين في دفتر في نفس اللحظة أيضًا. لأولجا جسد ضئيل لامرأة. كانت أشبه بولد صغير خصوصًا بتصفيفة شعرها الفرنسية. الزغب فوق شفتيها كاد يبدو كشارب لولا لونه الذهبي الذي يماثل لون بشرتها. وبحسب نشاطها يمكن أن تكون أصغر مني بعامين أو أكبر مني بعامين على الأكثر. من اسمها حزرت أنها روسية أو على الأقل من البلدان التي كانت تتبع الاتحاد السوفيتي والذي كان يثير غضب سيدة القطار وصديقاتها. انتبهت إلى أني أمسك بيدي حقيبة ملابسي كما لو كنت أخشى أن أُسرق. كان منظري مضحكًا ولحسن الحظ أن أحدًا لم يكن متعطلًا ليحملق في امرأة عربية مهووسة بحملها. أزحت الحقيبة إلى جوار الحائط حين طلبت مني أولجا الدخول لمقابلة فرنسيس. أشارت إلى باب غرفة في مواجهة الطرقة وكانت تتحدث إلى أحد في التليفون وما تزال تدوّن ملاحظاتها ففهمت أن عليّ الذهاب وحدي لمقابلة فرنسيس. أشرت إلى حقيبتي فقالت بنبرة تخلو من السخرية "إن لم يكن فيها قناع توت عنخ آمون فلست مهتمة بسرقتها" فلم

t.me/qurssan

أعـرف إن كانت هذه إهانة يمكن تفاديها أم أنها مجرد طريقة باريسـية في الكلام.

طرقتُ الباب ودخلت. غرفة متسعة بها مكتب صغير في المنتصف تقريبًـا. الجدران كلها مغطاة بمكتبة صُفّـت عليها كتب كثيرة. صُفّت بعنايـة حتى أن كتابًا واحدًا لـم يكن أصغر أو أكبر من الآخرين. جوار النافـذة الوحيـدة منضدة صغيرة تشـبه موائـد المطبـخ وحولها أربعة كراسـيّ. فرنسيس رجل في أوائل الخمسـين تقريبًا. شعره أبيض كله ومصفـوف باهتمام رجل يمضـي وقتًا أطول من المعتـاد أمام المرآة. يرتـدي بنطلونًـا رماديًـا وقميصًا أبيض وربطـة عنق رماديـة. بالقرب مـن مكتبه شـماعة معلـق عليهـا جاكت بدلة رمـادي وبالطـو أخضر كالعشـب. بـدا البالطـو الأخضر كالشـيء الملـون الوحيد فـي غرفة بالأبيض والأسود. فرنسيس ابتسم فور دخولي ابتسامة مرحبة فانضم إلى الأشـياء الملونـة داخل المكان. قـام لملاقاتي أمـام الباب. حين سرت نحو المكتب وجدته يشير للمنضدة بجوار النافذة. "على مائدة الاجتماعـات أفضل". عجيـب وصفه للمنضدة كمائـدة اجتماعات. جلسـت وجلس ممددًا ظهره للخلف كما لو كان يسـتريح من جلسـة طويلة على المكتب. فتحت حقيبة يدي لإخراج أوراقي لكنه بدا غير مهتـم.

- "أرجـو أن تكـون أولجا قد حدثتـك عن طبيعة العمل؟!" سـأل بجدية.

t.me/qurssan

- "كان لديها كثير من الأعمال" أجبت للتغطية على خطأ غير مقصود يبدو أن أولجا ارتكبته. فزفر بغضب.

- "هذه المرأة لا نهاية لإهمالها".

تثاءب بملل ثم جلس جلسة مهنية أكثر. شبّك كفيه بعضهما ببعض وأصدر صوت طرقعة. فرك كفيه عدة مرات كما لو كان يستعد لخوض مباراة فاصلة.

- "اسمعي يا.." وطرق بإصبعيه مستفهمًا.

- "عالية".

- "اسمعي.. نحن دار نشر صغيرة. ننتج بالكاد خمسمائة عنوان بالعام. في السنوات الأخيرة لاحظنا اهتمام عملائنا بالروايات العربية. وقررنا أن نترجم مجموعة منها قبل أن ينحسر هذا الاهتمام".

- "نحن دار نشر مستقلة وهو ما يعني أننا ننشر كتبًا عادة لا يهتم بها الكثير من الناس.. لكننا بدأنا التفكير منذ عدة سنوات في أنه لا بأس أن ننشر بين الحين والآخر كتبًا يهتم بها عدد أكبر من الناس".

- "لدينا خبراء يقومون بترشيح الكتب التي يعتقدون أنها قد تكون مهمة للناس.. بالطبع لا أتعامل مع هذه الترشيحات دون مراجعة".

- "لدي أصدقاء سريون". أسر لي هامسًا.

- "المهم.. لدينا خبراء يقدمون اقتراحاتهم. ولدينا محررون جيدون جدًا يمكنهم صنع روايات عظيمة وشيقة من أية مادة أدبية

t.me/qurssan

مهما كانت سطحية ومملة.. ما ينقصنا الآن هو مترجم.. مترجم يعرف اللغتين بشكل جيد".

حاولت مقاطعته حتى بإبداء موافقتي على ما يقول لكنه قال ما قاله دفعة واحدة كما لو أنه تدرب على قوله. خطر لي أنه قال كل ذلك دفعة واحدة لأنه قاله عدة مرات أمام متقدمات كثيرات للعمل. خوفًا من أن تحصل أخرى على الفرصة قررت استعراض ما لديّ وكان قليلًا. أخرجت قصاصات الأخبار التي كتبتها للمواقع المحلية في بازل وشهادة خبرة حصلت عليها من جريدة تابعة لمصلحة البريد لكنه أصر على أنها أشياء غير مهمة. لم أعرف إن كانت أشيائي غير مهمة أم أنه يقصد مثل هذه الأمور التي يقدمها الناس عادة للحصول على وظيفة. لم أجرؤ على سؤاله. تركني وقام. التقط من فوق المكتب ملفًا ورزمة من الأوراق البيضاء وعاد. طرح الأوراق أمامي وسألني إن كان معي قلم. مرتبكة قلت "نعم" وبدأت في البحث عنه في حقيبتي حين فوجئت به يلقي الملف أمامي كما يلقي المدرسون الكراريس في وجوه تلاميذهم.

- "في هذا الملف عدة أوراق مستقطعة من رواية عربية نظن أنها جيدة للسوق هذه الأيام".

- "أظن أن ساعة واحدة كافية لترجمتها.. أليس كذلك؟!". لم ينتظر ردي.

- "سوف أذهب لأتمشى وأعود بعد ساعة.. اعتبري نفسك في مكانك.. إن احتجتِ لأي شيء يمكنك طلبه من أولجا".

t.me/qurssan

ذهـب فارتدى الجاكـت والبالطو ووضـع بيريه فوق رأسـه. كنت متوتـرة لأقصى درجة لكني شـعرت بالعجز عن فعل أي شـيء أو عن قول أي شيء.

- "لدينـا قهوة فرنسـية جيدة.. ونبيذ ممتاز أيضا" أضاف. "سـوف أعود بعد ساعة.. تشاو".

كنـت متجمدة في مكاني حين سـمعت صرير بـاب غرفة المكتب وهـو يُغلـق خلف فرنسـيس. أعادنـي فرنسـيس فجأة للجلـوس أمام موظفـي السـفارات لتقديم طلبات الهجرة. تأشـيرة واحدة قادرة على منحـك النجاة. لحظـة رفع الموظف يده لالتقـاط الخاتم وأنت تراقبه فيمـر الوقت بطيئًا كما في الأفلام. لحظات تمر كأنها سـاعات بانتظار معرفة أي خاتم سوف يلتقطه الموظف ليصفع به أوراقك. وفي النهاية تخرج من السـفارة منهزمًا ومحرجًا كما لو أنه طبع خاتم الرفض على جبينـك. تمـر بالناس في الشـوارع فتشـعر كما لـو أنهم يشـيرون لك بهمس أيها المرفوض. لن تتركنا وتنجو بمفردك. سـوف تقبر هنا معنا في الزحام والفوضى.

الغرفة بدت أصغر بكثير مما بدت عليه حين دخلت. لاحظت رائحة دخان سيجار كثيفة لم ألاحظها حين دخولي. كانت الغرفة معتمة عتمة لم أنتبه لها أيضًا حين دخلت منذ دقائق. كانت الغرفة مظلمة إلا من ضوء شاحب لمصباح فوق المكتب. المنضدة التي يسميها فرنسيس مائدة اجتماعات بالكاد يصلها ضوء باهت من

t.me/qurssan

النافذة. وخارج النافذة كانت طبقات من الضباب الأبيض تخفي شمسًا تختنق خلفها. في صمت الغرفة تمكنت من سماع ضربات قلبي التي تسارعت. تحجرت دموع حارقة في عينيّ اللتين كادتا تنفجران. رغبت بشدة في أن أكون الآن مدفونة في قاع المحيط. في أبعد نقطة. تذكرت ليلي. ليلي لا شك أنها الآن سعيدة. سعيدة لأنها ليست معي. لا يمكن لشخص أن يكون سعيدًا بصحبتي. شعرت كما لو أني فارقت الحياة لتوي. أني مدفونة الآن بينما تركني الآخرون ورحلوا ليستكملوا حياتهم. الآن أنا منسية. وحيدة في عتمة قبر. حين مات أبي كنت أشاهد عرضًا مسرحيًا في معهد المسرح بدعوة من صديقة تركت معهد اللغات بعد عام واحد والتحقت بمعهد المسرح. كانت متعثرة في ملابس جرترود التي غطوا جسدها بها وأمامها كان يقف زميلها يلقي مونولوجه. الزميل الذي كان يؤدي دور هملت كان منفعلًا للغاية وهو ممسك بيديها وانفعل أكثر وهو يجذب صورة أبيه المعلقة في رقبتها. كان بغضب مبالغ فيه يغصبها على تذكر أبيه الذي ما إن مات حتى تزوجت بآخر. بغضب أكبر اتهم شرفها. "خبز الجنازة وُزّع باردًا في حفل الزفاف" قال بحرقة في وجهها فكادت تبكي حقيقة. كنت أتابع المشهد وأنا مشغولة أكثر بغضبي لعدم لحاق أنطون بي في الموعد المحدد حين رن جرس هاتفي. قمت مسرعة لأخرج متجاهلة نظرات الغضب والفضول على وجوه الجمهور الذي كان أكثره من طلاب المعهد. في الخارج انتبهت إلى أن الرقم المكتوب على الشاشة رقم عمي.

t.me/qurssan

- "أين أنت؟!" سأل.

لـم يعتـد عمي الاتصال بي ولا سـؤالي عـن مكاني. مـن نبرته في طرح السؤال عرفت أن أبي مات وأن عمي تولى لتوه مهامه.

طـوال الطريـق إلـى بلدتي لـم يغادرني خـوف الوصـول متأخرة. متأخرة عن دفن أبي. متأخرة عن زفاف أمي لعمي.

حيـن وصلـت كان نعـشٌ محمـول علـى أكتـاف الرجـال خارجًا مـن بيتنا. لم أسـر خلف النعش. دخلـت إلى البيت فيمـا كان الجميع خارجيـن منـه. تركـت أبي فـي بيتنا وكان يجـب أن يكـون هناك حين أعـود. لـم أتـرك أبي داخـل نعش خشـبي حتى أعـود لأجـده داخله. اعتبـرت أن النعـش الخارج مـن بيتنا لا يخصنا. وطالمـا أنه لا يخصنا فهو لا يخص أبي. كان البيت فارغًا. حتى النسوة ذهبن خلف النعش. فـي البيت لم يكن هنـاك غيري. أنا ورائحة عطـن لا أعرف مصدرها. في غرفة أبي كانت ملابسـه معلقة على مسـمار خلـف الباب. ورائحة عرقـه فيها. على منضدة الزينة كانت سـاعته وخاتمـه وزجاجة عطره. على السـرير بَشْـكِيره ومنامته. وبجوار السـرير الراديـو الصغير الذي كان يسـمع منه أغاني فيروز. حين عادوا وجدوني نائمة في سرير أبي. فـي الجانب الذي يخصه من السـرير. كنت نائمـة كطفلة حتى أنهم لم يريـدوا إيقاظي. في المسـاء ناموا ولما اسـتيقظوا لـم يجدوني. بحثوا عني في كل مكان فلم يجدوني. أشارت إحدى الجارات "فتشتوا عنها عنـد المقابر؟". عنـد رأس أبي وجدوني. كنت أتجمـد من البرد ومن

t.me/qurssan

الخـوف ومن الغضب. لم أصدق أن يُترك أبـي في حفرة وحده. كنت أريد إخباره أنه غادر البيت وترك ساعته وخاتمه ومحفظة نقوده. كنت أريد معاتبته لأنه نسـي معطفه الشـتوي ولأنه - بذلك - يعرض نفسـه للمـرض. كان الثلج قد بدأ فـي الهطول فبكيت. كيف يتركونه في مثل هذا البرد ويرحلون. فجأة سـمعت صرير باب غرفة مكتب فرنسـيس. انتبهت على دخول أولجا. ارتسم على وجهها فزع فجأة حين رأتني.

- "تركني فرنسيس لأكتب...".

- "كيف تتعرقين في مثل هذا البرد؟!" قاطعتني.

بحنان كبير بدأت في مسح عرقي بكم قميصها. كنت أبكي دون أن ألاحظ. وكان جسـدي ينتفض. قرأتْ على رأسـي بعض تمائمها بلغة عبرية فذكرتني بأمي حين كانت تقرأ لي القرآن ليقيني مخاوف الطريق وشر الحاسدين.

- "لا يمكنك إتمام عملك اليوم" قالت أولجا بحسم.

- "جئتِ مـن رحلـة طويلـة ويجـب أن تسـتريحي أولا" أضافت بحسم أكبر.

- "ما رأيك في دش سـاخن؟".. اقترحت. وأعقبت "هيا بنا.. بيتي على بعد جادتين من هنا".

لـم أنتبـه إلا وأنا فـي الطريق مع أولجـا. كانت قـد تحولت لامرأة أخـرى. امـرأة غيـر متعجلة. تتمشـى ببـطء لتشـاهد المعروضات في

t.me/qurssan

الفتارين. تشير إلى محل مصفف شعر لتخبرني أنني يمكنني التعامل معه. تنبهني "عليك انتظار سيمونتا حتى تفرغ.. هي الأفضل بين الجميع.. لا يهم كم سوف تنتظرينها طالما لن تسلمي شعرك لمن نعبث به". "بالمناسبة شعرك جميل.. ليس كشعري.. هل جربتِ فصه من قبل؟". عند المرور بمحل يعرض لحومه في ثلاجة أمام الباب أشارت "من هنا يمكنك أكل لحم حلال.. هذا محل لا يبيع لحم الخنزير أبدا". وعند باب كنيسة أكدت "من هنا يمكنك شراء بيذ غير مخلوط بالكحول.. بيني وبينك لا أطمئن كثيرا للإنجيليين لكن نبيذهم جيد". أولجا كانت تتكلم كصديقة فاستعدت شعوري بالبرد بعد أن كان جسدي يحترق في غرفة فرنسيس. وفي بيتها الذي كان قريبًا فعلًا من دار النشر أدخلتني حمامها وخلعت عني ملابسي ووضعتني أسفل الدش. لم أتعر أمام امرأة من قبل أبدًا حتى أمي وصديقاتي في بيت الطالبات لكني كنت مخدرة تمامًا وهي تنزع ملابسي فلم أمانعها. "سوف أضع ملابسك في الغسالة" قالت وهي خارجة. لم أعلّق. ظللت واقفة أسفل الماء الساخن حتى بدأت في الشعور بوجودي مرة أخرى. استفقت تمامًا من سُكر لا أعرف سببه. حين خرجت مرتدية برنس تركته لي أولجا جوار البانيو وجدتها تصلي. فوق المدفأة كان ما يشبه الضريح الصغير وزوج من الشمعدانات. كانت راكعة تتضرع بالدعاء. بعد أن فرغت سألتني إن كنت أريد أن أصلي.

- "أنا مسلمة" قلت.

t.me/qurssan

- "ألا يُصلي المسلمون؟!" قالت بابتسامة.

- "أقصد أننا نصلي بطريقة أخرى" أوضحت، رغم أني نادرًا ما أصلي.

- "لا يهم.. طالما أننا نصلي.. تعالي اجلسي".

جلست على كرسي منضدة أشارت إليها أولجا. صبت لنا كأسي نبيذ.

- "ماذا جرى لك؟.. سألت. "أقصد في المكتب" أوضحت.

- "لا أعرف".

- "جسدك بدأ في التعرق مرة أخرى.. انتظري.. لديّ دواء مناسب لك" قالت وهي ذاهبة باتجاه غرفة داخلية لكنها توقفت في منتصف الطريق. "اسمعي.. هل أكلت شيئا؟!" سألت. تذكرتُ أني لم آكل منذ يومين تقريبًا وحتى حين وصلت مبكرًا أسفل دار النشر قررت تأجيل الطعام لحين انتهاء المقابلة. كنت متوترة للغاية وخفت من آلام القولون. جلست في مقهى قرب دار النشر وشربت عدة أكواب من القهوة. أخبرتها. "هذا هو دواؤك إذن" قالت ثم ذهبت للثلاجة وفتحتها ووقفت تختبر محتوياتها. تذكرتُ فرنسيس.

- "فرنسيس سوف يعود قبل أن أنهي اختباري" قلت بفزع.

ضحكت.

t.me/qurssan

- "هل أخبرك أنه اختبار؟! هذا الوسخ" قالت بغضب.

- "ليس هناك اختبار.. ليس لدينا غيرك إن أردت الدقة.. كان عليه توظيفك كما طلبتُ منه.. لكنه وجد فريسة لالتهامها فالتهمها.. الرجال هم الرجال.. إن لم يجدوا معركة اختلقوا معركة".

- "اسمعي.. الله يلعن فرنسيس ويلعن أهله.. هذا الوسخ.. لن تعودي للمكتب اليوم.. ولن أعود أنا أيضًا.. دعيه يضاجع نفسه".

أغلقتْ الثلاجة ونظرت لي وهي تفكر. لحظات من الصمت ثم سألتني "هل جربتِ المحار الفرنسي؟! وقبل أن أجيب ذهبتْ لارتداء ملابسها.

حين عادت وجدتني كما تركتني فنظرت لي بعتاب. أخبرتها أني نسيت حقيبة ملابسي في الدار. ضحكت.

- "لا عليك.. لديّ ما يناسبك.. ملابسي لن تناسبك بالطبع لكن لا تقلقي.. ملابس عشيقتي السابقة يمكن أن تناسبك".

نظرت لي كما لو كانت تقيسني.

- "مم.. صدرك أكثر امتلاء قليلًا لكن لا بأس".

ذهبت إلى غرفتها وأنا غير مصدقة ما سمعته لتوي. كانت المرة الأولى التي ألتقي امرأة مثلها. في بيت الطالبات كنا نسمع عن حكايات كثيرة لكن لأنها كانت حكايات دون فضيحة كبيرة أكثرنا لم يصدقها. وفي بازل سكنت امرأتان شقة في نفس البناية لكن لم أتعرف على

t.me/qurssan

واحدة منهما طوال فترة جيرتنا. كنت أرتدي البرنس لكني شعرت بأني عارية أكثر مما يلزم. شعرت بالخوف لكني قررت أن أكون شجاعة. كيف؟ لا أعرف لكني لن أعدم طريقة لأبدو أكثر شجاعة مما أنا عليه. عادت أولجا حاملة ملابس نسائية. رغبت في أن أهاجمها أولًا.

- "أين ذهبت صديقتك؟" سألت، ربما للتأكد مما سمعته.

- "تقصدين عشيقتي السابقة؟!.. انفصلنا".. قالت ببساطة ثم أردفت "لكننا ما زلنا أصدقاء".

- "ارتدي ملابسك بسرعة.. أنا ميتة من الجوع" قالت وهي واقفة ما تزال.

ظللت واقفة في مكاني متصلبة. نظرت باندهاش لي ثم انفجرت في الضحك. ظلت تضحك عدة دقائق وكلما بدت أنها سوف تتوقف تبدأ موجة جديدة من الضحك. أخيرًا قالت:

- "لا تقلقي.. لستِ من النوع الذي يعجبني.. لا أقصد أنك لستِ جميلة.. بالعكس لك وجه جميل لكنه وجه غاضب.. وبالمناسبة حتى لو كنتِ من النوع الذي يعجبني فهذا ليس سببا لأن ألتهمك". ضحكت مرة أخرى وهي تحرك كفيها وفكيها كما لو كانت وحشًا بطريقة مضحكة.

- "الغريب أن ارتعابك هذا كان سيصير أقل حدة لو أنك بصحبة رجل".

t.me/qurssan

- "سأنتظرك في الداخل.. حين تنتهين نادي عليّ". قالت وهي داخلة غرفة نومها.

ارتديت ملابس عشيقتها وكانت تلائمني فعلًا، وكانت ضيقة فعلًا في منطقة الصدر كما قدرت أولجا. كانت أولجا دقيقة جدًا في تقدير مقاسات الجسد. نسيت أن أناديها كما طلبت. بعد دقائق جاءت وكنت أتفرج على صورها مع صديقتها المعلقة في كل مكان. بألم أشارت إلى صديقتها وأخبرتني اسمها "ماري". قلت إن اسمها جميل كما لو كنت أتحدث عن ابنتها. كان لديّ فضول لمعرفة لماذا افترقتا لكني أجلت السؤال. الحقيقة كان لديّ فضول أكبر لمعرفة كيف تحابتا لكني فضلت السكوت.

- "هاتفك رن أكثر من مرة".. قلتُ. التقطتْ الهاتف من فوق المنضدة ونظرت.

- "إنه فرنسيس.. لا أصدق أنه اتصل خمس مرات.. مؤكد أنه يبحث عنا الآن.. لن أتصل به ولن أرد.. يجب أن يلقى عقابًا مناسبًا.. هيا بنا".

على بعد شارعين تقريبًا وجدنا شارعًا كبيرًا كانت المطاعم والمقاهي مصطفة على جانبيه. الساعة تجاوزت الخامسة تقريبًا. أغلب الناس عادوا لبيوتهم. في طريقنا كان أكثر مشهد متكرر هو مشهد نساء عجائز يجرُرن شجر الكريسماس. أولجا قامت بتحية كل امرأة منهن بود. سألتها إن كانت تعرفهن فسخرت من سؤالي.

t.me/qurssan

"لا يحتاج الشخص لأسباب للابتسام في وجه الآخرين" قالت. من بين المطاعم اختارت أولجا مطعما قالت إنه الأفضل. خيرتني بين الجلوس في الداخل أو في الخارج فاخترت الجلوس خارجًا. رحبتْ باختياري. جلسنا فيما يشبه خيمة مستطيلة. منضدة طويلة بطول الخيمة وعلى الجميع الجلوس متجاورين على بنشين بطول المنضدة من الجانبين. كان المكان أشبه بموائد السجون أو موائد الرحمن التي تقام في رمضان. بحثنا عن مكان خال. قفزت أولجا بخفة لتجلس بين رجلين بدينين فيما جلست مواجهة لها بين رجل وامرأة. توترتُ قليلًا حين فكرت في احتمال أن أكون قد اندسست بين رجل وامرأته لكن الناس على يميننا ويسارنا كانوا مشغولين بالتهام القليل من الطعام والكثير من الكلام. كانوا جادين أكثر مما ينبغي. يتناقشون كأنما سوف يتوقف مصير العالم على ما يتفقون أو يختلفون عليه. الرجل الجالس يساري رمقني بنظرة أثناء كلامه كما لو أنه يطلب أن أدعمه في رأيه. لم أكن منتبهة لما يقولون وحتى لو كنت منتبهة ما كنت لأشاركهم مناقشتهم الجادة. كنت ميتة من الجوع وكنت أحاول تجاهل آلام القولون التي داهمتني بقوة منذ الصباح. كنت متوترة. وأولجا لاحظت توتري. سألتني لماذا أنظر لهاتفي كثيرًا. أخبرتها أني أنتظر اتصالًا من صديق للاطمئنان على ابنتي. سعدت جدًا لمعرفة أن لدي طفلة. قالت إنها تحب الأطفال. فرجتها على صورة ليلي فقالت إنها جميلة جدًا وتشبهني كثيرًا. قالت إنها تحسدني كثيرًا لأن لي طفلة جميلة كليلي. ابتسمتُ.

t.me/qurssan

- "لكنها ليست غاضبة مثلك" عقّبت.

سألتني لماذا لم أحضرها معي فأخبرتها بكل شيء دفعة واحدة كما لو كنت أريد التخلص من حكايتي مع ميشيل بقصها على غريب. بدا عليها الأسف. كان الطعام قد وُضع أمامنا. قدران ممتلئان بالمحار. أولجا طلبت نبيذًا أحمر. كأنها تقدم اعتذارا قالت "أشربه بين الحين والآخر لدواعي الهضم". لم أفهم أولجا جيدًا. أولجا متدينة لكنها مثلية. لا تأكل لحم الخنزير ولا النبيذ المخمر لكنها تشربه أحيانا بحجة طبية. تقيم علاقة مع امرأة لكنها تحب الأطفال. وفوق كل ذلك لا تتصالح مع الإنجيليين. وبينما كانت أولجا تمتص باستمتاع شديد الكائن اللزج داخل المحارة كنت أفكر أن معرفتي بالعالم بدأت الآن فقط.

انتهينا من طعامنا وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة. نظرت أولجا للساعة على الموبايل الذي لم يكف عن الرن طوال الأكل. كانت أولجا مندهشة لأن فرنسيس لم يكف عن الاتصال بها. قالت بطفولية إن علينا الآن أن نتوقف عن لعبة الاختفاء لأن فرنسيس فقد كل حيلة لاكتشاف مكاننا. توجهنا إلى المكتب الذي لم يكن بعيدًا أيضًا. يبدو أني كنت أحتاج للطعام فعلًا فقد تحسنت حالتي كثيرًا بعد الأكل. المشي أيضًا في الطريق للمكتب جعلني أكثر هدوءًا. أولجا كانت لطيفة للغاية وودودة وكانت مخاوفي تجاهها قد زالت وحل محلها فضول لمعرفتها أكثر. في طريقنا للمكتب كنا نبدو كصديقتين.

t.me/qurssan

كنـت متحيرة لأن ميشـيل لم يتصـل بي لكني فكرت أنـه غاضب وأنه سـوف يتصل فور أن يزول غضبه مني. ميشـيل لم يكن يسـتمر غضبه مني ولا من أي شـيء أكثر من نصف يوم فقدرت أنه سـوف يتصل بي في غضون سـاعتين علـى الأكثر. دخلنا المكتـب مبتهجتين وكنت قد صرت مسـتعدة لاختبارات فرنسـيس حين وجدنـاه واقفًا في منتصف المكتب غاضبًا وبالقرب منه كان شـاب يحاول إخفاء ابتسـامته. حين شاهدنا داخلتين أسرع نحونا بغضب وأمسك ذراع أولجا بعنف.

- "أين كنتما؟!" قال بانفعال.

ثم نظر لي بأسف وقال:

- "أنا آسف.. لكني اضطررت لإبلاغ البوليس عنك".

t.me/qurssan

6

- "كنت أظنك في نيم".

انتبهتُ. كنت نصف نائم. تركت ليلي في غرفة الأوتيل بعد أن اشترينا جهازًا يمكنها استدعائي به في أية لحظة. رغبت في أن أسهر وأن أشرب دون أن أخشى وجود ليلي بمفردها. أنمتها واتفقنا على تمديد خطط تواطئنا. سأغيب ساعة يا ليلي. ساعة على الأكثر. لن أغادر الأوتيل. وافقَتْ. قالت إنها لن تخاف. شاطرة يا ليلي. رفعتُ عيني ونظرتُ فاكتشفت أنه ألبير. هو نفسه بجسده الضخم وشاربه الرفيع. كنت أراه دائمًا كممثل في مشهد أكثر منه كإنسان. وكنت أتخيله في نهاية اليوم يخلع ملابس الدور ولوازمه ليصبح شخصًا حقيقيًا لو التقيته في الشارع لن أعرف أنه ألبير أبدًا.

- "لم أذهب لنيم منذ عام تقريبًا.. لكني أعتزم الذهاب هذا الأسبوع" قلت وأنا أتحامل للوقوف لمصافحته.

- "حين اختفيت فجأة قيل إنك قررت العودة لنيم والاستقرار فيها.. سمعنا أساطير عن اعتزالك.. لن تصدق.. قيل إنك أسلمت.. البعض قال إنك غارق في الحب.. أما أخطر الشائعات وأكثرها شرًا

t.me/qurssan

ويبدو أن مصدرها أكثر الناس خسة فكانت عن تحولك للرهبنة" قال ألبير. وكان يضحك.

- "حاولت الاتصال بك مرات عديدة وفشلت" قال ألبير بعتاب.

- "ماذا تفعل في بيرن؟!" سألتُ لأغير الموضوع.

أشار إلى النادل. طلب زجاجة بليز دي بو. كانت زجاجتي نصف ممتلئة فأعطاها للنادل وطلب لي زجاجة أخرى. كانت هذه طريقة ألبير. لم يكن يحب أن يرى كأسًا خالية سواء كأسه أو كأس أي شخص آخر. "النبيذ وليس الماء.. لو نفد لانتهى العالم بعد أيام" تلك كانت عبارته المعروف بها. استعارها من رواية ما ونسبها لنفسه على الأغلب. مثل كل أفكاره الأخرى. الأفكار التي كانت تنتمي للشخصية أكثر مما تنتمي له.

- "سألتك ماذا تفعل في بيرن" أعدتُ السؤال لأنه كان مشغولًا بالتقاط الزيتون الأسود من طبق السلاطة والتهامه واحدة واحدة.

- "لن تصدق.. صديقتي.. لي صديقة جديدة لا تعرفها.. راهنتني على أن ساعتي متأخرة عن الزمن ثانيتين.. قلت لها إن ثمنها ثلاثة آلاف يورو فقالت هذا لا شيء.. قطعنا المسافة من مونت كارلو لبيرن لتثبت لي خطئي ولأثبت لها أنها عاهرة.. كنا في مونت كارلو أوقّع عقدًا جديدًا بالمناسبة.. هذا أمر آخر سوف أخبرك به فيما بعد.. المهم.. ست ساعات كاملة أهدرناها للتأكد من أننا لم نهدر ثانيتين".

ضحك بعدها بشدة. كنت في مزاج متعكر فلم أضحك. وجدت حكايته غبية أكثر من اللازم.

t.me/qurssan

- "أين صديقتك الآن؟!" سألتُ.

- "لـن تصـدق أيضًا.. لقـد هجرتها.. مـا أن وصلنا لسـاعة البرج وأكـدت لها أنها هـي المخطئـة وأن الثانيتين اللتين ادعت أن سـاعتي أضاعتهمـا بخيـر حتى ضجـرت منها.. لـن تصدق.. حاولـتُ إقناعي بأن سـاعة البرج نفسـها مخطئـة.. وجدتُها امرأة غبية.. ومتسـلطة إلى درجـة مرعبـة.. قلت لها ما الذي يهم إن عشـنا ثانيتيـن لعينتين أكثر أو ثانيتين لعينتين أقل طالما أننا سـوف نموت فـي النهاية.. نحن كائنات فانيـة يـا ميشـيل.. لن تصـدق.. تركتها أمام السـاعة مشـغولة بسـؤال أحد المارة ورحلتُ.. جلسـتُ في مطعم عظيم اسـمه جفلر أو شـيء مثل هذا.. قدم لي راكليتي شـهي جدا.. بالمناسـبة.. لا شـيء يضاهي الجبن الإيطالي غير الجبن السويسـري.. لـو أن لديهم فقط نبيذًا جيدًا لأصبحوا ملائكة كاملين.. اسـمعني جيدا.. نحن كائنات فانية.. قلت لها إن البشـر شـياطين وملائكـة وفرنسـيون.. لم تصدقنـي.. العاهرة لا تصدقني أبدًا.. لا أعرف كيف تحملتها طوال الشهور الماضية.. لن تصـدق.. تعرفت عليها في بار لاشيسيتا في ميـلان.. كانت طازجة.. شـيطان كامل في صورة امرأة.. تعرف كل شـيء عـن الجنس والقليل عن الفن لكنها لا تعرف شيئًا عن الوقت أو عن الساعات السويسرية.. في ميلان كانت شـيطانة طازجة كاملة.. لكن ما إن سـافرنا إلى باريس حتى بدأت في التعفن كسـمكة خارج مائها.. قلت لك البشـر شياطين وملائكة وفرنسـيون.. الإيطاليون شـياطين يا ميشـيل.. كلما حصلت على شـمس أكثر كلما صرت شـيطانًا.. اسـمعني جيدًا.. هل سمعت

t.me/qurssan

من قبل عن شيطان سويسري أو سويدي؟ مستحيل.. اسمعني جيدا يا ميشيل.. أنت فرنسي.. أنت فرنسي حقيقي.. مثلي تماما.. إن أردنا صديقة يجب أن تكون فرنسية.. فرنسية حقيقية.. سوف يصير جحيما بالطبع.. لكن جحيما فرنسيا أفضل يا ميشيل من نسل الشياطين والملائكة.. ها.. وأنت.. ماذا تفعل هنا في بيرن؟!".

***

ماذا أفعل في بيرن؟ وهل أعرف يا ألبير. وماذا كنت أفعل في بازل يا ألبير؟ ماذا كنت أفعل في باريس أو حتى في نيم؟ ما نفعله نفعله في أي مكان. نولد ونعيش ونموت. نولد جوار قبورنا. ألم يُكتب في الإنجيل أننا نولد جوار قبورنا؟! في ميدان الفارس كان ثمة تمثال لفارس عارٍ يحمل سيفًا متدليًا من حزامه وهو الشيء الوحيد الذي كان يرتديه. كان عضوه مدلى ومرتخيًا فوق كيس صفنه كعصفور في عشه. الفارس كان في حاجة لعضوه قدر حاجته لسيفه. ما الذي يفعله الرجل ما بين مولده وموته غير الحرب. يغزو النساء بعضوه والرجال بسيفه. يقتل الرجال بعضهم من أجل النساء.. حياتنا فيلم أمريكي من أفلام الغرب.. ما المهم في الحرب يا ألبير.. ما المهم في الحرب يا عالية.. ما المهم في الحرب يا ليلي.. ما المهم في الحرب يا أمي. من الذي قال إن نصف مشاكل العالم كانت تُحل لو أن الإنسان لم يخرج من بيته. لماذا نغادر بيوتنا يا ألبير.. لماذا نغادر غرفنا.. لماذا نغادر رحم أمهاتنا؟! أنا الآن أجلس في غرفة أوتيل بمدينة أوروبية أتأمل طفلة عربية تغط في نومها وأفكر في أمها لمجرد أن شهوة

t.me/qurssan

اصابت رجلًا فضاجع أمي. لمجرد أن أمي كانت تريد أن تنجب منه حتى لا يرحل. لكنه رحل يا ألبير. حمل سيفه وعضوه ورحل ليغزو امرأة أخرى وبلدة أخرى. كلنا راحلون في النهاية يا ألبير. ماذا أفعل في بيرن؟ ماذا تفعل في بيرن؟ ماذا تفعل عالية في باريس؟ وأمي في نيم؟ وباراك أوباما في البيت الأبيض؟

رن جرس الهاتف. أفقت فوجدتني أنام على كرسي بجوار السرير الذي تنام فيه ليلي. وكنت أهلوس. بصوت حاولت أن يبدو طبيعيًا قلت صباح الخير. اتصلت عالية أخيرًا. صوتها كان غريبًا. يبدو أنها مرت بليلة متعبة. سألتني عن ليلي فأخبرتها أنها نائمة ما تزال. سألتها عن الساعة فقالت إنها الخامسة صباحًا. اندهشت.

- "عالية.. هل أنت بخير؟!" سألت.

- "لم أكن بخير في أي يوم يا ميشيل.. لم أكن بخير أبدًا" قالت بصوت يختنق.

- "ماذا بك؟" سألت بإلحاح.

- "لا شيء.. الوجود فقط هو ما يرهقني" وأضافت.. "حين تصحو ليلي أخبرها أني أحبها.. لا داعي لأن تحادثني.. فقط أبلغها كم أحبها".

أغلقَت الخط.

***

t.me/qurssan

- "ميشيل.. لماذا يتركون الدببة خلف السياج؟!" سألت ليلي.

أخذتها في رحلة صباحية في المدينة. في الصباح ظهرت شمس في حدث نادر في مثل هذا الوقت. أيقظتها وأخبرتها أن تسرع قبل أن تعاود الشمس اختباءها. ذهبنا للجسر. لم نكن الوحيدين الذين فكروا في فعل ذلك. كان الجسر مزدحمًا كما لو كنا في نهاية الأسبوع. ينتهي البشر إلى أن يكونوا متشابهين بدرجة بائسة. لو أمكن لكائنات أرقى أن تراقبنا لخرجت بانطباع وحيد. غالبًا الانطباع نفسه الذي نكتسبه جراء متابعتنا لسرب من النمل في حديقة المنزل. وفي الغالب ننتظر جميعًا نهاية واحدة. ننتظر موعد رش المبيد في الحديقة. سرنا بمحاذاة الجسر حتى وجدنا بنشًا خاليًا فجلسنا. بإزاء جلستنا كان ثمة حفرة في جدار الجسر. أشرت نحوها.

- "سيظهر دب عن قريب" قلت.

- "هل تسكن الدببة هذا البيت؟" سألت ليلي.

- "ليس بيتًا يا لِي.. إنها مجرد حفرة" أوضحت.

علقت بصرها بالحفرة في انتظار ظهور الدب. وأنا علقت عيني بعينيها. كانت تنظر بملل من يظن أنه يتعرض لخدعة، لكن الدب ظهر قبل أن تيأس. خرج وتمطع في الشمس التي ما زالت مبتسمة في سماء بيرن. ليلي تفاجأت وظلت تنظر لي وللدب كما لو أنها تتأكد أن ما تراه حقيقة. كانت سعيدة ولهذا كان يمكنني القول إني كنت سعيدًا أنا أيضًا. لكنها انتبهت لوجود السياج. كان سياج بطول الجسر يحول بين الدببة وبين جمهورها.

t.me/qurssan

- "ميشيل.. لماذا يتركون الدببة خلف السياج؟!" سألت.

- "حتى لا تلتهمنا الدببة يا لِي" فسّرت.

- "وما الذي يخيفنا من الدببة؟!" سألتُ بتعجب.

بالنسبة لطفلة كانت الدببة كائنات ودودة، لكن بالنسبة للدببة كانت ليلي فريسة شهية. شعرت فجأة بالخوف على ليلي حتى أني طلبت منها المغادرة. شعرت كما لو أن الدببة سوف تهاجمنا فجأة. كما في فيلم رعب سوف تخرج الدببة كلها في وقت واحد من ثغرات في السياج وتهاجمنا كلنا. في الطريق مررنا بأكثر من دب خارج حفرته. ليلي صارت حزينة بسبب الطريقة المجحفة التي عاملنا بها كائناتها اللطيفة. اضطررت للتفسير. أحسست أني موكل للدفاع عن بني جنسي فتحضرت للمرافعة.

- "الدببة ليست على النحو الذي يظهرون عليه يا لِي" قلت بأداء مسرحي كان يليق بألبير أكثر.

- "لديّ دببة في البيت.. ينامون في سريري.. أنت بنفسك اشتريت لي واحدًا يا ميشيل" قالت ببراءة فكسبت نقطة.

- "تلك دببة مزيفة يا لِي.. أما هذه فدببة حقيقية.. الدببة الحقيقية يمكنها افتراسنا فقط إن حصلوا على فرصة" أكدتُ. كسبت نقطتين.

- "هل لي وجود مزيف؟!.. هل لك وجود مزيف يا ميشيل؟!" سألتُ بفضول. تراجعتُ خطوة لأفكر.

t.me/qurssan

- "لا.. نحن كائنات حقيقية" أجبت وتمنيت أن ينتهي هذا الحديث.

- "ومع هذا لم يفترس أحدنا الآخر يا ميشيل" قالت ليلي فشعرت أن عرشي صار مهددًا تمامًا. قبل أن أفكر في إنقاذه أجهزتْ عليه.

- "نحن إذا كائنات مزيفة يا ميشيل".

***

- "راهنت نفسي على أننا سوف نلتقي مجددًا.. هذه المرة لن أتردد في اختطافك".

عرفتها من صوتها. كنت وليلي جالسين في مطعم بالشارع. لم نكن قد تناولنا فطورنا في الأوتيل فلما انتهت معركة الدببة ذهبنا للإفطار لأننا بعد المعركة نكون جائعين. جلسنا في مطعم بمواجهة كاتدرائية المونستر. لم ننته من فطورنا حتى سمعت صوت الأمريكية قادمًا من خلفي. كان صوتها مازحًا وله نبرة انتصار ما.

- "أم ليونيد" قالت ليلي مشيرة إلى الأمريكية بفرح.

لم أكن أعرف أن ليلي تمكنت من التعرف إلى ليونيد بالأمس. التفتُ للخلف فوجدتها قادمة ومعها الطفل نفسه الذي نظر لنا بابتهاج شديد. كان يرغب في صحبة بالتأكيد أفضل من جليسته. تمكنت من رؤيتها بصورة أفضل هذه المرة. كان لديها لون نبيذي صافٍ. وترتدي نظارة طبية يبدو أنها ترتديها لاستكمال مظهرها الأنيق. القلنسوة القرمزية فوق رأسها كان لها نفس لون إطار النظارة. وكان لها ابتسامة

t.me/qurssan

مغرية. ابتسامة تغري بالابتسام أكثر مما تدعو للتقبيل. كانت طويلة بالنسبة لامرأة لكن جسدها كان مكتملًا لا زيادة فيه ولا نقصان. لو أني ما زلت أعمل في الستديوهات لرشحتها كموديل تصوير. ليونيد ذهب مباشرة للجلوس مع ليلي. كان ولدًا مرشحًا لأن يكون صبيًا بدينًا، وكان مستقبله مضمونًا كموظف في بنك من البنوك التي تخفي حسابات العملاء. شعر ذهبي طويل. وأسنان بيضاء محاطة بسلك التقويم. وعلى خدوده نمش. وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة أبله. كان طفلًا تقليديًا للغاية وكانت ليلي بالنسبة له فاكهة طازجة. اقترحت الأمريكية أن نذهب معا لحديقة قريبة فتحمست ليلي بشدة. عرفت الأمريكية كيف تصيب هدفها لأنها قدمت اقتراحها لليلي مباشرة متجاهلة وجودي. كانت تعرف أني لن أعارض موافقة ليلي.

- "من أين ترغب أن نستكمل حديثنا؟!" سألت الأمريكية.

ذهبنا إلى الحديقة بالفعل. جلسنا متجاورين أمام منطقة الألعاب. ليلي كانت سعيدة. وأخيرًا وجدتْ رفيقًا مناسبًا. كان يجب أن تلتحق ليلي بالمدرسة هذا العام لكن بسبب خطأ في التسجيل تأجل التحاقها للعام المقبل. عالية استحسنت هذا التأخير. "سنة إضافية أخرى للعيش كطفلة" قالت عالية. ابتسمتُ. في شبابنا كنا نردد العبارة الساخرة لبرنارد شو: في سن السادسة اضطررت للتوقف عن التعلم.. فقد ذهبت للمدرسة! أخي برنارد لم يرغب في استكمال دراسته. قال إن الجامعات مؤسسات رأسمالية وإن مصاريف الجامعة تكفي للبدء في مشروع تجاري. بعد رحيل أبي كنت مسئولًا عنه. لم أجد

t.me/qurssan

مبررًا لمعارضته. كان موقفه واضحًا كنصل وثابتًا كشجرة. أمي أيضًا لم تمانع طالما أنه لن يغادر نيم. بعد أربع سنوات وفي الوقت الذي كان من المفترض أن نحضر حفل تخرجه حضرنا كلنا حفل افتتاح مزرعته. كنا واقفين مستندين على السياج وفي يد كل منا زجاجة بيرة حين قدمني لمدير مزرعته. قال إنه لن يكون مضطرًا للعمل من الآن. تحول لرأسمالي آخر.

- "لا أحب أن نستكمل حديثًا قديمًا.. ما رأيك في البدء في حديث جديد؟!.. يمكننا مثلًا...".

- "لم تسألني عن اسمي حتى الآن" قالت مقاطعة.

- "هذه بداية حسنة.. لم نتعرف بشكل صحيح" قلت.

قمت وابتعدت عن البنش خطوات ثم تقدمت مرة أخرى بطريقة استعراضية.

- "صباح الخير يا سيدتي.. دعيني أقدم لك نفسي.. أنا ميشيل.. ميشيل جاري".

قامت ووقفت بطريقة رسمية. أحكمت رباط البالطو. مدت يدها.

- "صباح الخير سيدي.. دعني أقدم لك نفسي أنا أيضًا.. أنا نعمة.. نعمة بوناصر".

ضحكنا. لم أتمكن من نطق اسمها على نحوه الصحيح فضحكتْ وضحكتُ مرة أخرى. قررت في النهاية بعد عدة محاولات أن أطلق عليها اسم نيمو.

t.me/qurssan

- "هذه أسخف طريقة يمكن لاثنين أن يقدما بها أنفسهما" قلتُ بخجل.

- "هل تعرف من الذي اخترع الأسماء؟!" سألتْ.

- "أظن أنه الله" أجبت.

- "لا.. الله علم آدم أسماء الموجودات.. هذا حجر.. هذه شجرة.. هذه المرأة التي ستضاجعها.. أنا أسأل عن اختراع أسماء البشر.. أن يكون لكل منا اسم".

- "من أسمى آدم بهذا الاسم؟!" سألتُ مجادلًا.

- "أولاده.. أو ربما زوجته.. لكن لا أظن أنه هو نفسه طلب اسما لنفسه.. كان موجودًا بنفسه.. بجسده.. حين كان يدخل الكهف على زوجته نهاية اليوم لم يكن مضطرًا للحديث إلى نفسه كاسم.. أعتقد أن الأسماء اخترعت لتنوب عنا في غيابنا.. في المسلسلات الرديئة تنادي الشخصيات بعضها بأسمائها طوال الوقت بلا داعٍ.. أنت مثلًا اسمك ميشيل.. ما حاجتي لأن أنطق اسمك نهاية كل عبارة إذا كنت موجودا أمامي؟!".

- "لكنك سوف تحتاجين استخدام اسمي حين أغيب؟!" سألتُ إذا كان هذا ما ترغب في قوله.

- "بالضبط.. بعد فترة من الآن.. بعد أن نكون قد صرنا ذكرى لدى بعضنا البعض.. لن يحتاج كل منا لتذكر الآخر أن يتذكره باسمه..

t.me/qurssan

كذكرى عابرة لن يكون للاسم معنى.. لكني قد أحتاج الاسم فقط عندما أحكي لشخص آخر أني التقيت بك".

- "حتى هذا قد لا تحتاجينه.. يمكنك إخبار هذا الشخص بأنك التقيت بالرجل عند العجلة الدوارة.. أو بالرجل في البارك.. أو بالرجل الذي يصاحب ابنة صديقته.. أو ربما الرجل الذي يشعر بالضجر.. أنا الرجل الضَجِر".

ضحكتُ.

- "حتى هذا يا ميشو يُعدّ اسما.. الرجل الضجر!.. هذا مثل الشمس المشرقة.. قبل اختراع الأسماء المجردة كان يشار للأشخاص بأسماء من هذا النوع.. الرجل المبتسم دائمًا.. المرأة ذات المؤخرة الضخمة...".

- "في هذه الحالة لن تعد الإشارة للمرأة بمؤخرتها انعدام لياقة" قلت مازحًا.

- "ما هي اللياقة؟.. ما هو انعدام اللياقة؟.. أليست أسماء مخترعة هي الأخرى؟.. قبل قرون من الآن كان تعارفنا في مكان عام انعدام لياقة.. كان يمكن أن يعتبره الناس خروجًا عن الآداب العامة.. قبل قرون من الآن كانت دماء قبيلتين يمكن أن تسفك لو شوهدنا جالسين هنا".

ابتسمتُ. شعرت ببهجة حقيقية. ليلي وليونيد أيضًا كانا مبتهجين.

t.me/qurssan

- "قبل قرون!.. لماذا أوغلنا في الزمن بهذه الطريقة؟!.. أتعرف هناك بلاد في هذه اللحظة التي نتبادل فيها الحديث والتي يستعد كل منا لدعوة الآخر إلى سريره يمكن لدماء قبيلتين أن تُسفك من أجل شرف ما" قالت بأسى.

- "نحن نعيش في أزمنة مختلفة" قلت.

- "رغم أننا نعيش على نفس الأرض" أكملت.

- "كنت على وشك سؤالك.. لماذا تنشغلون بهذه الطريقة بالماضي؟!.. فيما أشعر أنا مثلًا بأني أعيش في حاضر مستمر؟!" سألتُ جادًا.

- "نحن من يا ميشو؟!.. نحن النساء؟!.. أم نحن العرب؟!.. أعرف أن صديقتك عربية".

- "أنتن كنساء وأنتن كنساء عربيات" أوضحتُ.

- "بالنسبة لي أنا أود أن أعيش في المستقبل.. أود أن أقفز لآخر لحظات حياتي لأعرف متى أنتهي وفي أي بلد تُختتم فيها رحلة هروبي.. ثم أعود بالزمن مرة أخرى لأعيش حياتي معكوسة.. أن أنتهي كلحظة شهوة".

كانت ليلي في هذه اللحظة تصعد لعبة ما ويبدو أن ليونيد كان خائفًا. ليلي ظلت تنادي عليه لتشجيعه عدة مرات ولما لم يتشجع تركته وأكملت الصعود.

t.me/qurssan

- "أين أمها؟" لاحظت انشغالي فسألتُ.

- "في باريس".

- "ولماذا لستما معًا؟".

***

كنت أعرف أن القصة التي حكاها ألبير لم تحدث. على الأقل لم تحدث كما حكاها. ألبير شخص استعراضي. لا يكتفي بجسده الضخم لكي يملأ المساحات لكنه يرغب في عدم تفويت أي مساحة أخرى. لم أكن في مزاج حسن لمناقشة ألبير أو أي شخص لكن في الوقت نفسه حضور ألبير المفاجئ كان منحة من الطبيعة. لم يكن ألبير أفضل صحبة لمساء حزين لكنه ليس أسوأ صحبة كذلك. كان قد طلب زجاجتين إضافيتين لنا. أشار إلى أنه سوف يدفع الحساب فابتسمت. كان يفهم إذن أني موشك على أزمة مالية.

- "ما أخبار الستديو؟" سألت دون اهتمام.

- "لم يتغير شيء.. اسمعني جيدًا.. حينما نقول لم يتغير شيء لا نقصد أن كل شيء على ما يرام.. نقصد أننا غارقون في الرتابة".

- "لن أسألك إذن عن أخبار الحزب.. لم يتغير فيه شيء طوال عشرين عامًا" قلت.

- "الحزب!.. لقد تركت الحزب أنا أيضًا.. تعرف أني دخلت الحزب بسببك.. بسبب حماستك.. لكني.. اسمعني جيدًا.. لم

t.me/qurssan

بتغيـر رأيـي أبـدًا.. السياسـة ماتـت منـذ زمن يـا عزيـزي.. الأفكار الكبرى ماتت.. في شـبابنا تحمسـنا لميتران.. كان رجـلًا فتيًا.. كان شـجاعًا.. عارض ديجول وانقلب عليه.. الآن تحكُمنا الشـركات.. الرأسـماليون يوظفـون إعلاميين والإعلاميون يوظفون سياسـيين.. أولاند انظر إليه.. هذا الرجل تشـعر أنه كان موظفًا ببنك.. وهو الآن موظـف لدى بنك من البنوك.. بنك وضعه فـي قصر الإليزيه ليعمل لحسـابه.. اسـمعني جيدًا يا ميشـيل.. أتعـرف ما ينقـص أولاند؟.. أتعرف ما ينقص الرؤسـاء الذين سـوف يعقبـون أولاند؟.. ينقصهم فضيـة كبرى.. وهو ما يعني أن السياسـة هي التـي تنقصهم.. ميتران يا ميشـيل سُـجن في سـجن النازي.. تطوع فـي المقاومـة.. ميتران عـرف عن الاشـتراكية فـي المعتقلات يـا عزيزي وليـس من خلال المحاضـرات ولا من الكتب.. كان يعمل مـع المقاومة ويكتب عن أندريه جيد وفرنسوا مورياك في نفس الوقت".

تنهد ألبير. تبدل لمجرد أني قاطعت حكاياته الوهمية وأشـركته في حديث عن الواقع. بدا متعبًا. لم يكن تأثير الشراب. ألبير لم يكن يتأثر بكمية الشـرب أبدًا. كان لديه متاعبه إذن التي يخفيها خلف الشخصية التي يؤديها. كان مهرجًا حقيقيًا.

- "ما بك يا ألبير؟" سألت.

- "الله يلعنك.. كنت في مزاج جيد حتى قابلتك.. أحكي لك عن السمكة الطازجة التي هجرتها لتوي فتسألني عن السياسة.. بالمناسبة.. أخبرني عن صديقتك؟.. هل هي معك هنا؟".

t.me/qurssan

ليونيد شعر بالخجل لأنه لم يتمكن من صعود اللعبة مع ليلي. كان واقفًا ينظر لها بحقد. وكان بسبب الجاكت الأبيض المنفوخ الذي يرتديه أشبه بكرة ثلج. جاء وهو يتدحرج يخفي بكاء. تحجج بأنه جائع. نيمو أخبرته أن موعد طعامه لم يأت بعد وأنها ليست مخولة لتغيير النظام البديع والفاتن الذي وضعته له أمه للمحافظة على صحته. جاءت ليلي. أطلقت عليه وصفًا يبدو أنه لم يعجبه فضربها بعنف. كدت أفتك به لولا أن منعتني ليلي نفسها. ليلي بسماحة كبيرة أمسكته من يده وجرته مرة أخرى للعب. في طريقها أشارت لي أنها تدير أمورها بنجاح.

- "ألن تدعوني للعشاء الليلة؟!" سألت نيمو فجأة. ارتبكت.

- "في ظروف أخرى كنت سوف أرجوكِ لقبول دعوتي.. أنتِ جميلة أكثر مما أحتمل.. وصغيرة أكثر مما أحتمل أيضًا.. حين التقينا قدرت أني أكبرك بعشرين عامًا على الأقل.. بالنسبة لرجل في سني أنت فريسة ولست امرأة" قلت جاهدًا كي أتسبب في ضرر أقل.

- "قلت إن صديقتك في باريس؟!" سألت بنبرة ثابتة.

- "نعم".

- "إذن باريس هي المكان الذي ينبغي أن تكون فيه الآن يا ميشيل". قالت بابتسامة صديق يسدي صديقه نصيحة مخلصة.

***

t.me/qurssan

أغلقت الخط. صوت عالية أخافني. صوتها كان مختنقًا، وغاضبًا، لكنها هذه المرة ليست غاضبة مني. نظرت إلى ليلي. كانت تغط في النوم. نظرت إلى الساعة مجددًا.. كانت الساعة بالكاد جاوزت الخامسة. بالخارج كانت المدينة تغوص في الظلمة والضباب والبرد. من النافذة كانت ندف الثلج تتساقط. بعد دقائق سوف تغطي شجرة الكريسماس الضخمة التي نصبوها بالأمس في مدخل الأوتيل. أضاءت شاشة الهاتف برسالة. كانت نيمو التي أصرت على أخذ رقمي بالأمس. يبدو أنها مؤرقة. كتبت لي "إما أن تغادر إلى باريس اليوم وإما أن تسمح لي باختطافك". كانت الساعة تقترب من الخامسة والنصف. ندف الثلج تزداد حجمًا. وفي ظلام المدينة كانت تبدو كشهب. من النافذة كان المشهد يبدو كمدينة تتعرض للغزو من كائنات فضائية. شعرت أننا مهددون. ليلي في خطر. وعالية في خطر. وفرنسا في خطر. وكوكب الأرض في خطر. وكان يبدو أن عليّ وحدي اتخاذ قرار ما. رن في أذني سؤال ألبير كمطرقة "ولماذا لستما معًا؟!". لماذا يا ألبير.

t.me/qurssan

7

كان صـوت أولجا الغاضـب يصلني وأنا واقفة متخشـبة في صالة دار النشـر. كانت تصرخ في وجه فرنسـيس الذي يبـدو أنه لم يكن في اسـتطاعته مقاومة غضبها. كان هو المدير لكنها كانت هي الأقوى في تلـك اللحظة. ومـن مكاني لم يكن في اسـتطاعتي سـماع صوت غير صوت أولجا. اتهمتْه بأنه عنصري. سمعتها تصرخ فيه غاضبة "لمجرد أنهـا عربيـة هذا لا يجعل منهـا إرهابية". بعد برهة خَفَـت الصوت. لم يكـن صـوت أولجا ولا صوته مسـموعًا. ولولا أنني لم أسـمع صوت ارتطـام لحسـبت أنه ضرب رأسـها أو رماها من النافـذة ليجبرها على السكوت. لحظات الصمت جعلتني أنتبه للشاب الذي كان واقفًا جوار مكتب أولجا وينظر لي بابتسامة. تذكرت أنه الذي أدخلني لأولجا هذا الصباح. اقترب مني وهو يهز رأسه كما يفعل الهنود.

- "أنت هندي؟!" سألته.

هـز رأسـه عـدة مـرات وابتسـامته صـارت أكثـر مرحًا. مـال عليّ وهمس:

- "مصري.. لكن هنا.. أنا هندي" قال.

t.me/qurssan

مد كفه ليسلم عليّ وليخبرني باسمه. ورغم أن المسافة بيننا وبين غرفة فرنسيس كانت كبيرة ولا يمكن سماعنا فقد أصر على الهمس.

- "اسمي إيهاب.. لكني هنا اسمي باها.. لا يعرف سري هنا غيري أنا وأولجا.. الآن صرنا ثلاثة.. أعرف أنك لن تفشي سرنا.. أليس كذلك؟!".

- "ولماذا تفعل ذلك؟!".

- "كان أسهل في توظيفي أن أهز رأسي بهذه الطريقة.. لم أجد عملاً آخر وكانوا يرغبون في توظيف هندي لأن العامل الذي سبقني كان هنديًا.. أولجا وجدتني أكاد أموت جوعًا فسألتني إن كنت أستطيع هز رأسي فهززتها فصار لنا سر مشترك.. في كل الأحوال أنا أخطئ في الحديث بالفرنسية كما ترين.. ولن ينتبه أحد أبدًا.. فهنا إما أن تكوني فرنسية وإما ألا تكوني فرنسية وحينها سوف تهزين رأسك هكذا". هز رأسه مرة أخرى بخفة ظل فنزع مني ابتسامة.

قطع حديثنا فجأة سماع صوت أولجا الغاضب مرة أخرى. فجأة رأيناها خارجة من الغرفة مندفعة بجنون. صفقت الباب وهي تصرخ "يهودي قذر.. أنت يا فرنسيس يهودي قذر". وقفتُ حين جاءت ولم أكن أعرف ما ينبغي عليّ فعله للتخفيف من سورة غضبها. إيهاب.. أو باها ذهب لاستكمال عمله متصنعًا عدم الاهتمام. رأيتها تدور حول مكتبها كفريسة تلقت طعنات كثيرة وتقاوم سقوطها رغم أنها كانت على وشك الإجهاز على فرنسيس منذ لحظات. فجأة صرخت فيّ:

t.me/qurssan

- "سوف يعطيك الوظيفة.. لكن ذلك بعد أن تجتازي اختبار عاهرته العربية". لم أفهم.

- "إن كنتِ تظنين أن هذا اليهودي القذر هو أصعب الوحوش التي سوف تواجهينها في باريس فأنت مخطئة.. سوف يسلمك لعاهرته لتفتك بك".

لم أفهم أيضًا ما تقصده. لكن باها عاد وعلى وجهه شعور ممرض بالشفقة ففهمت أني في خطر حقيقي.

- "إن لم تكوني جاهزة فاحملي حقيبتك اللعينة تلك وعودي من حيث جئت".

في تلك اللحظة تمنيت فعلاً أن أعود. فقط لم أكن أعرف إلى أي مكان يجب أن أعود.

- "ألو؟ إنتِ هون؟ عم تسمعيني؟" صرخت أمي.

لم يكن اتصالها في تلك اللحظة مناسبًا. لكني لسبب ما رددت. حين رددت كانت أولجا قد جلست أخيرًا إلى مكتبها وهي تجاهد لاستعادة هدوئها. رددت لأدفن رأسي في الهاتف أو لأني لم أجد شيئًا آخر لأفعله في انتظار أن يحدث شيء إضافي. أمي لم تدخر وقتًا لتبدأ في حكي حكاياتها. حكت لي نفس الحكايات المعتادة. بيني وبين أمي حديث واحد فقط يمكننا تسجيله مرة واحدة لنريح أنفسنا. شعرتْ أني غير متحمسة للكلام ويبدو أنها قالت أشياء افترضت أني سوف أعلق عليها أو ربما طلبت رأيي في شيء لكني لم أنتبه.

t.me/qurssan

- "ألو؟ إنتِ هون؟ عم تسمعيني؟" صرخت أمي.

- "طبعًا كنت عم أسمع. كل شي فيني كان عم يسمع يا أمي".

- "تذكرتي هلأ؟" سألتْ أمي.

- "إيه.. إيه.. بتذكر" جاوبت. وأضفت "هلأ ضروري بسكِّر يا أمي.. عم نِكمل بعدين لأني بالعمل هلأ".

استسلمت أمي وأغلقتْ بضيق. كان يجب أن أغلق لأني ما كان بجب أن أرد. نظر لي باها بعتاب، أو هكذا تصورت.

- "سَكّرت لأن البكا كان عم يدِّق الباب وكان صار لازم افتح له". قلتها في سري ثم قمت أبحث عن الحمام. فهم باها أني أحتاج لمكان أبكي فيه فأشار لي أن أتبعه. تبعته حتى الحمام. أدخلني وأخبرني إن احتجت لشيء أن أناديه ثم هز رأسه راغبًا في إضحاكي. رغبت في أن اضحك لكني لم أستطع.

- "عندك حق تبقي غضبانة كدا" قالها بالمصري ثم أغلق عليّ الباب. لم أكن غاضبة. كنت فقط أريد البكاء. نظرت لوجهي في المرآة. لم يكن وجهًا غاضبًا. حقيقة أنا لا أعرف إن كنت يجب أن أغضب أم لا. كان وجهًا يائسًا أكثر. واليأس غير الغضب. فأن تغضب معناها أنك ما زلت محتفظًا بأمل ما. يمكنك حين تغضب أن تقاتل.. أن تقتل.. أن تدفع الآخرين لقتلك.. أن تحطم كل شيء كي لا يحتفظ أعداؤك بمواقعهم.. لكنك حين تيأس.. تستسلم.. تتوقف عن فعل

t.me/qurssan

أي شيء. حتى الغضب لا يكون ممكنًا. الغضب قرين الأمل. أمل في أن شيئًا ما يمكنه أن يتغير ويتبدل.

كنت خارجة من المدرسة حين بدأ كل شيء. كنت أحمل أوراق امتحانات الشهر كي أصححها في البيت. اتفقت مع عمار أن يمر بالمدرسة ليصحبني بعد أن أخبرت أمي أنه تزوجني سرًا لكنه اتصل في الحصة الأخيرة ليخبرني أنه سوف يتأخر. وأنا خارجة من المدرسة كان الصبية قد بدأوا في الصراخ. كانوا غاضبين. غاضبون لأن آباءهم يملون عليهم ما ينبغي وما لا ينبغي أن يفعلوه. غاضبون لأن مدرسيهم يقسون عليهم. لأنهم غير قادرين على السير مع حبيباتهم في الشوارع. لأن رؤوس آبائهم مدلاة بإزاء السلطات. غاضبون لأنهم خائفون وليست لديهم الرغبة في أن يظلوا خائفين. غاضبون لأي شيء. لكن المؤكد أنهم كانوا غاضبين. في نصف ساعة تقريبا كانت جدران المدينة قد امتلأت بعبارات الغضب. من المدرسة حتى البيت كانت ثمة كلمة مكتوبة في كل مكان. كلمة كما لو كانت انتشرت بفعل عدوى ما. "يسقط". على كل جدار كان ثمة شيء يريد الغاضبون إسقاطه. أن تغضب معناه أن لديك أملا ما في قدرتك على إسقاط شيء ما. أو في أن شيئًا على وشك السقوط سوف يسقط لأن أوان سقوطه قد حل. حين وصلت للبيت سألتني أمي عن "الضجة" في الخارج فأخبرتها أنها فورة غضب اشتعلت ثم خبت. كان الغضب قد خبا فعلًا. الصبية الغاضبون عادوا لبيوتهم. الآن كانوا يتناولون طعام غدائهم أو ينهون فروضهم المدرسية أو يشاهدون المباراة في التليفزيون أو في طريقهم

t.me/qurssan

الدروسهم الإضافية. خبت فورة الغضب لكن الجدران كانت هناك.. في الخارج.. كوجوه غاضبة ومستفزة ومهددة ومحذرة من تجدد فورات الغضب. ولأن الغضب لم يكن مسموحًا به في هذه الأرجاء أو في غيرها جاءت العربات الرسمية. كنت أكلم عمار وأعاتبه على اللقاء المهدر. كنت غاضبة من عمار. الغضب الوحيد الذي عرفته في تلك اللحظة كان غضبي من عمار. فجأة سمعنا صوت عربات وجنود. أغلقت مع عمار وطللت من النافذة. الجميع أطلوا من شرفاتهم ينظرون ويترقبون. حتى الصبية الغاضبون خرجوا يشاهدون العربات لكسر الملل أو بسبب الفضول. الجنود نزلوا من عرباتهم وتوجه كل منهم لبيت من البيوت. فجأة خرج صراخ النسوة من كل البيوت واندفعن من البيوت محاولين حماية أبنائهن الذين انتزعهم الجنود من طاولات غدائهم وطاولات فروضهم المدرسية.

الآباء كانوا وقتها في أعمالهم لهذا تكفلت النسوة بمقاومة السلطات، ولأنهن كن بلا حيلة فقد اكتفين بالصراخ في وجوه الجنود. وبسبب الصراخ رأينا الرجال آتين يهرولون من كل مكان. من مزارعهم ودكاكينهم وأسواقهم وحتى مقاهيهم وأوكار مخدراتهم. اجتمع الرجال وتباحثوا. نهروا زوجاتهم عن الصراخ فكففن. كن يثقن في حنكة رجالهن ودربتهم على محاورة السلطات. أولادهم مجرد صبية. الآن سوف يخبر آباؤهم رجال السلطة أنهم مجرد صبية وأن السلطة لا يصح أن تأخذهم بجدية. ساعة وسوف ينتهي الأمر ويصبح نكتة يتناولها الناس على طاولات عشائهم. أشار بعض الرجال للجدران

t.me/qurssan

واقترح آخرون أن يتولى رجال القرية طلاءها. بعضهم شرع بالفعل في طلائها ولم ينتظر زيارة وفد الأهالي لرجال السلطة الذين حبسوا الصبية في فصول المدرسة الثانوية. تقرر أن يذهب كبار العائلات لملاقاة ممثل السلطة في فناء المدرسة. البلدة كلها عائلات كبيرة ولكل عائلة كبير والسلطة تعرف أكابر العائلات بالاسم. حين تريد مخاطبة البلدة يكفيها مخاطبة أكابرهم فحسب. هم الذين يساعدونها في الانتخابات وفي الحفاظ على الأمن العام وفي إتمام المصالحات وفي كل شيء تحتاجه أو لا تحتاجه. اجتمع الأكابر. كانوا تسعة رجال. شيوخ. ارتدوا جلابيبهم التي يرتدونها في المناسبات المهمة. عبروا الشارع ودخلوا فناء المدرسة وكان مدير الأمن جالسًا على كرسي ممددًا ساقيه فوق مكتب مَدرسي من مكاتب التلاميذ. انتظر الشيوخ أن يُنزل ساقيه كما جرت العادة والأصول لكنه لم يفعل. ابتلع الشيوخ الإهانة واعتبروها مجرد حماقة من حكومي شاب. كان الجميع يعرف أنه يحمل رتبة أكبر من سنه لمجرد أنه من آل الأسد. افتتح الشاب الكلام. صرخ في الشيوخ بغضب. أشاح بوجهه. أطاح بذراعيه يمينًا ويسارًا في غضب. أتى لتأديب المخطئين ولأن أحدًا لم يكن أمامه الآن بخلاف الشيوخ التسعة قرر تأديبهم. لم يسمح لهم حتى بالجلوس. لم يكن هناك مقاعد لكن كانت دعوتهم للجلوس على الأرض أكثر علامات التهذيب الممكنة. لكن حتى هذه الدعوة لم ينعم بها عليهم. بادر الشيوخ بالكلام. تأدبًا تركوا الكلام لأكبرهم سنا وعزوة. اقترح الكبير أن يُتم رجال القرية طلاء الجدران قبل أن ينتهي نهار اليوم وأن يقدم الصبية اعتذارهم على

t.me/qurssan

, عد بألا يتكرر هذا الأمر مرة أخرى. كانت حلولًا مُرضية لأي شخص ،خلاف هذا الشـاب المهووس بنظافة بدلته وبلمعان نجومه النحاسـية. أراد أن يبسـط سـلطته كاملة فقام واقفًا وأعلن أنه سـوف يرحل بالصبية لاحتجازهم في المباني الحكومية. فهم الكبير أنه لا أمل. كان غاضبًا في البداية، وهو ما كان يعني أن أملًا كان لديه في أن يتغير شيء. لكنه حين شـعر باليأس. حين فهم أنه لا أمل. حين تبدد غضبه وحل محله اليأس. خلـع عمامته. وفي لحظـات كان الرجال الآخرون قـد اتبعوه خارجين بعـد أن خلعوا عمائمهم وتركوها على المكتب المدرسـي أمام الضابط الشاب، وهو ما كان يعني إعلان الحرب. والحرب إعلان يأس.

حيـن رأى الرجـال كبارهم خارجين حاسـري الـرؤوس فهموا. في دقائـق كل الذيـن يخبئـون بارودهـم جاءوا بهـا. كنت ما زلـت أطل من النافـذة. عمـار الذي أخبرته بما يجري كان قد وصل مسـرعًا. كان واقفا أسـفل النافـذة مـع الرجـال. كانـوا يضحكـون لأن الأمـل كان حاضـرًا مـا زال، لكنهـم كالبقيـة رأوا الكبـار خارجيـن مـن المدرسـة حاسـري الـرؤوس. عمار كالجميع اختفى لدقائق ثم عاد حاملًا بارودة. دقائق ثم اندلعت المعركة. لم يكن الضابط الشـاب يتوقعهـا فيما يبدو لأن صوته المسـتغيث كان مسـموعًا رغم ضجيج الطلقات المتبادلة. كان يستغيث بالسـلطات أن تحميـه. كان الجميـع يعـرف أن الأمور لـن تمضي بحال مـن الأحـوال لكن الضابط الشـاب لم يتـرك لأحد فرصـة. كان الرجال يريـدون أبناءهم فقـط. قاوم الضابط وجنوده بقدر ما اسـتطاعوا. قاوموا حتى وصلت إمدادات السـلطة. تمكنت السـلطة مـن إخراج رجالها من

t.me/qurssan

المدرسة والفرار بهم. اندفع الرجال بعدها إلى المدرسة يبحثون عن أبنائهم. بعد دقائق عاد صراخ النسوة مرة أخرى بالتياع هذه المرة. أثناء المعركة سقط سقف أحد الفصول فقتل أربعة من الأولاد. لم يكن مهمًا من أسقط السقف لكن المهم أن أطفال أربعة لن يعودوا لحضن أمهاتهم. كنت في النافذة ما زلت حين عرفت بالخبر. كنت غاضبة من عمار لأنه أخلف موعدي وكنت غاضبة الآن منه لأنه سمح لكل هذه الأشياء بأن تحدث.

- "عالية.. هل ما زلت هنا؟!".

سألتْ أولجا وهي تطرق طرقات خفيفة على باب الحمام. كنت أبكي وكنت أشعر بالخوف. وجهي في المرآة كوجه شخص لا أعرفه. كنت على وشك إتمام الثلاثين لكن المرأة التي يطل وجهها في المرآة الآن كانت عجوزًا. عجوزًا للغاية. كنت قد صرت أكبر من أولجا. أكبر من أمي. أكبر من كل النساء اللاتي أعرفهن. غسلت وجهي وخرجت. في الخارج كانت أولجا وباها واقفيْن.

- "لماذا وصفتيني اليوم بأني جميلة لكن غاضبة؟" سألتُها بحنق. "المرأة في القطار أيضًا قالت إني أبدو غاضبة". أضفت بإصرار. "هلاَّ صار لي سحنة غاضبة يا باها؟!".

ركبنا الباص. أولجا وأنا وباها. طلبتْ مني أولجا أن أحتفظ بسر المصري. اندهشتْ لأن المصري لا يأمن للناس بيسر. باها قال بثقة الخبير إنه يعرف أين يضع قدمه فابتسمتْ أولجا هازئة. كانت تعامله كابن.

t.me/qurssan

- "بكرة أجازة.. ما تيجي نروح اللوفر سوا.. هوريكي حاجات في قسم التاريخ المصري مش هتشوفي زيها في الدنيا كلها" اقترح باها باللهجة المصرية. نظرت له أولجا معاتبة لأنه يتحدث بلغة لا تعرفها. سألتني إن كنت أعرف لغته فأخبرتها أن لغته هي اللغة الوحيدة التي يعرفها كل عربي. باها هتف "مصر أم الدنيا" وهز رأسه كالهنود فضحكتُ. هتفت بيأس "والشام هي الدنيا". هتف باها مجددًا بأغنية "كل بلاد الدنيا جميلة لكن أجمل من بلدي لا". وكان يهز رأسه على إيقاع الأغنية. ضحكتُ مرة أخرى فنظرت لنا أولجا بغيظ. أعاد باها اقتراحه عليها بالفرنسية فرحبتْ بالاقتراح فورًا. قالت إننا يمكننا تمضية اليوم معا لنسيان الموقف السيئ الذي مر بنا. أحببت أولجا حين قالت "بنا". اعتبرتْ أولجا ما حدث إساءة لها هي أيضًا.

حين دخلنا الدار وعرفَتْ أن فرنسيس اتصل بالشرطة ليخبرهم أن امرأة عربية كانت هنا وتركت حقيبتها ورحلت ثار غضبها. الآن استعادت هدوءها خصوصًا بعد أن بدأ باها في تمثيل ما حدث فحوّله لمشهد كوميدي. باها بالغ في وصْف فرنسيس الذي اتصل بالشرطة ثم خرج لانتظارها في الخارج رغم أنه لم يسمح لباها ولا لموظفة الاستقبال بأن يخرجا وقال إنه سوف يحتجزهما لحين وصول الشرطة. خاف فرنسيس من الدخول مع رجال الشرطة ثم اتهم باها بالتواطؤ معي بحجة أننا مسلمان، وهو ما كان يعني بالنسبة له إرهابيين. قام باها ليقلد الرجل الذي ارتدى بدلة خبراء المتفجرات فبدا له كرجل فضاء. قلد طريقته في فتح الحقيبة برويّة بعد أن عرّضها لأشعة بعض الأجهزة بحذر. وصف

t.me/qurssan

باهـا لحظة فتح الحقيبة التي أجبرت فرنسيس على الخروج من الشقة ارتعابًا ووصف عودته الحذرة مرة أخرى حين كان رجل الفضاء يمسك بمشد صدري ويخرجه من الحقيبة. "رجل الفضاء قعد يفتش السوتيان حتة حتة". انفجرنا من الضحك. كان لباهـا طريقة مصرية نعرفها في السخرية من كل شيء. ورغم صغر سنه كان يبدو أنه يعرف الكثير. ترجمتُ لأولجا العبارة الأخيرة فكادت تختنق من الضحك.

باها سأل مرة أخرى إن كنا قبلنا اقتراحه. أولجا أعلنت موافقتها برفع يدها لأعلى كما لو كنا نقوم باقتراع. ولتأكيد حماسها اقترحتْ أيضًا أن نتغدى معا "شاورما إسرائيلية". ما إن قالت هذه العبارة حتى انفجرتُ أنا وباهـا في الضحك. ظلت أولجا تنظر لنا بغيظ أكبر. أحستْ أنه صار بيننا سر لا تعرفه. بدا لي أيضًا أنها تشعر بالغيرة لأني بدأت أنازعها على محبة ابنها. توقفنا عن الضحك حتى لا نثير شكها أكثر. لكن باها أشار نحوي وقال "صاحبة الشاورما نفسها أمامك الآن يا أولجا". وبالمصري قال "احترمي نفسك يا ولية". ضحكنا. لم تفهم أولجا لكنها ضحكت هي الأخرى. وفي الباص كان شاب عربي - ربما جزائري - يغازل فتاته ولا يكف عن النظر حوله ليتأكد أنه مرئي من الجميع. لكن حظه أن أحدًا في الباص لم يكن مهتمًا بمتابعة مراهق يتفاخر برجوليته.

أصرّت أولجا على أن أبيت الليلة في بيتها على أن تبحث لي عن مكان للإيجار في الصباح. باها بخفة اقترح أن أذهب للنوم في غرفته. فهمت أولجا مشاكسته فضربته على فخذه مداعبة. لمبادلته مشاكسته

t.me/qurssan

قالت إني سوف أكون في أمان أكثر مع باها لأنه لم يصبح رجلا بعد. باها رفع ذراعه في وجه أولجا مازحا. لم أكن أتخيل أن أكون موضوعا لحديث كهذا لكن المرح تسرب لي دون دعوة. كنت مطمئنة لأولجا ولباها، ولأول مرة منذ وصلت إلى فرنسا أشعر بالأمان. حتى ميشيل لم يشعرني بمثل هذا الأمان. ميشيل كان ودودًا وأكثر الرجال الذين عرفتهم لطفًا وإخلاصًا، لكنه لم ينجح في إقناعي بأن علاقتنا ليست بدافع الشفقة. كنت أهرب، وميشيل كان يعرف أني أهرب، وبدا كأنه يرغب في مساعدتي على الهروب، ولم يفهم أن المساعدة الوحيدة التي كنت أنشدها هي معرفة أسباب هروبي. حتى أنه لم يناقش معي مسألة هروبي أبدًا.

حين وصلتُ وليلي بازل استقبلتنا ريما. وهي التي عرفتني بميشيل. كنا معا قد قررنا الرحيل لأوروبا وترك كل هذا الجنون الذي اشتعل خلف ظهورنا. على عكسي، ريما لم تكن تحمل طفلة، فتمكنت من السفر قبلي. عائلتانا سافرتا لبيروت بعد أن تحولت الثورة في أيام لحرب أهلية. أغلب رجالنا تورطوا في الحرب وفجأة صرنا عائلتين من النساء حتى أن أحدًا لم ينتبه للانتفاخ الذي ظهر على بطني. حين عرف عمار أننا نستعد للسفر لبيروت لم يأت ليستبقيني وطفلته معه. لم يأت لتوديعي. لكنه على سبيل العرفان أرسل لي ورقة زوّرها بمساعدة رفيقين لا أعرفهما. ورقة تفيد أننا زوجان. وإمعانًا في الرقة وقّع الورقة بتاريخ قديم. أراد أن يحميني على طريقته. لكن طريقته في حمايتي بدت مضحكة لأن بيوتنا - في ذلك الحين - كانت تتعرض للقصف.

t.me/qurssan

في شـارعنا الذي تسـللنا منه ليلًا كنا نتعثر في الخرائب وفي وسـط الشـارع كان ثمـة شـاب لا نعرفه. لم يكن مـن حيّنا لأننا كنـا نعرف كل شـخص وكل دابة تسكنه. شـاب كان يجلس على مقعد وحيد متبقٍ من صالون أحد الجيران. كان يجلس على المقعد في منتصف الشارع. كان يرتدي زيًا أسود وكان يسند بارودة بين ساقيه. أمكننا على ضوء النجوم التـي صار منظرها في السـماء يخيفنا لأنها صارت تشـبه لهب القذائف التطلع إلى الشـرفات المتبقية في أبنية هدمت في القصف. كان شـارعًا من الأطلال. لكنه قبل شـهور لم يكن قد سُكن بالأشباح بعد. في شرفة من هذه الشـرفات كانت صبيّة ترقب مرور الصبي وتقتل الوقت بمتابعة صياح الأولاد أسـفل شرفتها ومحاولة بعضهم إجبار الآخرين احتساب الهـدف المشـكوك في صحته. وعند الناصيـة كان صبي يختلس أنفاس سـيجارة مسـتعارة من رفيق قبل صعوده للبيت. وتيـأس امرأة من إبطاء صاحـب الـدكان العجوز وهو يحسـب حسـبته فتقول له وهـي تغادر "احسـبها لحالك". وعلى المقهى يشـكو الرجـال للرجال ويضحك الرجـال مـن الرجـال ويتعارك الرجـال مع الرجـال ويتدخـل الرجال للصلح بين الرجال والرجال. ويمر عابر برجل عائد من السوق فيسأله عـن بيـت أحدهم فيضـع حقائبـه علـى الأرض ليريح ذراعيه وليشـير للطريق بدقة.

في الشـارع الذي تسـللنا منـه ليلًا أنـا وأمي وليلي التـي لم يجاوز عمرهـا الشـهرين وريما وأمها وأختها لم يعـد إلا ذلك الأبضاي الذي يحرس الخرائب من بطش الأعداء.

t.me/qurssan

في بيروت اكتشفنا - أنا وريما - أن رحيلنا لم يكن كافيًا. قررنا الرحيل أبعد. ريما سجلت اسمها في منحة تابعة للأمم المتحدة وسافرت بعد شهور. حاولتُ تسجيل نفسي عدة مرات لكن وجود ليلي كان حائلًا بيني وبين السفر. كما كنت أكبر سنًا من ريما. كنت أكبر، كما أن ليلي كانت تكبر. ذات صباح وجدتني أعبر طريق الجنرال فؤاد شهاب متوجهة لسفارة سويسرا. كانت قد أعلنت عن منح تأشيرات لجوء "إنسانية". الموظف الذي استقبلني سألني عن أسباب رغبتي في الرحيل عن بيروت. كنت أحمل ليلي على ذراعي وحرصت على أن يكون وجهها مرئيًا. كان وجه ملاك في عامه الثاني. أخبرت الموظف أني أم عزباء وأن الرجل الذي تسبب في ذلك هرب وأن عمي يبحث عني ليقتلني. أخبرت الموظف أني هربت من سوريا لبيروت للاختباء من عمي لكنه منذ الأمس يربض أسفل بيتي ويخفي خنجرًا. كانت حكايتي كلها مزيفة لكن بالنسبة لموظف سويسري كانت أكثر حكاية يمكن تصديقها. خرجت من السفارة وقد رُقّعت أوراقي. أرسلت رسالة لريما بموعد سفري. وفي المطار كانت ريما بصحبة ميشيل. ريما تعرفت على ميشيل حين كانت تحاول بيعه شيئًا ما مما تجهد نفسها لبيعه. كانت مشروعًا للشفقة فيما يبدو قبل أن يتحول المشروع ليكون من نصيبي. حين بدأت علاقتي بميشيل أقسمت لي ريما أنها لم تحب ميشيل أبدا. لم يكن أمامي غير تصديقها لأني كنت في حاجة لمكان تنام فيه ابنتي.

- "ليس لديّ إلا سرير واحد. لكنه يكفي لشخصين دون أن يغتصب أحدهما الآخر".

t.me/qurssan

قالـت أولجا بسـخرية فاكتشـفت أننا صرنـا ببيتها. لـم أنتبه لنزول باهـا من الباص ولا لنزولنا نحن أيضًـا ولا لصعودنا بيت أولجا. كنت شـاردة لدرجة أن المـرح الذي غمرني منذ دقائق تبخـر تمامًا. دخلت الحمام وغيرت ملابسـي وحين عدت كانت أولجا قد غيرت ملابسها وتمددت في الطرف الأيمن للسـرير. كان السـرير واسعًا بالفعل وكان يكفي لإقامة حفلة. كان اتساعه غريبًا في شقة صغيرة مثل شقة أولجا. أولجـا كان فـي يدها كأس نبيذ وأشـارت إلى كأس علـى الكومود في الناحيـة الأخـرى من السـرير. لم يكن لـي مزاج للشـراب لكني كنت بحاجة لنوم طويل فشربت.

لم يفدني الشـراب. لم أسـتطع النوم. مررت بيوم صعب وشـهدت فصـولًا أربعة في عدة سـاعات. نظـرت لأولجا. كانت تغـط في النوم. كان لها صوت شخير ذكوري رغم أنوثتها. جوار جانبها من السرير كان هناك علب أدوية كثيرة وعلى مائدة زينتها رأيت باروكة شعرها. اكتشفت أن لأولجا شعرًا مسـتعارًا. نظرت إليها فوجدتها تغطي رأسها بإيشارب تركـي. أولجـا كانت مريضة. قررت ألا أسـألها عن ذلـك طالما أنها لم تخبرنـي به. حاولـت تذكر لحظة خروجي من الحمـام وبالكاد تمكنت من تذكر أنها كانت ممددة في السرير بشعرها. فهمت أني غفلت لبرهة. برهـة كانت كافية لأن تقوم فيها أولجا بخلع شـعرها المسـتعار وتغطية رأسـها. نظرت في الساعة. كانت السـاعة تقترب من الخامسـة. لم يكن الوقت مناسـبًا للاتصال بميشيل لكني اكتشفت حاجتي للاتصال به. لم أكن أرغب في سـماع صوت ليلي. أعرف أنهـا نائمة الآن. كنت أرغب في سماع صوت ميشيل. في إخباره أني لست بخير هذا المساء.

t.me/qurssan

8

- "صباح الخير يا لي".

كان وجهها منتفخًا من النوم. نامت ساعات طويلة ويبدو أنها حلمت أحلامًا سعيدة لأنها فور أن فتحت عينيها ابتسمت ابتسامة سعيدة. كنت أحب وجه ليلي. منذ شاهدته لأول مرة أسَرني. وجه خمري بعينين خضراوين واسعتين وشعر أسود ناعم وشفتين ممتلئتين وأنف معقوف. لم يكن لديها ملامح عربية معتادة مما كانت للعرب الذين تمتلئ بهم شوارع باريس. ملامحها مزيج بين ثلاث قارات. لكن الأجمل كانت نظرة السعادة المرتسمة على وجهها كإعلان. للأطفال عادة نظرة بريئة لكن لليلي نظرة سعيدة. وبالنظر للحياة التي عاشتها خلال السنوات الأربع التي هي كل عمرها فإن سعادتها لم تكن لتظهر على وجهها إن لم تكن قد ولدت بها. لوجه ليلي مظهر سعيد حتى حين لا تشعر بالسعادة.

- "ما أكثر الأشياء التي تريدينها؟" سألتُ بثقة من لا يشك في الحصول على جواب وحيد.

حرّكت كتفيها بحيرة. مسحت وجهها بكفيها الصغيرين. ابتسمتْ. رفعت حاجبيها. ضحكتْ. وليلي حين تضحك تجبرك على الضحك. ضحكتُ. أشارت بيديها تسألني بفضول.

t.me/qurssan

- "ألا تريدين الذهاب لأمك؟".

- "متى؟" سألتْ بحماس.

- "اليوم.. الآن" قلت بحماس أكبر.

فتر حماسها. نظرتُ لها مستفهمًا.

- "وعدتُ ليونيد أن أذهب للعب معه في البارك اليوم" قالت.

- "لكني لا أريد يا لي".

- "لماذا؟" سألتْ بفضول.

- "لا أريد أن أقابل والدة ليونيد يا لي".

- "ليست والدته.. لقد أخبرني.. إنها ليست والدته.. هي فقط المرأة التي تذهب معه في كل مكان". قالت بحماس كما لو أن ذلك سوف يغير موقفي.

- "لا أريد أن أقابلها في كل الأحوال".

- "أنت لا تحبها؟" سألت ببراءة.

- "أنا أحب أمك فقط يا لي".

- "لكنها لطيفة.. وهي تحبك".

- "ليس كافيًا أن تحبني لأحبها ".

صمتت. نظرت نحو النافذة. كان الثلج يتساقط في الخارج. يبدو أنها كانت تسأل نفسها أسئلة مبكرًا جدًا التفكير فيها.

t.me/qurssan

- "ماذا لو أحببت أحدًا لكنه لم يحبني يا ميشيل" سألتْ بتحيّر.

- "لا يمكـن لإنسـان ألا يحبك يـا لي" قلت وأنا أقـوم لاحتضانها بدلَا.

ابتسمتْ بفرحة.

- "لكني وعدتُ ليونيد أن أذهب للعب معه" قالت بتوسل.

تبـدأ العلاقـات كلحظة انفجار كبيـرة وتنتهي بفعـل تمددها. حين التقيت عالية لأول مرة عرفت أني على وشك الوقوع في الحب. كنت أنهي إجراءات الطلاق مع أدريان. وكنت أشعر بأني حر لأول مرة منذ فترة طويلة. كنت في طريقي للتحرر الكامل. تحرر من العمل والزواج وحتى مسئولياتي تجاه أمي التي تأقلمتْ أخيرًا مع غياب أبي، وكذلك السياسـة. حين رأيت عالية في المطار، كنجم غمرتني جاذبيته، قررت مقاومتها. الخوف من الوقوع في جاذبية نجم لم يكن ممكنًا إلا بالوقوع في جاذبية نجم آخر. على مدار عام كامل تقريبًا أوقعت نفسي طواعية في شـراك نسـاء كثيرات. عرفت نسـاء أكثر مما عرفت في أية فترة من فترات حياتي. في شـبابي، وكأي فوضوي شـاب، غرقت في حفلات الجنس. لم نـدع متعة إلا جربناها. ولا مخدرًا إلا اخترعناه. ولا زهرة إلا أهديناها للسائرين في الشوارع. كان عمري خمسة عشر عامًا حين تخليت تمامًا عن ارتداء حذاء وتخليت عن عادات النظافة الشـخصية البرجوازية. كنت أشعر أني حر. لكني فجأة اكتشفت أني مجرد أحمق آخـر. كنـا نصعد أحد تـلال الألـب. كنا أكثر مـن مائة شـاب. أصيب

t.me/qurssan

باطـن قدمي فتعطلتُ عن المسـير دقائق معدودة كانت كافية ليسـبقني الآخـرون. فجـأة وأنا أرفع عينـي نحو التل رأيت الحقيقـة عارية. كان أمامي مائة شـخص عار القدم. مائة شـخص أطال شعر رأسه وارتدى الملابس نفسـها تقريبًا. كان أمامي مائة شـخص يفكر بالطريقة نفسـها ويأكل بالطريقة نفسها ويشرب بالطريقة نفسها، والمفارقة أن كل ذلك كان من أجل الحرية! من أجل ألا نكون مثل الآخرين. وكما في لحظة إلهـام، بينمـا كان الجميع يصعـدون التل كنت قد بـدأت رحلة العودة إلى العالم.

لمقاومـة جاذبيـة عالية كان عليّ الاستسـلام لجاذبيات أقل. لكني فـي النهاية فهمـت أن فاعلية جاذبية أي شـخص ترتبـط برغبة الآخر، رغبة الآخر المجذوب في الانجذاب وليس بالشـخص القادر على أن يكون جاذبًا. عالية لها مثل هذه الجاذبية لديّ أنا فقط لأني أرغب بشدة في الانجذاب إليها. والانجذاب إليها كان الشيء الوحيد الذي أرغب فـي الاستسـلام له. استسـلمت. والآن وهي تحاول توسـعة المسـافة بيـن نجمينا أشـعر بانجذاب أكبر حتى أن فتاة جميلـة مثل نيمو لم تعد تغريني كرجل في منتصف الأربعينيات وموشك على الكهولة. لا أحد يمكنه تعويض غياب أحد.

- "ميشيل.. لماذا ليس لي أب؟!" سألتْ ليلي أثناء فطورنا.

- "البعض له أب والبعض ليس له أب يا لي".

t.me/qurssan

- "لكـن ليونيد قال إن كل الناس لهم آباء وأمهات.. هو له أب وله أم.. قلت له إن لي أمًّا وإن لي ميشيل فقال لكن ميشيل ليس أباك.. قال إنك مثل المرأة التي تذهب معه إلى كل مكان".

- "ليونيد مخطئ يا لي.. هو فقط لا يعرف كل شيء".

- "لكنـه أكبـر مني.. لقد قال إنه في السـابعة" ثم رسـمت علامة 7 بكفيها.

- "وأنا أكبر منه يا لي وأعرف ما لا يعرفه ليونيد".

- "لكنك لم تكن تعرف أن نيمو ليست أمه" قالت ساخرة.

- "ماذا تريدين الآن يا لي؟! " قلت بيأس.

- "لا شـيء.. أريـد أن أذهب للعب مع ليونيـد.. كي أخبره كم هو مخطئ".

هل أهرب من مواجهة نيمو أم أرغب في الإخلاص لعالية من أجل معاقبتهـا أكثـر! أمي حين اتخذ أبـي قراره بالرحيل قـررت مصارحته. أخبرتـه عـن مـرات الغواية التـي تعرضت لهـا منذ كانت زوجة شـابة حتى صارت أمًا لشـابين. أصـرت على أن تحكي له كل محاولة غواية بالأسـماء وبالوقائع كما لو أنها تسـرد سـيرة فخرها. لـم يفاجئني هذا الأمر. أمي جميلة وطالما أثارت حقد الأخريات. ما فاجأني قولها إنها لم تستسـلم في أية مرة لا من أجل الحب ولا احترامًا لكاثوليكيتها لكن انتظارا للحظة مواجهة كانت تعرف أنها سـوف تأتي. أمي لم تستسـلم للحب فقط حتى تتمكن من إخبار أبي كم أنها أفضل منه. أي عقاب!

t.me/qurssan

فـي الأفلام تخون المرأة الرجـل عقابًا على خيانته لكن أمي عاقبته بالمحافظـة على تفوقها. في المـرات التي حاول فيها أبي العودة لأمي كان يعود بشـعور بالانكسـار أمام تفوق أمي. أبي نال عقابه. وبسـبب هذا التفوق تعاطفتُ مع أبي أكثر ولهذا لم أعد أحب العودة لنيم حتى لا أشـارك أمي فـي معاقبته. أبي بدا لي - بخيانته لأمي - أكثر إنسـانية منها.

- "لي.. لماذا تحبين ليونيد؟!".

- "لأنه صديقي".

- "لي.. أنت بالكاد تعرفينه".

- "لكنه صديقي الوحيد".

- "لـي.. حتـى لو قابلتـه اليوم.. فغالبًـا لن يكون بمقـدورك رؤيته مجددًا.. هو يعيش في بيرن.. ونحن نخطط للبقاء في باريس".

- "ليس لي أصدقاء غير ليونيد".

- "في باريس يمكنك التعرف على أصدقاء جدد.. سـوف تنسـين ليونيد بعد أن يصبح لك أصدقاء آخرون".

بـدا أنها قد انهزمت قليلًا لأنها صمتت، لكنها كانت تشـحذ قوتها وتستعد للانقضاض مرة أخرى.

- "هل يمكنك نسياني أنا وأمي حين يصبح لك أصدقاء غيرنا؟".

t.me/qurssan

- "لكن.. لكن أنتِ وأمك بالنسبة لي أكثر من أصدقاء يا لي".

- "ما الذي يعنيه أن نكون أكثر من أصدقاء يا ميشيل؟".

ميزة الأطفال أنهم يقولون الأشياء على النحو الصحيح. وميزة ليلي أنها تقوله بأقصر الطرق وأشدها قسوة. ما الذي يعنيه أكثر من أصدقاء؟ أنا لا أعرف يا ليلي. وهو ما لا يمكنني الاعتراف به. أنا أحب أمك. ما الذي يعنيه ذلك على الوجه الصحيح. يمكنني الآن أن أذهب للنوم مع نيمو. أن أذهب للنوم معها ثم أنساها تمامًا بعد أن ننتهي. نيمو لا يمكن أن تعوّض غياب أمك. هذا ما يمكنني الاعتراف به. حتى بيني وبين نفسي. لكن هل تستطيع عالية أن تعوّض غياب نيمو؟ هل عوّضت عالية غياب أدريان؟ حين كنت مع أدريان كنت أظن أن أحدًا لا يمكنه تعويض غيابها. وحين غابت، حتى قبل أن تطلب الطلاق، صار غيابها له قوة حضورها السابق. أدريان صارت منسية. وهو ما كان يعني أنها صارت غيابًا محضًا. لم يعوّض أحد غياب أدريان لأنها ببساطة لم تعد غائبة أو حاضرة. أدريان لم يعد لها وجود. ماذا لو أصرّت عالية على الانفصال؟ ماذا لو صار غيابها لها قوة حضورها. ماذا لو أصبحت لا غائبة ولا حاضرة؟ ماذا لو أصبحت غير موجودة؟ ألن يكون في مقدوري البدء من جديد؟

- "هل مات هذا الرجل؟" سألتْ ليلي.

كنا في مطعم الأوتيل وكانت شاشة تعرض فيلم The Kid لشارلي شابلن الذي أنهى حياته بالإقامة في سويسرا. نظرتُ نحو الشاشة. كان شارلي يحاول الهرب مع الطفلة من البوليس.

t.me/qurssan

- "حتى هذه الطفلة ماتت يا لي.. هذا فيلم قديم للغاية.. قديم أكثر مما تتخيلين".

- "كل من في الفيلم ماتوا؟" سألت ليلي بأسى.

كلنا سوف نموت يا ليلي. لن أقول لك ذلك حتى لا أتسبب لك في أذى. كلنا سوف نموت. كل الذين يجلسون الآن في المطعم. النادلة ذات الشعر الأخضر. الرجل الذي أعد لك طبق البيض. الرجال والنساء الذين نراهم في الخارج. كل الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم بعد مائة عام من الآن لن يكونوا موجودين. سوف يحل أناس آخرون محلهم. ولو قُدّر لهذا الأوتيل أن يظل موجودًا بعد مائة عام فسوف يحل رجل آخر لإعداد طبق البيض محل هذا الرجل. سوف تحل نادلة أخرى قد يكون لها شعر أخضر. وسوف يكون رجال ونساء آخرون مرئيين في الخارج. لا أحد قادر على تعويض غياب أحد لكننا كائنات مقدر لها الغياب. كل هذا الحضور مقدر له الغياب. لن يكون هناك أشخاص قادرين على تذكرنا أو حتى نسياننا في المستقبل.

النادلة صاحبة الشعر الأخضر اقتربت لتسألنا إن كنا نحتاج شيئًا. نظرتُ لها فبدت لي فتاة ذات غياب أخضر.

***

- "لم تخبريني حتى الآن لماذا أنت في بيرن".

استسلمتُ لليلي في النهاية وذهبنا للبارك. كان ليونيد في انتظار أن تفي بوعدها لأنه - فيما يبدو - رفض اللعب حتى تأتي. ما إن شاهدنا

t.me/qurssan

قادمين حتى جرى نحونا. ليلي أمسكت يده وذهبت معه للعب فيما كانت نيمو تنظر لي بإغواء منتصر.

- "أنا هنا لأني كنت أبحث عن هروب ناجح. لم يكن في استطاعتي البقاء في أمريكا ولا العودة لتونس. سافرت للندن لكنها أصابتني بالحزن سريعًا. انتقلت إلى سويسرا لأني كنت أريد القفز من أعلى جبال الألب. لكني لم أكن شجاعة كفاية لأفعل ذلك. كنت أبحث عن غياب له ضجيج لأن حياتي كانت كفيلم صامت. أتعرف؟ أنا أشفق على الذين لا يمكنهم الرحيل في أية لحظة. لا أقصد الرحيل التام. لكن أقصد الانتقال من بلد لآخر. وفي الوقت نفسه أشعر بالشفقة على الذين يرغبون في الرحيل لأي مكان. حين أرى قطة تعبر الشارع أشعر بالأسى. أسى ممزوج بسخرية لئيمة. ما الذي تجده قطة في الجانب الآخر من الطريق ولن تجده في جانبها؟ أشعر أننا مجبولون على التنقل. ليس بإمكاننا البقاء في مكاننا".

- "كل صباح أسأل نفسي ما الذي يدفعني للخروج من غرفتي؟ ما الذي يدفعني للخروج من سريري؟ لا شيء. يمكنني الموت في سريري دون أن ينتبه أحد".

- "في أمريكا كما في سويسرا يمكنك أن تغيب عن البيت ليلة أو حتى أسبوعًا كما يمكنك أن تنزلق في حمامك وتخبط رأسك في الجدار فاقدًا للوعي أو ميتًا دون أن ينتبه أحد لغيابك. هذا الغياب التام وجدته بديلًا مريحًا للسقوط من أعلى جبال الألب. أنا هنا لأني أحظى بغياب تام لأني فقدت فرصتي في أن يكون لي حضور تام".

t.me/qurssan

- "نيمو.. أنتِ تكذبين.. ربما لا تكذبين عليّ لكن المؤكد أنك تكذبين على نفسك. ما تبحثين عنه ليس الغياب التام بل الحضور التام. أنتِ تبحثين عن نفسك. عن حضورك. بعد موت والديك اكتشفتِ أنك لستِ أمريكية ولستِ تونسية. اكتشفتِ أنك لا أحد. وكان عليك المضي قدمًا باحثة عن وجود ما. لكن اسمحي لي لن يكون لك أي وجود في سويسرا. في سويسرا يمكنك العيش فقط. كما يمكن للآخرين أن يعيشوا فقط".

- "انظري لليونيد. إنه لا يشعر بهذا الغياب. بالأمس أخبر ليلي أن له أبًا وأمًا. ليلي هذا الصباح سألتني عن أبيها. لماذا هي بالذات ليس لها أب كالآخرين؟ ليونيد محظوظ. ليس فحسب لأن له والدين لكن أيضًا لأنه يعرف أنه سويسري. ليونيد حضور مكتمل".

- "حتى هذه اللحظة كنت أشعر بالشفقة على ليونيد. لكن الآن أنا أشعر كم أنه ولد محظوظ. بالمقارنة بليلي هو ولد محظوظ. ليلي ولدت في بلد لكنها تتحدث لغة بلد آخر. ولدت في بلد وانتقلت مع أمها لبلدين مختلفين في أقل من أربعة أعوام. والآن هي على وشك الانتقال مجددًا لبلد رابع. حين تحتفل بعيد ميلادها الخامس بعد شهور سوف تكون قد عرفت أربعة بلاد مختلفة. ليلي سوف تكبر دون أن يكون لها حضور في أي بلد".

- "انظري لليونيد. كم هو ولد محظوظ!".

- "وأنت" سألتْ.

t.me/qurssan

- "أنا؟".

- "أنت فرنسي تعيش في سويسرا".

- "لهذا عليّ العودة. هذا الصباح كنا نستعد للرحيل لباريس. الآن أدركت أن رغبتي في العودة لا علاقة لها بوجود عالية في باريس لكن لها علاقة بوجودي أنا في باريس. في باريس سوف يكون لي حضور تام مثل ليونيد".

- "أنا التعيسة الوحيدة هنا إذن" قالت بتعاسة حقيقية.

- "سوف ينتهي بك المطاف لمعرفة المكان الذي سوف يحتضن وجودك. أنت في العشرينيات كما أعتقد. أمامك عمر كامل لتبحثي فيه عن هذا المكان. قد نلتقي مرة أخرى بعد عشر سنوات من الآن إن كنت محظوظًا وعشت للستين وحينها سوف يكون لك وجود تام. ربما هنا في سويسرا أو في مكان آخر. يمكنك من هذه اللحظة البحث عن هذا الوجود. وكقطة شارع يمكنك عبور الطريق لأن هناك احتمالًا مهما كان ضئيلًا في أن تجدي في الجانب الآخر من الطريق ما لم تجديه في جانبك".

أشرت إلى ليلي فجاءت. كانت قد اكتفت باللعب مع ليونيد فيما يبدو لأنها لم تقاوم رغبتي في العودة للأوتيل.

- "ميشيل.. أنت أجمل مصادفة حدثت لي. كنت أرغب في النوم معك بشدة. لكني الآن أرغب أكثر في رحيلك. حين نلتقي بعد عشر

t.me/qurssan

سنوات لأنه من المؤكد أنك سوف تعيش للتسعين أتمنى أن أكتشف أننا - أنا وأنت - وجدنا في الجانب الآخر من الطريق ما لم نجده في جانبنا".

- "هل تسمح لي بأن أقبلك؟".

قبلتها. ثم ودعنا بعضنا البعض. تمنت لي السعادة وتمنيت لها السعادة. ليلي ودعت ليونيد وبدت سعيدة هي الأخرى. حتى ليونيد كان يبدو سعيدًا هذه اللحظة حتى أني تمكنت من تقبيله ووداعه بمحبة خالصة.

t.me/qurssan

9

كنتُ جالسةً في الصالة حين خرجتْ أولجا من غرفتها. أحسّت بغيابي فجاءت لتطمئن عليّ. كانت قد أعادت شعرها المستعار فلم أشأ أن أتطفل على أسرارها الشخصية. ومع هذا لم أتمكن من مقاومة سؤالها عن رفيقتها السابقة.

- "لماذا افترقتما؟".

- "كنت أريد بيتًا وكانت خائفة" قالت بحنين وهي تتطلع لصورتهما معا.

- "خائفة من أي شيء؟" سألتُ.

- "المرء دائمًا ما يخاف من شيء ما".

كانت تلتمس لها العذر. المرء دائمًا ما يخاف من شيء ما. كلنا خائفون يا أولجا. كلنا هاربون من خوف ما. لم تكن إجابة موفقة يا أولجا. تأملت الصورة مرة أخرى. رفيقتها كانت باريسية كاملة. شعر قصير وملامح حادة ومتعجرفة. وعينان لهما نظرة مضجرة. لم تكن ملامحها مُريحة أبدًا. لا أعرف لماذا فكّرتُ أنها كانت لتصبح رفيقة جيدة لفرنسيس. هل خطرت هذه الفكرة للانتقام منها أم للانتقام من

t.me/qurssan

فرنسيس؟ أم من كليهما؟ ومع هذا كانت أولجا - في الصورة - إلى جوارها تشعر بأمان ما. لكنه أمان كالتعلق بقشة في وسط المحيط.

نظرتُ في ساعة على الجدار. كانت الساعةُ بالكاد قد وصلت السادسة صباحًا. نوافذُ البيت كانت بلا ستائر ومع هذا كان البيت يغط في الظلمة. أضاءت أولجا أباجورة جوار المدفأة. لأول مرة أنتبه أن أولجا ليست بالصِغر الذي توهمتُه. كانت عجوزًا ويائسة ومنهكة لكني تحرجت من سؤالها عن عمرها. بين الصور التي تجمعها مع رفيقتها رأيت صورة لشابة تشبه أولجا جدًا وإلى جوارها رجل شاب قصير وممتلئ. كان يمكنني تصديق أن مَن بالصورة هي ابنة أولجا لولا أني عرفت من ألوان الصورة وطراز الملابس أنها من السبعينيات تقريبًا. كانا مستندين على جانب سيارة لادا قديمة ببناطيل تغطي كعوبهما وقمصان ملونة بياقات ضخمة. كانا يشبهان أمي وأبي في تلك اللحظة. اتبعتْ أولجا زاوية نظرتي وعرفت أني على وشك سؤالها. ظننت أنها أم أولجا نظرًا للشبه الكبير بينهما. كانت أولجا ولكن بالألوان البوستال. هممت بسؤالها إن كانت أمها لكنها بادرتني بالكلام لتزيل فضولي المفضوح.

- "هذا كان زوجي".

ارتسمت على وجهي دهشة مفاجئة. ابتسمت أولجا.

- "هذه آخر صورة جمعتنا".

- "ظننت أنها..." لم أكمل. وبعد لحظات سألتها.

t.me/qurssan

- "افترقتما؟!".

- "مـات". قالت وأشـاحت ببصرهـا نحو النافـذة المفتوحة. وفي الخارج كانت ظلمة.

- "أنا آسفة".

- "لا تأسفي.. لم يكن خطؤك يا صغيرتي". قالت بحنان وهي تمر بي مستندة على كتفي برفق.

- "هل لي أن أسأل كيف مات؟". تشجعتُ.

عَبَرتني أولجا وجلسـت. بدت متعبة. كنت أود لو أسحب سؤالي. مـا كانت أولجا تسـتحق أبدًا أن ينبش أحدٌ فـي خريطة آلامها. هممتُ بالتراجع لكنها شردت فشعرتُ أنها ترغب في إحياء ذكرى.

- "إن شئتِ الحقيقة كان خطئي أنا.. أنا التي تسببت في موته".

سكتتْ. ترددتُ في طلب المزيد. احترمتُ صمتها الذي لم يَطُل.

- "كنـتُ متدينـة أكثر ممـا أنا عليـه الآن وكان عليّ تقبـل قدر الله يـا صغيرتـي لكني لـم أتقبله بالقدر اللائق بمؤمنـة حقيقية". قالت بندم رهباني.

- "حيـن انفجـر المفاعل كنـت خائفة. الحاخام أخبرنـا بأن كل ما يصيبنا هو قدر الله الذي ليس له راد. أخبرنا أن الإنسان لا يحرك ساكنًا في الأرض إلا بأمر من السـماء. كنـت مؤمنة. لكني أيضًا كنت خائفة. الـروس جاءوا لقريتنـا وأقاموا سـياجًا. صرنا في عزلـة. الروس أيضًا

t.me/qurssan

كانـوا خائفيـن. كنت أعرف أن الإشـعاع لـم يُصبنا لأننـا ظللنا بصحة جيـدة. لكني كنت خائفة من أن يتسـلل الإشـعاع مجـددًا أو أن تصيبنا العدوى. طلبت من ألكسـندر الرحيل. كنت خائفة. ألكسـندر لم يكن خائفًـا أما أنا فكنت خائفة. خوف كاف لشـخصين كي يفرا. لم يرغب في الرحيل لكنه كان مسـتعدا للرحيل من أجلي. كما كان مستعدًا لأن يفعل أي شيء آخر من أجلي".

- "رحلنا. تسللنا ليلًا حتى لا يرانا الروس. كان الرحيل ممنوعًا لكن الناس لم يفقدوا طرقهم للتسلل خارجًا. كان الجميع خائفين. وكانوا يرغبون في الفرار من خوفهم. كان الجو باردًا والجليد في كل مكان. كان يمكننا أن نموت من البرد. مررنا بمقبرة جماعية دُفن فيها الذين ماتوا بسبب الإشعاع، وعلى البُعد كان يمكننا رؤية دخان كثيف. كانوا يحرقون الجثث.. جثث الذين ماتوا بالإشعاع.. ويحرقون حتى بيوت الذين ماتوا. كان أغلب الذين منعهم الخوف من الرحيل لا يعرفون أين يقضون لياليهم. كان الجميع خائفين. وكانوا إما يفرون من الخوف أو يستسلمون له. ألكسـندر لم يكن من الرجال الذين يستسلمون أبدًا لكنه أيضًا لم يكن من الرجال الذين يفرون من مواجهة شيء. لكنه - من أجلي ومن أجل أني كنت خائفة - وافق على الرحيل".

- "وصلنـا باريـس. لم يكـن مخططنا أن نصل باريـس لكني كنت راغبةً في أن نرحل لأبعد مكان. اسـتغرقت رحلتنا بتلك السـيارة أكثر

t.me/qurssan

من شـهر ونصف. المسـافة من روسـيا البيضاء لباريس كانت طويلة. وكنـت طوال الرحلة أنظر للخلف كما لو كنـت أتأكد أننا ابتعدنا بقدر كاف".

- "وصلنا باريس. حسبت أننا نجونا. كانت باريس بعيدة بعيدة عن المفاعل وعن الروس لكنها لم تكن بعيدة عن يد الله".

- "بعد أسـبوعين من إقامتنا في باريس مات ألكسـندر. مات وهو يعبر الشـارع. كنا نؤسـس هذا البيت. ذهبنا للحي اللاتيني لأنه قيل لنا إننا سـوف نجد هناك لوحـات مقلدة جيدة. حصلنا علـى كل ما نريده لكننـا فـي طريق العودة تصادف أن كان رجل يضع هذا الشـمعدان في فاترينة محله. كان ألكسـندر يعرف كم كنت سـأمتن له لو اشـترى لي واحـدًا. تركنـي فـي السـيارة وعبر الطريق وفـي طريق عودتـه صدمته سـيارة وهو يلوح بالشـمعدان في يده. وحين كنت أحـاول إخباره بأنه سـوف يكون بخير رأيـت كفه قابضة علـى الشـمعدان لا تريد إفلاته. عاقبنـي اللـه لأني فررت مـن الموت بأن أنجاني وحـدي من الموت. عاقبني بالوحدة".

- "ألكسندر كان يمكن أن يموت من الإشعاع كما مات الكثيرون. وكان يمكـن أن يموت من البرد ونحن في الطريق. لكنه مات هنا وهو يشتري لي شمعدانا لصلاتي".

- "علـيّ الآن أن أتقبّـل قـدر اللـه بصبـر أكبر لأنـي لم أتقبلـه وأنا شابة".

t.me/qurssan

كنتُ فارةً أخرى من الموت ففكرت في أني مستحقة للعقاب. لكني لـم أكـن أعرف أي عقاب يعده الله لي، ولا لأي سـبب. لم أكن مؤمنة كأولجـا. نادرًا مـا كنت أصلي لكني كنت أعرف أن الله موجود وكنت أرجوه أحيانًا فيستجيب. كان يبدو لنا كما لو أنه يفضلنا على الآخرين. كان مقيمًـا معنـا. في كلامنا وفـي مكبرات الصوت فـوق المآذن وفي التليفزيون وفي خطابات المسـئولين وحتى في غرفنا الشـخصية. كان اللـه معنا هذا ما أكده الرئيس مرارًا ومـرارًا. كان حاضرًا طوال الوقت أكثـر مما كان يفعل مع الآخرين. لكني لم أظن في أية لحظة أن فراري مـن الموت يمثـل تحديًـا لإرادته. الحقيقة لـم أعتبر نفسـي هاربة من المـوت. كنـت هاربة مـن الجنون، لكن ليـس الموت. كنـا نعرف أننا سـوف نموت في النهاية حتى ولو لم تقم الحرب. سـوف نموت كما يمـوت النـاس كلهم، في موعدهـم. كان الوجود خـارج البيت - كما داخله - مظلمًا.

حيـن بدأ الاقتتـال لم يبد أن هنـاك من هو قادر علـى وقفه. تطلعنا كلنا إلى السماء. إلى حيث الله موجود. كان الله وحده هو القادر على التدخـل لمنـع الناس من قتل بعضهم البعض بلا سـبب. كنا نتخيل أن الله سـوف يأتـي ليزيح كل هذه الفوضى العارضـة من طريقنا ويؤدب المخطئيـن. كأب يعـود مـن عملـه فيكتشـف أن أبنـاءه كانـوا يلعبون بالكبريت - في غيابه - وأنهم قد بدأوا في حرق وسـائد أسـرّتهم لكنه سـوف يعيد النظام. انتظرنا أن يأتي لنسـتمر في حياتنا. لنستأنف ما كنا نفعله. لتسـتأنف أمـي حديثها مع جارتها ولانتظـار عمار ليطلب يدي

t.me/qurssan

من عمي ولاستكمال التلاميذ دروسهم ولتتمة المسلسل الجديد الذي كانت إذاعته قد بدأت للتو. لكن لأن الله لم يتدخل فكّر البعض في أنه ليس موجودًا أو أنه موجود لكنه يعاقبنا على شيء نجهله. ولما كنا أبرياء.. كنا أبرياء أكثر مما يلزم.. رغم اجتماعات النميمة التي تديرها النسوة ليلة الخميس ورغم أن بائع البقالة كان يغش في الأسعار ورغم أن صبي الحجار كان يدخن الحشيش سرّا ورغم أنني حملت من عمار دون زواج.. كنا أبرياء تمامًا ولهذا ظننا أن الله يقسو علينا. ظننا أن الله يكرهنا لسبب لا نعرفه. ربما كَرِهنا من طول الإقامة معنا. ملّنا. وإلا لماذا يسمح بأن يحدث لنا كل ما يحدث. نحن وحدنا؟

حتى الذين فروا من الجنون كتب عليهم الله الشتات. نصف عائلتي في لبنان ونصفها في مصر. حين فكرنا في الرحيل كنا محاطين بالجنون من كل جانب. لم يكن أي من البلاد أقل جنونًا مما صرنا إليه. الله! أين أنت يا الله!

كان الضوء في الخارج قد بان. كان ضوءا أزرق كابيا لكنه كان ضوءا في النهاية. نظرتْ أولجا للساعة. اقترحت أن ندخل لننام ساعتين قبل أن نبدأ نزهتنا. وابتسمنا رغمًا عنا حين تذكرنا باها. قبلتُها شاكرة. نظرت لي بامتنان. طلبت مني الذهاب فكان عليها أن تصلي أولًا. فكرت في أن أتوضأ لأصلي أنا أيضًا لكني شعرت بالخجل. أولجا كانت ودودة للغاية وكانت - على عكس المتدينين - متسامحة لكني لم أشأ المبالغة في اختبار تسامحها. سبقتها إلى الداخل. وبدأت

t.me/qurssan

في التفكير في ميشيل. كنت أعرف أن علاقتنا سوف تنتهي كما تنتهي كل الأشياء وكنت أرغب في أن أنهيها بنفسي قبل أن يُرسل لي رسالة كرسالة عمار ثم يكتفي بورقة مزورة.

- "وأنت" قالت أولجا وهي داخلة فانتبهت.

- "أين عشيقك؟!" سألت أولجا ربما لتغيير الموضوع. كنا امرأتين على شفا الانهيار ونبحث عن طوق نجاة أو خلاص من هذه الليلة كي ننام.

- "لم نمارس الجنس منذ ستة أشهر ولا أعرف إن كان ذلك يجعله لا يزال عشيقي أم لا" قلت.

- "يا صغيرتي الجنس لا علاقة له بالعشق.. أنت تفكرين كالباريسيات".

منذ وصلت بازل والجميع يراني كباريسية. في البداية عرفت أنهم يصفوني بهذا الوصف لأني نادرًا ما كنت أتلبس مبتسمة.

- "المسألة لا علاقة لها بباريسيتي.. المسألة أن الجنس والعشق كلمات ليست في قاموسي كامرأة عربية.. تلك أشياء مشوشة بالنسبة لي.. حين أقنعني أبو ابنتي بالنوم معه فعلت ذلك كي أجعله راضيًا.. كان يمكن لعمار أن يطلب مني القفز في البحر وكنت لأقفز فقط لأرضيه.. إرضاء الرجال كانت المهمة التي تعلمنا أن الله خلقنا كنساء من أجل القيام بها.. وعدني عمار بالزواج وكان هذا الوعد كافيًا

t.me/qurssan

للسماح له بأن يفض بكارتي.. كان وفيًا لدرجة أنه أرسل لي ورقة وقال إنها شهادة منه بأن الطفلة التي أنجبتها ابنته.. تلك الورقة كانت أكثر ما يمكن أن يقدمه عمار.. وأكثر ما يمكن أن يقدمه رجل.. في بلادنا نحتاج لشهادة موثقة لكي يكون الجنس مسموحًا به.. أتعرفين يا أولجا؟.. لم أنم مع ميشيل غير خمس مرات.. خمس مرات فقط طوال عام.. مرة واحدة فقط شعرت فيها باللذة.. لكن لأنه لم يمنحني وعدًا ولم يرسل لي ورقة شعرت أني عارية وأن الملائكة والشياطين يتطلعون إلى عريي بقسوة.. شعرت أني آثمة.. فقط لأنه لم يمنحني وعدًا ولا ورقة.. كان الوعد أو الورقة كافية لأن أنام معه دون الشعور بأني أغضب الله.. لكنه لم يفعل. كنت أتصور أني هربت من الشعور بالإثم كما كنت أتصور أني هربت من الله لكن يبدو أني لم أفعل".

- "الله ليس جلادًا يا صغيرتي" قالت لتطمئنني.

- "أحيانًا أتخيل أننا حين نقول الله لا نقصد الشيء نفسه" قلت يائسة.

- "سواء قصدنا الشيء نفسه أم لم نقصده فالله واحد.. الله ليس من هذا العالم" قالت بثقة كنت أتمنى لو كانت لي نصفها.

- "هل تحبينه؟" سألتْ أولجا.

- "لم أعد أعرف" قلت.

- "المرء إما أنه يحب وإما أنه لا يحب.. تلك أشياء تُعرف بالفطرة" قالت أولجا. ثم أضافت "أنت غاضبة.. والحب والغضب لا يمكنهما التصالح يا صغيرتي".

t.me/qurssan

- "لماذا أبدو غاضبة؟".. سألتُ.

- "لا أعـرف.. لكـن لك وجها غاضبا.. على أية حـال المرء دائمًا ما يغضب لسبب ما".

- "عليـك وحـدك اكتشـاف أسـباب غضبـك حتـى لا تصوبـي غضبـك نحو العالم ونحو الجميع.. لو لم تكوني غاضبة من صديقك فلا تقتليه بغضبك.. ابحثي عن الشخص الذي يستحق القتل أكثر فاقتليه.. لا أقصد القتل بمعناه الحقيقي فعلا.. أنتِ تفهمينني؟!".

- "أفهمك جيدًا".

- "إن كان صديقك هو السـبب تخلصي منه وإن لم يكن فلا داعي لأن تقسـي عليـه وتعرضيـه للظلم" قالت ذلـك وبدأت فـي التثاؤب. كانت ما زالت تضع شعرها المستعار وأدركت أنها بانتظار أن أستغرق فـي النوم حتى تتمكن مـن خلعه. كانت بريئة للغاية حتـى أنها لم تنتبه إلى أني لو صحوت في أية لحظة قبل صحيانها فسـوف أعرف سـرها. تظاهـرت بالنـوم أنا أيضًـا. أدرت ظهري لها وواجهـت النافذة. كانت النافذة أيضًا بلا ستائر. في الخارج كان الضوء كابيًا وكانت نتف الثلج تتسـاقط. عطلة الكريسـماس بـدأت الآن مـا يعني أن شـوارع باريس سـوف تمتلئ بالمحتفلين في المسـاء. تذكرت قصيدة لشـاعر مصري كانت تقول اثنان لم يحتفلا بعيد ميلاد المسيح.. أنا والمسيح.

- "بذكر القتل" قالت أولجا وهي تتثاءب. "ما رأيك في أن نشـترك في قتل فرنسيس؟".

t.me/qurssan

قالت ثم انفجرت في الضحك كطفلة. ضحكت أنا الأخرى. يبدو أننا التقطنا طوق النجاة الذي نشدناه.

- "لماذا يستسلم لك فرنسيس بهذه الصورة؟.. كان صوتك مسموعًا في الخارج يا أولجا.. أنتِ كنت تسبينه وكان مستسلمًا لك" قلت بسعادة.

- "لأنه يهودي قذر.. اليهود نوعان يا صغيرتي.. نوع طيب ويموت سريعًا مثل كافكا والآخر قذر ويعيش طويلًا لإيلام الآخرين مثل فرنسيس".

- "تقصدين كافكا الكاتب؟".

- "نعم.. كان يمكن أن يكون يهوديًا قذرًا آخر مثل فرنسيس لكنه كان يحب ميلينا كما أنه كان مريضًا".

- "من هي ميلينا" سألتُ بفضول.

لم أقرأ لكافكا غير رواية وحيدة لم أفهمها جيدًا. وفي معهد المسرح دُعيت إلى مسرحية كان بطلها رجلًا يتحول إلى صرصور. كانت مسرحية بائسة حتى أننا ظللنا نضحك حتى اضطر الممثل لوقف العرض في منتصفه.

- "من هي ميلينا؟".

- "امرأة أنقذته من أن يكون كفرنسيس. كان يحبها حتى أنه أحب كتفها الأيسر".

t.me/qurssan

لـم أفهـم فالتفتُ إلـى ناحيتهـا. كانت قـد أعطتني ظهرهـا. لكنها أضافت.

- "هـو كتب ذلك في إحدى رسـائله لميلينا.. أنـا أحبك حتى أني أحب كتفك الأيسر".

قالت وهي تتثاءب. فكرت أن أسـأل ميشـيل إن كان يحبني لدرجة أن يكـون قد أحـب كتفي الأيسـر. كان الضوءُ خافتًا فـي الخارج الآن لكنه كان ضوءًا كافيًا ليمنحنا السكينة. كانت النافذة بلا ستائر. وكانت شـقة أولجا تطل علـى ميدان فكانت رؤية السـماء ممكنة. ومن خلال نتف الثلـج وعلى صوت الأجراس التي بـدأت معلنة بدء عيد الميلاد كان يمكنني رؤية وجه الله مطلًا بالأعلى.

t.me/qurssan

10

دخلنا كافيتريا محطة القطار بانتظار موعد قطارنا. ليلي متحمسة جدًا لمفاجأة أمها. في الطريق للمحطة طلبت أن تشتري لأمها هدية. مررنا بالمانور. تحيّرت ليلي بين المعروضات. في النهاية استقرت على شراء ماكينة شواء الكستناء. قالت "أمي تحب الكستنة". لم أفهم، فأعادتها بالفرنسية ثم حاولت تعليمي طريقة قولها. كانت المرة الأولى تقريبًا التي أسمع فيها ليلي تتحدث بالعربية. أخبرتني أنها تعلمت بعض الكلمات من جدتها. جدتها في بيروت خصصت وقتها كله مع ليلي لتعليمها كلمات ضرورية في العربية. قالت إنها يمكنها تعليمي تلك الكلمات في طريقنا لباريس. ليلي اختارت ماكينة الشواء وأصرّت على أن تدفع للبائع ثمنها بنفسها. أما أنا فاشتريت لها شوكولا موتزارت من ميركور.

كنا جالسين نأكل دونات حين رأينا زيلما داخلة وهي تتلفت باحثة عن مقعد فيما يبدو. كان يمكن تجاهلها لولا أن نادت عليها ليلي، هذا قبل أن تقول ببراءة وحماس "صديقتك يا ميشيل". زيلما كانت مرتدية فستانها الأزرق وعلى كتفيها حقيبة ملابسها المنتفخة. كانت

t.me/qurssan

تبـدو غريبة بهذه الهيئة. الفسـتان كان يليق بسـهرة في بـار، وبأية حال لا يمكـن ارتـداؤه في محطة قطار فـي منتصف النهـار! زيلما، كما لو قرأت أفكاري، بعد أن سلّمت وقبلتنا كأصدقاء قدامى، جلست وقالت بصوت متعب من كثرة السهر والشراب.

- "أنا في طريقي للّحاق بحفل من أجل الكريسـماس في باريس.. خفت أن أتأخر ففضّلت السفر بالفستان".

كانـت حجة معقولـة لكن الحقيبة التـي تعلّقها علـى كتفيها بالكاد كانت تكفي لملابسـها الداخلية. فهمت أن زيلما تتنقل بنفس الفستان طوال الوقت.

- "هل لك أصدقاء في باريس؟" سألت ليلي.

- "لا.. لكـن لا بـأس.. سـوف أتعرف علـى البعض فـي الحفلة" قالت زيلما.

- "يمكنـك المجيء معنا.. نخطط أن نفاجـئ أمي" اقترحت ليلي فتدخلّتُ.

- "لا يمكـن يـا ليلـي" قلـت بصلافة.."لزيلما خططهـا الخاصة" أوضحت.

لـم تعلّـق زيلما ويبدو أن ليلي اقتنعت لأنها لم تعقّب. كنت أشـعر بالإحراج. ليس لدينا ما نقوله أنا وزيلما كما أنني لا أرغب في الكلام. زيلمـا كانـت غريبة الأطـوار وكنت لا أحـب التعامل مع الأشـخاص

t.me/qurssan

الذين يشبهونها. يبدو أن زيلما شعرت بموقفي لأنها أخبرتنا أنها سوف تشرب قهوة ثم تتركنا. قالت ذلك بنبرة توسّل. كانت تريد شرب القهوة ويبدو أنها لم تكن تملك ثمنها. حين رأيتها داخلة كانت تلفت حسبت أنها تبحث عن مقعد لكن يبدو أنها كانت تبحث عن شخص يمكنه دفع ثمن فنجان من القهوة، والآن وجدَته. طلبتُ لها فنجان قهوة ولي فنجانًا ولليلي شوكولا ساخنة، وقررت بيني وبين نفسي ألا أقرضها مالًا إن أعادت طلبها. مالًا نعرف كلانا أنه لن يُرد. ظللنا نشرب القهوة ونحن صامتون. ليلي كانت - بانتظار أن يبرد مشروبها لتستطيع شربه - تُراقبنا دون أن نلحظ. فجأة هتفت ليلي:

- "أنتما متخاصمان؟". ابتسمنا. زيلما بدا عليها الإحراج الشديد.

- "بالنسبة لليلي فالناس إما أنهم أصدقاء وإما أنهم متخاصمون" شرحت. اكتفت بهز رأسها.

زيلما كانت غريبة. حين باتت في غرفتنا منذ أيام كانت تبدو صلبة. وحين طلبت مني المال في الصباح كانت تنظر لي متوسلة لكنها كانت صلبة أيضًا. كانت قوية وبدا أنها لا تخاف شيئًا. الآن تبدو مكسورة رغم أنها في طريقها للاحتفال. لم أشأ أن أسألها. كنت أود التخلص منها بسرعة على أية حال. كنت أرتشف رشفات سريعة من قهوتي كما لو أني أحرّضها على أن تنهي قهوتها بسرعة.

- "شعرك جميل يا زيلما" قالت ليلي فشكرتها زيلما برقة.

t.me/qurssan

انتبهت الآن إلى أن زيلما غيرت لون شعرها. في الأوتيل كان شعرها ملفتًا. كان أشبه بغطاء رأس من القطيفة الشقراء. الآن تغير لونه وصار أحمر. زيلما أيضًا ترتدي نظارة سوداء. حين دخلت تتلفت لم تكن تبحث إذن عن مقعد ولا عمّن يدفع ثمن قهوتها لكنها كانت تتهرب من شخص ما. استنتاجاتي سرّبَت لي شعورًا بالقلق. كانت الآن تُفرّج ليلي على صورها على الموبايل. ليلي كانت تقف جوارها. زيلما وليلي ضحكتا مبتهجتين بينما كان القلق يدفعني لقتل إنسان. زيلما شدت ليلي لتجلس على حجرها. شعرتُ بقلق أكبر. لو صدقت استنتاجاتي فربما كانت ليلي في خطر. كيف سمحت لشخص لا أعرفه بالمبيت في غرفتنا؟ حمدت الله أني لم أنم ليلتها. حاولت تذكر إن كنت قد غفوت لكني لم أتذكر. أغلب الظن أن زيلما كانت تخطط لشيء ليلتها وكانت تضمر شرًا. انتظرتُ طوال الليل حتى أنام ولما وجدَتني صاحيا قررتْ المضي والبحث عن ضحية أخرى. عليّ الآن أن أنقذ ليلي منها. ربما كان لقاؤنا الآن ليس مصادفة كما ادعت. ربما كانت تراقبنا طوال الأيام الماضية. ربما افتعلت الآن لقاءنا. ربما كان لها شريك موجود في المكان وكانت تبحث عنه. بانفعال شديد جذبت ليلي من على حجر زيلما. ارتبكت زيلما وبدت ليلي غاضبة. اضطررت للادعاء أني فعلت ذلك تجنبًا لمضايقة زيلما.

- "أنا لا أضايقها" قالت ليلي وهي توشك على البكاء. "أليس كذلك؟" سألت زيلما. زيلما شعرت بالحرج فقامت.

t.me/qurssan

- "سوف أذهب للحمام وأعود" قالت زيلما.

ليلي مدت يدها تعطيها الهاتف بضيق لكن زيلما سمحت لها بأن تشاهد الصور لحين عودتها. نظرت لي ليلي معاتبة وحركت كتفيها ففهمت ما تريد قوله. طالما تركت لي هاتفها فأنا بالتأكيد لم أضايقها. وجدتُها فرصة لمشاهدة صور زيلما. كنت - بعد أن تقمصت شخصية المحقق كونان - أريد خيطًا يقودني لاكتشاف الجريمة والشخصية الغامضة التي صبغت شعرها بالأحمر وأخفت وجهها خلف نظارة سوداء. كانت الصور كلها لزيلما وأغلبها كانت متخذة فيها مظهر النجوم. يبدو أنها صُوّرت بكاميرا مصورين محترفين. زيلما كان لها جسد جميل، وفتي، وطلة جيدة، وكانت تجيد النظر بإغواء. في الصور بدّلت زيلما لون شعرها وتصفيفه مرات كثيرة فعرفت أنها ترتدي باروكات. كانت لم تظهر بعد حين وجدتُ حقيبتها بجواري على الأرض. بخفة لص فتحت سحّاب الحقيبة قليلًا ثم دست يدي فيها وأنا أترقب ظهورها. لم يكن في الحقيبة غير أوراق.. أوراق فحسب. تشجعت أكثر ففتحت فتحة كبيرة. لم يكن في الحقيبة سوى بعض الغيارات الداخلية كما توقعت وزجاجة عطر وبعض أدوات الزينة. الانتفاخ الذي بدت عليه الحقيبة لم يكن بسبب الملابس كما يمكن لأي شخص أن يظن. الانتفاخ كان بسبب النقود التي تمتلئ بها الحقيبة. كانت الحقيبة ممتلئة بأوراق نقدية أغلبها مكرمشة وكثير منها مطوية. من كل الفئات تقريبًا. ومكتنزة بلا عناية. كانت أشبه بحصالة كبيرة لم تُفتح بعد. رأيت زيلما قادمة فأغلقت الحقيبة بسرعة. كانت

t.me/qurssan

ليلـي ما تزال تتفرج على الصور فادعيت أني أشـاركها الفرجة بنصف اهتمـام. جـاءت زيلمـا وفي يدهـا فطيرة دانش. جلسـت وهي تشـير بالفطيرة.

- "سـمحت لنفسـي بأن أشـتري فطيـرة" قالـت. "كنـت جائعة". "وأخبرت الرجل أن يضيف ثمنها على حسابك" أضافت بخجل.

- "لا بأس" قلت.

مدت يدها لليلي بحلوى. نظرت لي ليلي مسـتأذنة. سـمحت لها. نظرتُ في الساعة المعلقة على الجدار.

- "علينا أن نمضي الآن يا زيلما.. اقترب موعد قطارنا" قلت.

- "هل يمكن أن تركب معنا؟" سألت ليلي.

- "لا.. علـى الأرجـح سـوف تسـتقل زيلمـا نفس القطـار ولكن فـي درجة غير درجتنـا" أوضحتُ لليلي. زيلما هزت رأسـها موافقة. أخرجَـتْ تذكرتهـا من جيبها كما لو أنها تتأكد مما قلته. هزّت رأسـها مـرة أخرى. أخرجت من جيبي مبلغًا قـدرت أنه أكبر مما ينبغي دفعه. وطلبـتُ من زيلما أن تنوب عني في دفع الحسـاب. فهمت زيلما أني أرغـب في تـرك البقيـة لها. لم يكـن مبلغًا كبيـرًا على أية حـال لكنها نظرت لي بامتنان. قمـت ورفعت حقيبتي على كتفي وصندوق جهاز الشـواء. زيلما قبّلت ليلـي ونظرت لي نظرة اعتذار. شـعرت بالضيق الذي تسببت لي فيه وأرادت أن تعتذر. تسرب لي شعور بالشفقة على زيلما فجأة.

t.me/qurssan

- "إلى أين تذهبين يا زيلما؟" سألتُ. قبل أن تقول إلى باريس أوضحت سؤالي "لا يبدو أنك كنتِ في طريقك لباريس حين التقينا أول مرة" وأضفت "أنتِ قادمة أيضًا من السويد فيما أعتقد.. أقصد أنك قطعتِ مسافة كبيرة ويبدو أن مسافة أخرى كبيرة تعتزمين قطعها".

- "أنا ذاهبة إلى أمريكا" قالت بحماس. قالتها كما لو أن أمريكا تلك في نهاية الشارع.

- "أنا ممثلة.. أقصد.. أريد أن أصبح ممثلة.. أقصد أني مثلت في السويد.. أدوارًا تافهة لكنها كافية لأعرف أني ممثلة" قالت مندفعة.

- "أتقصدين أنك خرجت من السويد للذهاب لأمريكا؟" سألت مندهشًا.

- "نعم" قالت ببساطة.

- "ولماذا لم تسافري من السويد لأمريكا مباشرة؟".

- "لم يكن معي المال الكافي.. يمكنني أن أحصل على تذكرة من باريس بنصف ثمنها لو أني سافرت من ستوكهولم". نظرت حولها بأسف "وعدني صديق أن يأتي لتوديعي لأني طلبت أن يقرضني بعض المال لكنه لم يأت.. ربما تعطل في زحام الطريق".

قالت بطريقة كافية لتجعلني أصدق. تخليت لتوي عن شخصية المحقق كونان. وعن شخصية الرجل المتشكك الذي يسيء الظن بالآخرين. كانت صادقة. صدقها لم يكن يحتاج إلى دليل. كانت

t.me/qurssan

مهووسة أخرى من مهووسات هوليود. كان يمكنني مساعدتها في العمل في الستوديهات الفرنسية من خلال معارفي القدامى. لكن لا أمل ولا رجاء في حمقاء تفضّل هوليود على باريس. لا أمل ولا رجاء في شخص لا يفهم في الفن.

- "انتظراني هنا" طلبت منهما أن تنتظراني في مكانهما.

طلبت ألبير. كان لقاؤنا الأخير مزعجًا لكن لا بأس. حكيت له قصة زيلما باختصار. كان يمكنه أن يؤمن لها وكيلًا في أمريكا على الأقل حتى لا يصبح قطعها كل هذه المسافة مغامرة غير مضمونة.

- "مؤكد أنها جميلة يا ألبير.. لا لم أنم معها ولن أفعل.. إنها في نصف عمري يا ألبير.. وفي نصف عمرك أيضًا إذا ما أردت مني أن أذكرّك.. كما أن لي صديقة.. لا يا ألبير ليست من النوع الذي يمكن أن أسميه بالسمكة الطازجة.. لكنها تحتاج لمساعدة.. ألبير باسم تاريخنا القديم لا تذكر هذا الأمر مرة أخرى.. هي فقط فتاة مجنونة التقيتها صدفة وتحتاج لمساعدة فقررت أن أساعدها.. هذا كل ما في الأمر.. لو أنك لا ترغب فلا تهتم.. يمكنني اللجوء لشخص آخر.. لا يا ألبير.. لن يمكنني إرسال صورها الآن.. يمكنك أنت مهاتفتها أما أنا فلن أطلب منها إرسال صورة لشخص لا يرغب في مساعدتها حتى يتأكد من أنها سمكة طازجة.. لماذا تضحك يا ألبير.. أنا أقلدك لتكتشف كم أنت شخص وقح وبغيض.. أووو.. نعم يمكن وصفها بالفاكهة الطازجة إن أردت.. لكنها ليست بالطبع كسمكتك الإيطالية.. حسنًا..

t.me/qurssan

حسنًا.. لا لم أغضب.. حسنًا.. سوف أعطيها رقمك.. لكن أرجوك يا ألبير.. افعل شيئا محترما واحدا قبل أن أتهور ذات مرة فأقتلك طالما أن أحدًا لم يفعل حتى الآن".

عدتُ لزيلما. أخبرتها أني كلمت صديقًا يمكنه أن يساعدها. شكرتني بامتنان مبالغ فيه. قبّلتني وقبّلت ليلي عدة مرات حتى اضطررت لمنعها. أعطيتها مئة يورو إضافية فكادت ترقص من الفرح.

- "علينا الانصراف الآن.. اطلبي ألبير فور وصولك باريس.. ولا تنتقلي لأمريكا إلا إذا حصلتِ على فرصة.. على فرصة حقيقية يا زيلما" قلت مشددًا.

- "أعدك" قالت ثم قبلتني مرة أخرى. ودعناها وذهبنا لنبحث عن رصيف القطار.

"أنت رجل جيد يا ميشيل" قالت ليلي.

كان القطار قد تحرك لتوه وبدأ في الخروج من المحطة التي تشبه صندوقًا زجاجيًا. نظرتُ لليلي وكانت تنظر لي نظرة فخورة.

- "لماذا تقولين ذلك؟" سألت.

- "لأنك رجل جيد. أنت تساعد الناس. جدتي قالت إن الرجل الجيد هو الذي يساعد الآخرين" قالت ليلي بحماس.

- "لكني لا أساعد الآخرين بالقدر الكافي يا ليلي.. أنا فقط أعمل ما يلزم فعله".

t.me/qurssan

- "لا" أشاحت بكفيها الصغيرين. وأكدت. "ماما أيضًا قالت إنك رجل جيد لأنك تساعد الآخرين".

- "متى قالت ذلك؟" سألتُ باهتمام.

- "حين كنا في بيروت.. كانت جدتي تسألها عنك فقالت إنك رجل منيح لأنك عم بتساعد الناس.. وحين سألت جدتي عن معنى كلمة منيح قالت إنه الشخص الجيد".

ابتسمتُ بسعادة. شعرت أن تمرير اللطف لزيلما - والذي تسميني ليلي بسببه رجلًا جيدًا - قد مُرر إليّ. ها هي عالية تقول إني رجل جيد. هذا كاف بالنسبة لي. على الأقل لا ترغب في الانفصال لأنها اكتشفت مدى السوء الذي أنا عليه. ما زالت تراني رجلًا جيدًا. هذا حسن. لكن لماذا تقول إني أساعد الآخرين؟ لا أظن أني ساعدت أحدًا مساعدة حقيقية. أنا أعامل فقط الناس باللطف الذي يستحقونه. أعاملهم بالطريقة نفسها التي يعاملونني بها. ولا أظن أن استضافة كلب الرجل في الطابق الثالث أثناء سفره يستحق أن يوصف بمساعدة الآخرين. أو السماح للجارة العجوز بالاتصال من هاتفي بابنها بعد أن نسيت مفتاحها في شقتها يمكن أن يوصف بمساعدة الآخرين. كانت مبالغة من عالية بالتأكيد. لكن على الأقل قالت إني رجل جيد. بدأتُ في التفكير بنفسي كرجل جيد لمجرد أن عالية وصفتني بهذا الوصف لكن هذا لم يكن كافيًا. كنت - فيما يتعلق بعالية - أستحق أكثر أستحق على الأقل أن أوصف بأني رجل محبوب. بأني رجل تحبه

t.me/qurssan

أو على الأقل بأني رجل يحبها. ذلك أقل ما كنت أستحقه لكنه كان كافيًا. الرجل الذي يحبني يا أمي. حتى لو لم تذكر اسمي. كان يكفيها الإشارة لي بالرجل الذي يحبني يا أمي. مع من تعيشين يا ابنتي؟ مع الرجل الذي يحبني يا ماما. وهل هو رجل جيد يا ابنتي؟ هو الرجل الذي يحبني يا ماما وهذا يكفي. كان ذلك كافيًا.

- "ميشيل.. لماذا لم تتزوج أمي؟" سألت ليلي.

- "لم نتكلم في الأمر بعد يا لي".

- "ومتى تتكلمان؟".

- "حين يكون لدينا رغبة في الكلام عن الأمر".

- "ومتى يصبح لديكما رغبة في الكلام عن الأمر؟".

- "هذا شيء لا يمكن التكهن به يا لي".

- "ماذا يعني التكهن بالشيء؟" سألت بفضول. كانت كلمة تسمع بها لأول مرة.

- "أن تعرفي الشيء قبل أن يحدث.. كما في نشرات الجو.. يقال إن درجة الحرارة سوف تنخفض غدًا.. سوف تتكون السحب صباح الخميس.. سوف تهطل الثلوج ليلة عيد الميلاد.. هكذا".

- "ألا توجد نشرات للزواج؟" سألتْ فضحكتُ. بالأحرى نصف ضحكة أو ربما أقل. كنت ما زلت مشغولًا بما قالته عالية لأمها بخصوصي.

t.me/qurssan

- "توجد نشرات لكل شيء يا ليلي عدا الزواج والحب".

صمتت ليلي بعدها. نظرتُ نحو الجبال المغطاة بالثلوج خارج النافذة. كان العالم أبيض في ذلك الحين. كما فستان زفاف ضخم يغطي كل الجبال والتلال والسهول. لماذا لم أفكر في الزواج من عالية؟ هل كان الزواج ضمن الأشياء التي كان ينبغي التحرر منها؟ حين طلقتُ أدريان لم أكن أفعل ذلك للتحرر من الزواج نفسه ولكن للتحرر من أدريان. للتحرر من أنانيتها ونوبات غضبها ومن خيانتها. أما في وجود عالية فأنا لا أشعر بمثل هذا الشعور بضرورة التحرر. مع عالية أشعر بأني حر باستثناء التعلق بها. لكن التعلق بعالية ليس من بين الأشياء التي تزعجني. لقد استسلمت لها كما يستسلم المرء لتبدل الفصول، لبرودة الجو، لسقوط الأمطار، لازدهار النباتات، لسحر نظرة الموناليزا. مع عالية أشعر بالخفة التي كنت أرغبها. كنت كمن يطفو على سطح الماء مستسلمًا لحيث تأخذه المياه حتى لو انتهى بالغرق. كنت أغرق في حب عالية طواعية. أستسلم لحضور لا يسلبني حضوري. حتى لو انتهيت غرقًا فلم يكن بمقدور الماء إلا احتوائي فحسب.

- "ميشيل.. من أين أنا؟" سألتْ ليلي.

كنت شاردا فانتبهت على صوتها. كانت امرأة في عمر أمي تجلس أمامنا ويبدو أنها قد تبادلت وليلي الحديث دون أن أنتبه. كانت امرأة سويسرية على ما أظن. أخرجتْ من حقيبتها بعض الحلوى وأعطتها

t.me/qurssan

لليلي. كانت في طريقها لزيارة أحفادها في ميونخ. حين ذكرتْ ميونخ أخبرتها بحرج أنها - فيما يبدو - قد استقلت القطار الخاطئ.

- "هذا قطار باريس" قلت متألمًا من أجلها.

نظرتْ خارج النافذة بفزع وهي تضرب صدرها بكفيها ثم سرعان ما هدأت.

- "لا هذا قطار ميونخ" أشارت إلى الخارج. وقالت بثقة شريرة "هذا هو الطريق إلى ميونخ".

كنت واثقًا من أنها مخطئة. نظرت إلى الخارج بالاتجاهين. كانت الجبال والتلال والسهول هي نفسها من الجانبين. كانت الحياة تبدو متماثلة في الجانبين كما لو أننا ننظر لمرآة. لم يكن في مقدور المرأة معرفة وجهة القطار بمجرد النظر إلى خارج النافذة حتى وإن كانت عالمة في الجغرافيا. نظرتُ لها بثقة ممزوجة بالشفقة. كانت عجوزًا ولم تعد تعرف الكثير. تجاهلتْ المرأة نظرة الشفقة واستدعت رجلًا كان يجلس في الناحية الأخرى ويستعد للاستسلام لقيلولة مؤقتة.

- "سيدي.. إلى أين يتجه هذا القطار؟!" سألت بابتسامة واثقة فأربكتني.

كنت أستعد لالتقاط مشهد صدمتها بتحدٍّ حين أجاب الرجل بصوت خامد: ميونخ. نظرتْ لي المرأة بشعور مزهو بالانتصار. لم نكن في معركة لكن العناد الذي سرى بيننا للحظات قسمنا إلى

t.me/qurssan

نصفيـن: جبهـة منتصرة وجبهـة مهزومة. كنـت في الجانـب المهزوم الذي عليه إعلان الاستسـلام لأن استمرار المعركة لم يكن ممكنًا بعد الآن. اسـتعدت لحظات قصف باريس من قبل الألمان كما شـاهدتها فـي فيلـم وثائقـي. كان الرجـل والمرأة قـد تحالفا من أجل إسـقاطي وإجباري على الاستسلام. سحبتُ ليلي وذهبنا إلى العربة التالية. كان أمامنا ساعات قبل أن يتوقف القطار لكني لم أرغب في الاستمرار في رؤيـة المـرأة العجوز ولا حليفهـا. كنت أفر من وجودهمـا فراري من المـوت أو إعلان الهزيمة. بحثنا عن مقعدين لنـا. كانت العربة ممتلئة بسبب الأعياد. سـحبتُ ليلي وذهبنا إلى عربة أخرى، ثم عربة أخرى، كنا في طريقنا لنهاية القطار كما لو كنا سوف نقفز منه حين وقفت ليلي بغضب وهي تنزع كفها من كفي بقوة لا تناسـب عمرها. حسـبت أنها فعلت ذلك لأني - دون أن أنتبه - كنت أجرها وأفر بها بقسـوة، لكني اكتشفت أنها فعلت ذلك لأنها أرادت أن تسألني مجددًا.

- "من أين أنا يا ميشيل؟".

كنت تائهًا في تلك اللحظة. لم يكن بإمكاني مساعدتها. أنا الرجل الجيد الذي يساعد الآخرين.

t.me/qurssan

11

أصـر باها على أن نبـدأ جولتنا من أمام الجامـع الكبير في باريس. سـمعت أولجا تصيح فيه في التليفون لأن المسـافة بين الجامع الكبير وبين الأماكن التي نُخطط لزيارتها كانت طويلة لكنه تشـدد بخصوص هذه المسألة. لا أعرف لماذا استسلمت له أولجا. كانت كأمي مشدودة الوتر حين تغضب لكنها تلين كالماء بسهولة. ارتديت ملابسي فلامتني أولجا لأني أرتدي حذاء لا يناسب الرحلة. لم يكن معي حذاء رياضيّ فأعارتني حذاءها. لم أصدق أنه سـوف يدخل في قدمي حتى وضعتها داخلـه. اتصلتُ بميشـيل كما اقترحتْ أولجا ولم أسـأله عن ليلي كما طلبت مني. قالت إنني يجب أن أقول له عيدًا سعيدًا لأن الناس في عيد الميـلاد يقولون ذلك لبعضهم البعض ففعلـت. أغلقت الخط وكدت أحطم رأسها من الغيظ. ميشيل رد ببرود شديد. لم يسعده اتصالي كما توقعـت أولجا. حتـى أنه لم يرد بالقول عيد سـعيد بـل أعطى الهاتف لليلـي كما لـو كان يريد التخلـص مني. على أية حال سـمعت صوت ليلي وطمأنتني على نفسـها. قالت إنهـا تمضي وقتًا جيدًا. كانت باردة أيضًا. شـعرتُ بالقلق على علاقتـي بليلي. تعلّقها الزائد بميشـيل مثّل خطـرًا كبيـرًا على علاقتـي بها كأم. طلبـتُ من ميشـيل أن يأتي بها في أقرب وقت فوافق دون مناقشة.

t.me/qurssan

خـرج باها من الجامع سـعيدًا لأننـا وافقنا على طلبـه. كان يرتدي طاقيـة على رأسـه مما توزع عـادة في الجوامع. نظرت لـه أولجا بغيظ أمومي.

- "سـوف تمرض.. يجب أن تغطي رأسـك بشـيء أفضل من هذا الشـيء". احتـج باهـا كطفـل يريـد أن تكف أمه عـن معاملتـه كطفل. كانـت علاقتهمـا تبعث علـى السـعادة. رفض باهـا خلع غطاء رأسـه الإسلامي. كما رفض - ببراءة - أن تلمسه لأنه "متوضئ". لم تندهش أولجـا لكنهـا عنّفتـه لأنها - كما قالـت - في عمر أمه. كنـت أتابعهما وأنا مبتسـمة وأشـعر أن العالم يمرح. اقترحت أولجا أن ندخل لنتفرج علـى الجامـع. كان جامعًا كبيرًا وأنيقًـا للغاية. في الطريـق بحثت عنه على الإنترنت فاكتشفت أنه بني تقديرًا للشهداء المسلمين الذين ماتوا أثناء دفاعهم عن فرنسـا فـي الحرب العالمية الأولى. كان السـائحون يأتون لزيارته كما يذهبون لزيارة قوس النصر. أخبرتها أني لن أستطيع دخول الجامع الآن. همسـت في أذنها بأن دورتي الشـهرية بدأت هذا الصبـاح فتفهمت. طلبـت أن ننتظرها حتى تنتهي مـن الزيارة وقبل أن تتركنا طلبت مني أن أنتبه لباها كما لو أنها تعهد لي بطفل. نظر لها باها بغيظ ساخرًا.

- "طيبة أولجا.. بس يهودية" قال باها.

- "وشو دخل يهوديتها" سألت.

- "أقصد إنها طيبة بس هتدخل النار" أوضح باها.

t.me/qurssan

- "بالذمة لو المسألة بإيديك راح تزج أولجا وفرنسيس في النار لمجرد إنهم يهود؟" سألت فبدا له أن منطقي صحيح لكنه بدأ في استعادة دروسه الدينية من ذاكرته.

- "حسابهم على عملهم بياخدوه في الدنيا.. لكن في الآخرة هيدخلوا النار" أجاب بطريقة واثقة. لم يهزه منطقي إذن.

- "لكن إن جيتي للحق.. الولية دي ما تستاهلش النار أبدا" أضاف فجأة ثم عطس فتذكر ملامة أولجا. استسلم. خلع طاقيته وارتدى غطاء رأس صوفيًا كان يضعه في جيب الجاكت. خرجت أولجا وكانت تغطي رأسها بطرحة بيضاء ربما أهداها إليها أحد بالداخل. وهي تعبر الشارع نحونا لم يكن ممكنًا التفريق بينها وبين الخارجات. اقترحت أولجا أن نذهب مباشرة إلى البانثيون. باها احتج وطلب البدء من اللوفر لأنه يريدني مشاهدة القسم المصري القديم. أولجا أصرت لأن اللوفر يكون مزدحمًا للغاية أيام العطلات وسوف يضيع اليوم في طابور لعين. بدا أنه اقتنع لكنه شعر بالأسف مع ذلك. تحركنا لنركب الباص. في الطريق سألت باها عما جاء به لباريس.

- "دي حكاية طويلة قوي" قال ولم يبدأ في حكايتها على عكس طبيعته الشخصية. فهمت أنه لا يرغب في الكلام فلم أسأل.

كانت أولجا مشغولة بحثّنا على السير حتى لا نتأخر فلم تشاركنا الكلام. في الباص تقمص باها دور المرشد السياحي. كانت لديه خبرة كافية ومعلومات كثيرة عن كل شيء. كل شارع عَبر الباص

t.me/qurssan

بـه كان لـدى باها ما يقوله عنه. كان يشـير يمينا ويسـارا طـوال الرحلة ليخبرنا أن سوقا للعاديات موجود بالقرب من هذا الشارع وأن مسرحا قديمـا يقع فـي نهاية ذلك الشـارع ومن هنـا يمكننا الانعطاف لشـارع قريـب من الشـانزليزيه. بعد فترة صرخت فيه أولجـا ليصمت. نظرت لي بتعجب.

- "لا تصدقـي أيًـا من تلك الخرافـات.. هذا الولد لا يعرف شـيئا أبدا.. هذا الولد قدم لباريس من شهر واحد فقط".

احتـج باها وطلب مني أن أخبرها عـن المصريين. الحقيقة لم أكن أعرف شـيئا عن المصريين بخلاف أنهم مسـليون. لـم أزر مصر أبدًا. لكـن أغلب الذيـن لجـأوا إليها من السـوريين تركـت لديهـم انطباعًا جيـدًا. ومع هذا لم تخل سـيرة المصريين من شـخصية فكاهية تدعى أبـو العريـف. ابتسـمتُ ولـم أرد. نظر لي باهـا غاضبًـا واعتبر صمتي تواطؤًا مع أولجا ضده. اتهمني بأنني لسـت "بنت بلد". سـألته إن كان يفهـم معنى بنـت البلد فقال كلامًا سـاذجًا عـن "الرجولـة". ترجمتُ لأولجا فاستنكرت وصف بنت بالرجولة لمدحها.

- "كان الناس في مصر - كما في سـوريا - إما أجانب وهو ما كان يعني محتلين في الغالب وإما أبناء البلد. ابن البلد كان مصطلحا يطلق على سـكان البلـد الأصليين لتمييزهم عن الأجانـب ولا علاقة له أبدًا بمدى الرجولة أو حتى الأخلاق" شرحت لباها ولأولجا. بدا باها غير مقتنع لكنه هتف مع هذا ساخرًا.

- "يعني فرنسيس دا يتقال عليه ابن بلد يا جدعاااان".

t.me/qurssan

ضحكتُ بشدة وترجمتُ لأولجا فضحكتْ. كان باها ذكيًا بقدر كاف ليلتقط مفارقة أننا كلنا أجانب في هذا البلد. وأن فرنسيس هو الوحيد ابن البلد. تذكرتُ ميشيل. ضايقني أن يكون ميشيل في صف فرنسيس فحاولت تبديل رأيي لكن لأني كنت غاضبة من ميشيل بسبب مكالمتي له هذا الصباح تركته في صف فرنسيس لينال عقابًا.

وصلنا البانثيون. ونحن نازلون من الباص قال باها إننا في الحي اللاتيني. كان يريد قرينة على معرفته بباريس وأحيائها. لم تعترض أولجا هذه المرة. كان البانثيون يطل على برج إيفل وعلى كنيسة نوتردام.

- "زرت هذه المنطقة من قبل" قلت. زرتها مع ميشيل.

- "الرجل الذي كتب قصة نوتردام مدفون في هذه الكنيسة" وأشار لكنيسة في القرب ونحن سائرون.

- "عم بتقصد فيكتور هوجو؟" سألته.

- "هو هوجو دا.. مدفون في الكنيسة دي.. أصله كان مسيحي" قال باها فضحكتُ.

لا أعرف إن كان فيكتور هوجو سوف يرضيه وصفه بأنه شخص مسيحي أم لا. درسنا رواية البؤساء وأحدب نوتردام في مدرسة الإرساليات في سوريا. كان هوجو جمهوريًا لكنه كتب ضد الظلم الاجتماعي الذي نتج عن الثورة. وبعد الانقلاب عليها هرب إلى

t.me/qurssan

بروكسل وبريطانيا ثم عاد لفرنسا في نهاية حياته. كنت أستعيد دروس المدرسة ولا أعرف إن كان ما تذكرته صحيحًا أم أن ذاكرتي خانتني لكن الإشارة إلى هوجو كمسيحي كانت غالبًا لتبدو طرفة سخيفة أو ربما إهانة بالنسبة له. وفكرت في أننا كلنا أشخاص هاربون.

كانت الساحة أمام البانثيون مزدحمة للغاية. فنانو الشارع احتلوا أغلب الأماكن. في كل ركن كان يمكن مشاهدة تحلق للبشر حول أحد العازفين أو الذين يقدمون عروضًا للسحر. في ركن كان يجلس أحدهم في الهواء كما لو أنه يطير. كان ممسكًا بعمود معدني لكن هذا لم يكن كافيًا أبدًا للتعلق به. كان يحرك ذراعيه وساقيه باستمرار لإقناع جمهوره بأنه يجلس في الهواء فعلاً. بعض الوقوف كان يمرر ذراعه أسفل جلسته ليتأكد من عدم وجود خدعة. وكان عدم وجود خدعة يزيد الحضور حماسة لهذه القدرة الخارقة. وقفنا أنا وأولجا منبهرين. حاولنا أيضًا تمرير ذراعينا أسفله لكن بالفعل لم يكن هناك شيء. باها وحده كان واقفًا بعيدًا غير راغب في مشاركتنا هذا الانبهار. كان يشعر بالحرج لوجوده وسط ناس تنطلي عليهم خدعة ما. خدعة بدا كأنه الوحيد الذي يعرفها. حين بدأنا في لومه شرح لنا الخدعة. هذا الرجل يجلس على مقعد معلق في العامود بذراع معدنية يغطيها بكم ملابسه. لم نصدق باها. اتهمته بأنه يغار من هذا الرجل لأنه سرق منه جمهوره. جمهوره الذي كان - في تلك اللحظة - أنا وأولجا فحسب. استفز باها اتهامه بالغيرة. فجأة ذهب خلف الرجل ورفع ملابسه فظهر الكرسي المعلق بالعامود. ضحك الواقفون جميعًا وغضب

t.me/qurssan

الرجل بشـدة لأن باها حرمه من جمهوره وأكل عيشـه. باها سـرق كل جمهور الرجل والذي كان يعني - الآن - كل الناس وليس أنا وأولجا فحسب. كان يمكن لباها أن يبدأ عرضه الآن وأن يحصل على بقشيش كثير لو أنه أراد. لكن باها اكتفى بالسير نحو نوتردام باستعراض. كانت أولجا تنظر له بإعجاب لكنها لامته بشدة لأن الرجل لن يستطيع العودة لأطفاله بثمن عشائهم.

- "عليه أن يعمل إذن بدلًا من أن يجلس في الشـارع طوال اليوم.. لـو كنت مثله لبقيت في مصر.. لكني رجل جـاد أعمل بعرق جبيني". بدا منطق باها معقولا هذه المرة.

فـي نوتـردام وجدنا طابـورًا طويلًا مـن الزائرين فعرفنـا أن دخولنا مسـتحيل. باها لم يكن متحمسًـا أيضًا واقترح أن نذهب لنجلس على السـين. نزلنا درجًا لأسفل النهر. كان مزدحمًا لكن كان الجلوس على الأرض ممكنًـا. جلسـنا فأخرجـت أولجا مـن حقيبتها ساندوتشـات لا أعـرف متى قامت بإعدادها. يبدو أنها اسـتيقظت قبلي بفترة طويلة. نمت ساعات قليلة لكنها كانت كافية لتعويضي عن الأيام التي لم أنمها والتي بدأت منذ سـفري لبيـروت تقريبًا. كانـت آلام القولون تجعلني صاحيـة أغلب الوقت. لم تنجح الحبوب التي كان ميشـيل يعطيها لي في تخفيف الألم. سـأل صديقًا يعمل كاستشـاري فأخبره أن المشكلة ليست عضوية. لم أكن أحتاج لاستشاري كي يخبرني بذلك. بدأنا في الأكل. سـأل باهـا إن كان هناك لحـم خنزير فأخبرته أولجـا أن اليهود

t.me/qurssan

أيضًا لا يأكلون الخنزير. لم يكن يعرف ذلك فاندهش. أخبرته أولجا أن اليهود أيضًا - مثل المسلمين - يختنون أبناءهم فشعر بالخجل خصوصًا في وجودي. اقترح باها - طالما أن اليهود لا يأكلون الخنزير ولا يشربون الخمر - وتجنب ذكر مسألة الختان - على أولجا أن تُسلم فابتسمت.

- "أن تكون يهوديًا لا يساوي أن تكون مسيحيًا أو مسلمًا يا باها.. نحن شعب ولسنا أتباع ديانة كديانتك.. على أية حال شكرًا على الدعوة.. سوف أفكر في الأمر يا باها.. أكمل طعامك". قالت أولجا. كانت تسخر بالطبع لكن باها يبدو أنه صدقها فشعر بالحماس كان كنبي صغير يستقبل أول المؤمنين به. صمت قليلًا وشرد ثم قال باشمئزاز:

- "بقى هو دا بقى نهر السين؟" ثم أضاف "دي الترعة في بلدنا أكبر منه". نظرت له أولجا مستفهمة فترجم ما قاله.

- "كل الأنهار جميلة يا باها". "لكل جماعة نهرها.. وكل جماعة تحب نهرها كما لو كان أجمل الأنهار" قالت أولجا.

- "لكن النيل غير يا أولجا.. لو زرته لفهمت معنى كلامي.. النيل غير" قال باها بحنين ممرض.

- "لدينا نهر جميل يدعى باريزينا.. على ضفافه مات أكثر جنود نابليون أثناء انسحاب جيشه من روسيا.. الفرنسيون أصبحوا

t.me/qurssan

يستخدمون اسمه بديلًا لكلمة مصيبة.. أهاننا ذلك فترة طويلة.. ليس بحسب لأنه طعن في جغرافيتنا لكن لأن النهر كان جميلًا ولم يكن يستحق مثل هذه الإهانة" قالت أولجا فبدا أن الحنين أصابها هي الأخرى.

تذكرت نهر بردي. لم يكن نهرًا لو قارناه بالنيل أو بالسين. كان مجرى مائيًا نحيفًا. قبل مغادرتي سوريا كانت هناك شكوى من احتمال جفافه بسبب التعديات عليه. كانت دمشق تُعرف بمدينة الأنهار السبعة لكنها الآن كانت على وشك خسارة آخر أنهارها. ومع هذا أصابني الحنين كعدوى. لكنني لم أكن أعرف إلى أي شيء يمكن أن أشعر بالحنين. لبلدتي أم لدمشق أم لبيروت أم لبيت ميشيل في بازل. كان المكان الوحيد الذي أشعر بالحنين تجاهه الآن هو قبر أبي. تذكّر قبر أبي أثار آلام قولوني مرة أخرى. خطر على بالي أن القبر قد يكون أصابه القصف فشعرت أن أبي قد مات للمرة الثانية. فجأة وجدتني أبكي. قمت مسرعة. كنت لا أريد البكاء في حضن أحد. كنت أريد البكاء في حضن أبي فحسب. لكن أبي كان بعيدًا جدًّا، أبعد حتى من المسافة بين الموت والحياة.

لكي لا يراني أحد وأنا أبكي ظللت سائرة. كانت الشوارع مزدحمة كأنه يوم الحشر. رغم البرودة ورغم أن الثلج لم يتوقف عن الهطول. اندسست وسط الجموع. ظللت أسير فيما بين الناس حتى لا يلحظني أحد. بكيت حتى جفت عيناي. كنت أشتاق لأبي.. لأمي.. لليلي..

t.me/qurssan

لكني أيضًا كنت أشتاق لسريري. بالأحرى اشتقت لسرير. سرير ما. سرير ما يخصني في غرفة تخصني في بيت يخصني. في أي مدينة حتى لو مدينة في الجحيم. حتى لو مدينة خيالية. كان ينقصني سرير وغرفة فقط.

- "استني" سمعت باها ينادي. توقفت. التفت له. كان يلهث من التعب. وقف وأسند ذراعيه على ركبتيه.

- "حرام عليكي.. تعبتيني يا شيخة". قال باها. يبدو أنه اتبعني منذ تركتهم. ظل يراقبني من بعيد. كدت أفلت منه عدة مرات لكنه استطاع إيجادي في كل مرة. ألحت عليه أولجا وهو يمضي خلفي أن يتركني حتى أهدأ. حين بدا له أني هدأت قرر إيقاف هذه المطاردة.

- "أنا آسفة يا باها" قلت معتذرة.

- "يلا بينا نرجع لأولجا". وقفت أنظر له. كنت مترددة. كنت أشعر بالخجل. تصرفت بطفولية. ما كان ينبغي أن أتصرف على هذا النحو. وقف باها مستفسرًا إن كنت سوف أعود معه أم لا. كنت أحتاج لأن يتصرف أحد بدلًا مني. أردت أن يجذبني أحد من يدي ويقرر لي. كنت محرجة من العودة محرجة من البقاء. لم أجد بديلًا للعودة مع باها فعدت معه.

- "إيه اللي عيّطك" سأل باها باهتمام وليس بفضول.

- "عم اتذكرت شي" قلت. لم يكن كافيًا لباها أن أخبره بذلك.

t.me/qurssan

- "أيوه اللي هو إيه يعني؟.. فضفضي أحسن.. الحزن لما بيتقسم ببقى أخف" قالها ببساطة لكنها كانت أكثر حكمة مما تحتمل شخصية مثل شخصية باها. تصورت أنه سمعها في مكان ما واستعارها. ألح في أن أخبره بما سبّب بكائي. كان يمكنني إخباره أني تذكرت أبي وكفى. هذا سبب معقول فضلًا عن أنه سبب حقيقي. لكن لسبب ما لم أخبره. وجدتني أحكي له حكاية أخرى. حكاية ما كنت أحسب أني سأتذكرها.

- «الأسبوع الماضي وأنا راجعة من السفر كان عندي ترانزيت بمطار اسطنبول.. كان فيه كتير سوريين بالمطار.. بظن إنو معظمهم كان رايح عالقاهرة وبعضن كان رايح على أوروبا.. صرت أسمع أحاديثهم وفكر بقديش عبئي يلي عم نعيشه.. واحد شاب كان عم يحكي مع رفيقه وعم يقول له: لوين بدي أرجع هلأ؟ ما ضل حدا بإدلب.. يلي مات ويلي سافر ويلي اختفى.. لوين بدي روح؟".

يبدو أن باها قد تأثر لتأثري. رغب في قول أشياء للتخفيف عني لكن حكمته خذلته. كنا قد اقتربنا من أولجا التي تجلس على الأرض مهمومة. نظرت لها نظرة معتذرة. قالت إنها كانت تخاف أن أسرق حذاءها. ضحك باها.

- "كدا تاخدي الجنسية المصرية يا أولجا". ضحكتُ.

مدت أولجا يدها تطلب مساعدتي لكي تقوم. مدت لي يدها. قامت بخفة. لم تكن تحتاج مساعدتي. اقترحت أن نعود للبيت.

t.me/qurssan

رفضت بشـدة. لم أكن أرغب في أكون سببًا في إفساد نزهتهما. أولجا أصرّت. قالت إنها تعبت من السـير والزحام. دعت باها للذهاب معنا والاحتفـال في البيت. لم يتردد باها لكنه اشـترط أن يقوم هو بالطهي. قال إنه سوف يطعمنا طعامًا مصريًا. تحمست أولجا. بدأنا في المضي. وفي الباص لم يجد باها مقعدًا جوارنا فجلس بعيدًا. أولجا ربتت على كتفي بحنو بالغ.

- "منـذ اسـتقراري فـي باريـس، وبعد موت ألكسـندر قـررت ألا أعيـش كمهاجرة، قررت تبنـي الفظاظة الباريسـية.. أن أصبح "لئيمة" قـدر المسـتطاع.. وعندمـا شـتمتني إحداهـن فـي المتـرو قائلـة لـي يـا فرنسـية، شـعرت حقيقـة بالفخـر. فـي الوقت نفسـه لعنـت الذين لا يعرفون أن بيلاروسـيا بلد آخر غير روسـيا. ولعنت باها مؤخرًا لأنه حين عرف أني يهودية ظنني إسرائيلية. لا أحد يعرف أني من بلد صغير ومسـجون في اليابسة ومطحون بالعرقية وفقد ثلث سكانه في الحرب وخسـر أكثـر يهوده لأنهـم هربوا من الألمـان ثم من الـروس. لا أحد يعـرف أن هـذا البلد الصغير التافه هو كل ما لـي تقريبا وأني - لولا أن إسـكندر قد دفن هنا - كنت أرغب في العودة قبل أن أموت. لكن لأن أحـدًا لا يعـرف كل ذلك فلا داعـي لمضغ الحزن. هنـا لا أحد يعرف الآخر ولا يهتم بمعرفته لهذا فالجميع سعداء".

كانـت أولجـا على حـق. في هـذا البلـد يمكننـي العيـش دون أن يلحظني أحد. مثلما غرقت منذ سـاعة فـي زحام المحتفلين وأنا أبكي

t.me/qurssan

فلـم يلحظني أحد. أردت أكثر ما أردت فـي هذه اللحظة أن أكون غير مرئيـة، لكنـي فكرت.. هـل العيش وأنا غيـر مرئية في مدينـة مزدحمة سوف يجعلني أقل حزنًا مما أنا عليه الآن؟ كنت حزينة، وكانت أولجا حزينـة، وباها في مكانه هناك كان حزينًـا، حتى ولو لم يعترف أي منا. نظرت مـن النافذة. كانت الألعـاب النارية قد بـدأت تُطلق بكثافة لأن المساء قد حل. كان الجميع سعداء كما قالت أولجا. كان الجمع يبدو سـعيدًا، لكن لسـبب ما شعرت أن كل شـخص.. كل شخص.. وسط الجمع.. كان حزينًا على طريقته.

كنا قد اقتربنا من البيت حين جاءني اتصال من ميشيل.

- "أين أنتِ؟".

- "في باريس".

- "أقصد أين أنت الآن بالضبط؟". كان سؤالًا غريبًا.

- "في طريقنا أنا وأولجا لبيتها.. لماذا تسأل عن عنوانها؟".

t.me/qurssan

12

"عزيزي ميشيل. أنت لست رجلًا وسيمًا فحسب لكنك أيضًا رجل مُلهِم. لا يمكنك تصور أثر كلامك. أتصور أنك ملاك من الملائكة الذين يهبطون إلى الأرض في أعياد الميلاد ليقدموا لنا يد العون. لن أطيل عليك. لقد اتخذت قرارًا لم أتخيل أن أفكر فيه في يوم من الأيام. كان لديّك حق. كنت أهرب فيما كان عليّ الرسو على مرفأ. بعد أن تركتك هاتفت خالي. لم أقابله في يوم من الأيام لكنه الشخص الذي أخبرني بموت أمي في تونس. هاتفته لأسأله لماذا اختارت أمي أن تموت في تونس بديلًا عن الموت بين يدي زوجها وابنتها. لقد قال لي عبارة واحدة. عبارة تصورت أنه كان يمكنك قولها أيضًا. لقد قال إن المرء يجد تعزية حين يُدفن في أرضه. عزيزي ميشيل. لقد اتخذت قراري. سوف أعود لتونس. ليس فحسب من أجل الصلاة عند رأس أمي لكن أيضًا من أجل البحث عن مرفأ للرسو. لعلي تلك القطة التي تجد على الجانب الآخر من الطريق ما لم تجده على جانبها. آه.. قبل أن أنتهي.. أذكّرك بوعدك لي.. سوف نلتقي بعد عشرة أعوام. سوف أحتفظ برقمك. أرجو ألا تبدله قبل مرور عشرة أعوام. سوف أكون مهتمة بمعرفة أين وصلت أنت أيضًا وعلى أي أرض رَسوت. وسوف تكون عجوزًا وضعيفًا وحينها سيمكنني اختطافك!

t.me/qurssan

ملحوظة: لسـت الوحيدة التـي كان ينبغي أن تبحث عن مرفأ. أنت أيضًـا روح قلقة يا ميشـيل. عِدني أن ترسـو قريبًـا. صديقتك نعمة. أو نيمو كما تفضل أن تقول".

فـي طريقنا إلى ميونخ حجزت تذكرتين للسـفر لباريـس بالطائرة. العـودة كل هـذه المسـافة بالقطـار كانـت سـتكلفني ضيـاع ليلـة عيد الميلاد. لم يكن الأمر سهلًا بالطبع. كانت فترة الأعياد ولهذا احتجت للاتصـال بصديق للتدخل مـن أجل توفير تذكرتيـن على خطوط Air Berlin. تعثرنـا في زحام السـير بين المحطـة والمطار لكننا وصلنا في الموعـد المناسـب. حين كنـا على الـدرج الكهربائـي الموصل لباب الطائرة وصلتني رسـالة نيمو. لو أنها رسـالة قصيرة على الأغلب كنت سـوف أؤجـل قراءتها لحين جلوسـي في الطائرة. لكن طول الرسـالة أثـار فضولـي وأشـعرني بالخطـورة. قرأتها فـي طريقنا لبـاب الطائرة حتـى أن ليلي اضطرت لإمسـاك يدي لتقودني بـدلًا من أن أقودها إلى داخـل الطائـرة. لكن بعد أن دخلنا الطائرة وقفـتُ لأنها لم تكن تعرف أرقـام مقاعدنـا. كنت لم أنتـه من قراءة الرسـالة بعد فسـمعت صوت رجل من خلفي يسـتعجلني. جلسـنا وكنت قرأت الرسـالة لكن كانت لـديّ رغبـة في إعادة قراءتها بهـدوء فقرأتها مرة أخـرى. وبعد قراءتها قررت ألا أسـتعجل في كتابة رد. كنت مشغولًا بالقرار المفاجئ الذي اتخذته نيمو. ولأني كنت من الأشخاص الذين لا يحبون نصيحة أحد ولا أن يلقـي عليهم الآخـرون نصائحهم ترددت في الـرد. كنت أيضًـا سـعيدا بأننـا أخيرًا في الطائرة المتجهة لباريس ولـم يكن واردًا أبدًا أن نكون في الطائرة الخطأ.

t.me/qurssan

نظرت إلى ليلي مبتهجًا لكنها كانت شاردة. يبدو أنها متعبة من كثرة التنقل. لديّها حق بالطبع. كانت الآن تشبه أمها أكثر من أي وقت. كان لها وجه غاضب. عالية اتصلت بينما كنا في الشارع نبحث عن تاكسي ليقلنا إلى المطار. كنت مشغولًا باستعجاله فتركت الهاتف لليلي التي أغلقت الخط بعد تبادل عبارات قليلة. حين ركبنا التاكسي سألت ليلي فقالت إنها فقط كانت تريد أن تقول عيدًا سعيدًا. كانت لفتة لطيفة من عالية. سوف نلحق بها إن حالفنا الحظ وسوف نمضي ليلة عيد ميلاد سعيدة. أعدت النظر لليلي. كانت لم تحرك ساكنًا. راقدة في هدوء ويكسو وجهها غضب. أخرجت بطانية الطائرة لتغطية ليلي لأن الجو يكون باردًا أكثر في الطائرة. كانت مستسلمة لي تمامًا.

- "حاولي النوم حتى تكوني مستفيقة حين نصل" قلت فلم ترد.

قرأت رسالة نيمو مرة ثالثة. كنت مبتهجًا ومتحمسًا للقاء عالية فأجلت الرد مرة أخرى. نظرت لليلي. لم تتغير. لم تغير طريقة جلوسها ولا التعبير الغاضب على وجهها.

- "ما بك يا لي؟" سألت.

- "سألتك سؤالًا ولم تجبني عليه" قالت.

- "أي سؤال؟.. أنا لا أتذكر أنك سألتني سؤالًا؟" قلت مستفهمًا.

- "حين كنا في القطار" قالت.

- "لي.. أنا لا أذكر.. مررنا مؤخرًا بأسوأ ما يمكن أن نمر به.. ما السؤال الذي سألتِه ولم أجبه؟".

t.me/qurssan

- "سألتك من أين أنا؟" قالت وهي تنظر نظرة متوسلة.

- "هذا سؤال غريب يا لي.. من أين أنت.. هذا يتوقف على الفكرة من السؤال.. عادة ما يكون السؤال لمعرفة موطن الميلاد.. وبالنسبة لك فإنك ولدت في سوريا.. أي أن إجابة سؤالك سوف تكون أنت من سوريا يا لي.. لكن هذا لا يعني أي شيء في حقيقة الأمر.. بالنسبة لي على الأقل.. هذا مثل أن تقرأي على قفص أحد الحيوانات في حديقة الحيوانات عبارة موطنه الأصلي كذا.. لكل منا موطن أصلي يا لي.. لكن هذا لا علاقة له بأي شيء.. هل تفهمينني؟.. سوف يكون متعذرًا فهمي وأنتِ في مثل عمرك.. عمومًا ما الغرض من السؤال؟.. ولماذا كل هذه الجدية من أجل سؤال لا معنى له مثل هذا؟".

سوف يكون متعذرًا فهمي وأنت في مثل عمرك! الحقيقة يا لي سوف يكون متعذرًا فهمي حتى وأنتِ في مثل عمري أنا! أخبرتك لتوي أشياء لست متأكدًا إن كانت صحيحة أو حتى إن كنت مقتنعًا بها أم لا. كانت عبارة موطنه الأصلي هذه نقرأها في حدائق الحيوان لكن ما الذي تعنيه العبارة؟ ماذا تعني إذا كان الحيوان نفسه من المحتمل أن يكون قد ولد في حديقة الحيوان نفسها؟ وهذا الحيوان الذي ولد في حديقة الحيوان ماذا يكون وقتها؟ إذا عاش ومات في الحديقة هل ذلك يجعل الحديقة هي موطنه؟ لماذا يطرح الأطفال على الكبار أسئلة يعجزون عن إجابتها؟ لماذا يا لي؟!

t.me/qurssan

- "المـرأة في القطار سـألتني.. قلت لها أنـا من هنا.. قالت لا أحد مـن هنا.. قالـت نحن في قطـار.. والقطار يقطع مسـافة بيـن مكانين" قالت ليلي.

- "هذه امرأة مخرفة يا لي.. امرأة مخرفة وشـريرة أيضًا.. ألم تري سعادتها لأننا كنا في القطار الخطأ؟!" قلت محتجًا.

- "ولماذا هي شريرة؟" سألت وقد زال غضبها وحل محله انفعال لا يمكن تحديد كنهه.

- "لأن بعـض الناس أشـرار يا لي.. بعض النـاس طيبون وبعضهم أشرار.. هذه الإجابة الصحيحة الوحيدة" قلت وزفرت زفرة ضجرة.

- "وهل أنا طيبة أم شريرة؟!" سألت ليلي ببراءة. احتضنتها.

- "أنـت لا يمكنك أن تكوني شـريرة يـا لي.. أنتِ بريئـة كالمطر" قلت مُطَمْئِنًا.

- "وكيف أحمي نفسي ألا أكون شريرة حين أكبر يا ميشيل" سألتْ بخوف.

- "لن تكوني يا لي.. لن تكوني".

- "أنا خائفة" قالت وبدأت في البكاء.

كانت مضيفة عجوز تمرر أطباق الغداء للراكبين حين شاهدت ليلي تبكي. سـألتني إن كانت تبكي لأنهـا تخاف ركوب الطائرات فأخبرتها أنها تبكي لأنها تخشـى أن تصبح شريرة حين تكبر. لم تبتسم المضيفة

t.me/qurssan

ما يعني أنها تعاملت مع خوف ليلي بجدية وكنت أود تحيتها على ذلك. أشارت لليلي قائلة إنها سوف تعود إليها قريبًا. بعد أن انتهت من تقديم الطعام عادت. كانت الأطباق أمامنا لم تمس. المضيفة طلبت من ليلي أن تقوم معها لتريها شيئًا. قامت ليلي. أشارت لي المضيفة أن أطمئن. لم يكن في وسعي ألا أطمئن ففعلت مستسلمًا. ذهبت معها ليلي. لم تكن لديّ رغبة في الأكل فأشرت لمضيفة أخرى. طلبت منها أن تأخذ طبقي وأن تحضر لي كأس نبيذ. قالت إن النبيذ الليلة مجاني بسبب أعياد الميلاد. شكرتها. كنت متوترًا للغاية. الأيام الأخيرة كانت غير محتملة. علاقتي بعالية. لقائي بزيلما. وألبير. ونيمو. تذكرت نيمو. أخرجت هاتفي لأرسل لها ردًا. كانت المضيفة قد جلبت لي كأس النبيذ وكان ذلك مناسبًا جدًا لكتابة رسالة جادة.

"عزيزتي نيمو.. الحقيقة لا أملك القول إن كان قرارك هو القرار الصواب أو القرار الخطأ.. الحقيقة قرار عبور القطة الشارع يحتاج لشجاعة كبيرة كما يحتاج لاستعداد كبير للمجازفة.. أنا شخصيًا لا أعرف إن كنت أمتلك مثل هذه الشجاعة أم لا.. لأنه يبدو أني قطة لم تغادر مكانها منذ فترة طويلة.. على أية حال.. اعتبري قرارك قرارًا من بين قرارات شجاعة كثيرة سوف يكون عليكِ اتخاذها في المستقبل.. نصيحتي.. إن كان لي أن أقدم نصيحة.. وعادة أكره تقديم النصائح أو سماعها.. كُوني مستعدة للإبحار في أي وقت.. إن لم تشعري بأنك رسوت أخيرًا على المرفأ الصحيح فاقفزي في مركب وعاودي الإبحار.. لا يفوت الوقت أبدًا من أجل هذا.

t.me/qurssan

ملحوظة: عبارة خالك لم يكن في مقدوري قولها أبدًا. أنتِ مخطئة في هذا. فالتعزية الوحيدة بالنسبة لي هي أن يموت الإنسان في هدوء، سواء كان في أرضه أم في أرض الشياطين.

ملحوظة أخرى: بعد عشر سنوات سوف أستسلم لاختطافك لي بالطبع. لأن الشخص الوحيد الذي سوف يكون حينها مهتمًا لأمري هو طبيبي!

أتمنى لك رحلة سعيدة وحياة أكثر سعادة. المخلص لك: ميشيل، أو ميشو كما أصررت على القول منذ لقائنا الأول أمام العجلة الدوارة لقاؤنا الذي لم نكف عن الدوران بعده".

قرأت الرسالة مرة أخرى قبل أن أرسلها. صحّحت بعض الكلمات. أردت أن تكون رسالتي دقيقة طالما أنها اعتبرتني ملهمها. خطأ بسيط في رسالة نبي قد يكلفها ثمنًا غاليًا. ضغطت لإرسال الرسالة. لم يعد الآن تصويب أي خطأ ممكنًا. أعدت قراءة الرسالة مرة أخرى. قرأت عبارة شعرت أن شخصًا ما دسها في رسالتي. عبارة وصفتني بقطة لم تغادر مكانها منذ فترة. لا أعرف كيف تسرّبت هذه العبارة للرسالة. هل وصفت نفسي للتو بأني قطة لم تغادر مكانها؟ كنت قد تنقلت عدة مرات في حياتي، ربما أكثر من الآخرين، أكثر حتى من ألبير الذي يبدل رأيه كما يبدل ملابسه. كنت فوضويًا في شبابي. فوضويًا كاملًا. ثم صرت اشتراكيًا. انضممت للحزب وكنت نشطًا فيه بحماس شديد. في فترة وجيزة صرت عضوًا مُهمًا كما صرت فنانًا تدفع الستديوهات

t.me/qurssan

مالًا كثيرًا لإرضائه. والآن أعتبر نفسي منعزلًا. انعزلت العمل والسياسة وكل شيء. ولولا عالية كان من المحتمل أن أكون الآن في جبال التبت. انتقلت من العيش في نيم للعيش في باريس للعيش في برن وها أنا الآن أستعد للذهاب لباريس وربما للعودة لنيم. عبرت الطريق مرتين على الأقل إذن. لماذا وصفت نفسي بأني قطة لم تغادر مكانها؟

هل يمكن للكتابة أن تراوغنا إلى هذا الحد؟ من الذي يكتب الآخر؟ هل تكتبنا الكتابة؟ تذكرت جاسمين. كانت بارعة في صناعة الأغاني. كنت أفضّلها أكثر من غيرها. كنا نشكل ثنائيًا مذهلًا. سألتها ذات مرة عن إحدى أغانيها لأن عبارة بدت غريبة جدًا ظهرت فيها. كانت نصف مشاعرها فقالت إن لها غيرة زرقاء. سألتها عن السبب فهزت كتفيها وبدت متحيرة. أثناء تنفيذ الأغنية سألها أحد الموسيقيين فقالت "لا أعرف.. لقد أُمليت هذه العبارة". لكنني لست كاتبًا. أنا مجرد شخص أراد أن يرسل رسالة لصديقته. ثم ماذا عن الكلام؟ هل نملى أيضًا الكلام الذي نقوله لبعضنا البعض؟ أحيانا كثيرة نقول أشياء لم نرغب في قولها. وأحيانًا نقول أشياء نرغب في قولها لكننا نقولها بالطريقة الخاطئة. لكن هذا أمر آخر. لا يشبهه كتابة عبارة ليست لك. أم أن تلك العبارة كانت لي؟ شعرت في هذه اللحظة كما لو أن العبارة رسالة مدسوسة داخل رسالة. كما لو كانت رسالة مرتدة ضمن رسالة مرسلة. لن أعتبر نفسي قطة لم تغادر مكانها لكني سأعتبر هذه الرسالة

t.me/qurssan

المرتدة مجرد إهانة عابرة. عابرة لكن لن يمكن لي التسامح معها ولا مع قائلها. كنت شجاعًا لعبور الطريق مرتين لهذا فإن وصفي بافتقاد الشجاعة هو أكثر الأوصاف إساءة.

عادت ليلي مع المضيفة. كسى وجهها تعبير مبتهج. لكني كنت متجهمًا وأشعر بالضيق. تمنيت لو كنت طفلًا كي تأخذني مضيفة معها لتريني شيئًا يمكنه أن يزيل عبوسي. لم أسأل ليلي عن سبب ابتهاجها. كانت مبسوطة وهذا يكفي.

وصلنا مطار شارل ديجول. حين خرجنا كان الجو باردًا للغاية. سرت في جسدي رعشة. سألت ليلي فقالت إنها تشعر بالدفء. طلبت تاكسيًا وركبنا. كانت متحمسة للمفاجأة التي نعدّ لها منذ الصباح والتي كاد خطأ بسيط أن يفسدها. فجأة سألتني عن جهاز شواء الكستناء. أصدرت كلمة غاضبة غصبًا عني حتى أن سائق التاكسي نظر لي في مرآته. لم يكن من اللائق التلفظ بلفظة كتلك أمام طفلة لكن ماذا أفعل وقد نسيت الجهاز في الطائرة!

- "لقد نسيته يا لي.. أنا آسف.. لقد نسيته في الطائرة" قلت بأسف شديد.

- "ألن يكون في مقدورنا العودة" سألتْ دون غضب.

- "سوف يضيع الوقت في الطريق يا لي" قلت متوسلًا ألا تطلب عودتنا للمطار.

t.me/qurssan

- "ليس مهمّا.. سوف نخبر أمي وهي سوف تتفهم" قالت بساطة.

- "سوف تتفهم نعم.. سوف تتفهم" قلت وكررتها كتميمة.

وصلنا شارع الشانزليزيه. طلبت من السائق أن يقف للحظات. كنت أعرف أن عالية في باريس وأنها تقيم في مكان قريب من دار النشر ما يعني أنها في مكان قريب من وسط المدينة. اتصلت بها.

- "أين أنتِ؟".

- "في باريس".

- "أقصد أين أنت الآن بالضبط؟". كان سؤالًا غريبًا لكن لا يهم.

- "في طريقنا أنا وأولجا لبيتها.. لماذا تسأل عن عنوانها؟".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

قطط برية

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

لـم تشـأ عاليـة أن تعتـرف لأولجـا بأنهـا سـعيدة لأن ميشـيل جاء خصيصًا ليشـاركها أعياد الميلاد. كانت - عادة - لا تعترف بسـعادتها بقدر مـا تحاول إخفاء حزنها. لم يفهم أحـد أن الوجه الغاضب لعالية كان بديلًا محايدًا لمشـاعر الحزن والسعادة. على أية حال تلك مسألة يمكن مناقشتها فيما بعد.

أولجـا - كسـيدة مجربة -لا يمكـن أن تخطئ السـعادة في العيون - عرفـت أن عالية سـعيدة- بخبرتها. ما فعله ميشـيل كان يسـتحق أن يكون سببًا للسعادة بالطبع فما فعله كان سيفعله ألكسندر لو أنه لم يعبر الشـارع في ذلك اليوم النحس. أولجا أيضًا شـعرت بسعادة مضاعفة، فمـن ناحية كانت تجاهد لتجعل عالية سـعيدة، ومـن ناحية فإن وجود ميشيل والطفلة في بيتها سوف يجعل الجيران يظنون أنها لم تعد امرأة عجوزًا وحيدة تبحث عن سلوى بتربية القطط. بمناسبة القطط: أولجا ظلت تربي قططًا فترة طويلة بعد موت ألكسـندر، لم تنقطع عن تربيتها غير الفترة التي حضرت فيها ماري لشـقتها لأن الأخيرة لم تكن تحب القطط، وهي فترة لم تتجاوز بضعة أشـهر لكنها كانت كافية لأن تعتاد أولجا العيش من غير صحبة. وبمناسـبة ماري: علاقتهما كانت معقدة

t.me/qurssan

للغاية لأنهما عبرتا الطريق وكل منهما كانت ترغب في شيء غير الأخرى. ماري كانت تبحث عن مغامرة أما أولجا فكانت تبحث عن ونس، لكن - للأسف - قَدَر المغامرة أن تنتهي، لأن استمرارها يجعل منها أي شيء آخر عدا أن تكون مغامرة.

ميشيل أيضًا كان سعيدًا لأنه أخيرًا سوف يلتقي عالية وسوف يشاركها احتفالًا صغيرًا بأعياد الميلاد. كان يضع ثقته في عيد الميلاد ويأمل أن يذيب الاحتفال بعض الجليد بينه وبين عالية. كان يفسد سعادته بعض الشيء شعوره بالذنب لأنه - نتيجة لخطأ بسيط - حَرَم ليلي من أن تقدم هديتها لأمها. ولم يكن من اللائق أن يشتري شيئًا من باريس ويخبرها أنه اشتراها من سويسرا، فهناك - مهما كان - حدود للكذب.

ليلي كانت سعيدة بالطبع. ليلي في الأوقات التي لا تلتقي فيها بامرأة ألمانية عجوز في قطار خاطئ تكون سعيدة. ولأنها الآن ليس من المحتمل أن تلتقي بامرأة ألمانية عجوز في قطار خاطئ فإنها تشعر بسعادة لا يعتريها شيء.

الوحيد تقريبًا الذي لم يكن سعيدًا باتصال ميشيل كان باها. ليس لأنه ليس من الأشخاص الذين يتمنون السعادة للآخرين ولكن لأنه سوف يُحرَم الآن من الصعود على مسرح السيدتين ليبدأ استعراضه. باها كان جالسًا في الباص بجوار النافذة وكان يفكر في الأشياء التي يجب شراؤها - والتي لن تكون بالتأكيد في مطبخ أولجا - لكي يعد

t.me/qurssan

لهما طعامًا مصريًا سوف يجبرهما على التصفيق مطولًا. ليس هذا بحسب بل إنه أعد قائمة بالنوادر التي سبق له تجربتها لكي يُجبر السيدتين الحزينتين على الضحك. باها كان حزينًا مثلهما وكان مثلهما يشعر بالحنين لكنه - على عكسهما - كان يرجع هذا الحنين لحين تحقيق ما جاء من أجله. إن شئنا الصدق، باها لا يعرف بالضبط ما جاء باريس من أجله، لكنه يفترض بأنه سوف يعرفه فيما بعد. كان عليه فقط البقاء أطول فترة ممكنة على قيد الحياة في باريس حتى يكتشف ما جاء من أجله، وكان في نيته أن يعود بعدها لبلده فخورا بالشيء الذي أنجزه - والذي لا يعرفه الآن لكنه يثق في أنه سيعرفه.

هبط الثلاثي بالقرب من بيت أولجا. عالية أملَت ميشيل عنوان أولجا مرتين في التليفون. ولأن ميشيل كان يرغب في عدم تكرار ركوب قطار خاطئ مرة أخرى ألحّ على أن ترسل له العنوان في رسالة نصية، وهو ما فعلته فعلًا. الحقيقة أولجا أصرت على كتابة العنوان بنفسها على هاتف عالية تفاديًا لأي خطأ محتمل قد يكلفهم سعادتهم. باها سأل عن أقرب محل بقالة. أولجا كانت تعرف أن أقرب -وأبعد- محل بقالة مؤكد لن يفتح أبوابه أبدًا في عيد الميلاد لكن لأنها تعرف طبع باها المُجادل واللحوح أشارت لمحل على بعد شارعين من البيت.

- "انعطف يمينًا بعد شارعين. وعند أول ناصية انعطف يسارًا. قف عند الناصية فإن لم تكن لافتة المحل مضاءة فلن يكون عليك المضي أكثر. تذكر فقط طريق العودة".

t.me/qurssan

قالـت أولجا وهي متأكـدة أن باها لن يجد اللافتـة ذات المصابيح الحمـراء مضـاءة. المحل الذي وصفـت طريقه لباها أغلـق أبوابه منذ شهور وغالبًا حل محله الآن محل ساعات - بحسب ما تتذكر - لكنها لم تشـأ أن تصف لباها المحل الذي صارت تشـتري منـه طلباتها هذه الأيـام لأنـه كان على بعد خمسـة شـوارع وكان الوصـول إليه أصعب وأعقد. وفي النهاية سوف يكون مغلقًا هو الآخر.

حين وقفتا أمام بيت أولجا شـعرت عالية بالقلق. قدّرت أن ميشيل سـوف يصل قبلهـا. كان تقديرًا خاطئًـا بالطبع لأنها لم تعرف شـوارع باريس بعد. ميشـيل كباريسـي سـابق كان يعرف أقصـر الطرق بين أي مسـافتين داخـل المدينة. سـائق التاكسـي الـذي ركب معه هـو وليلي أيضًـا كان يحفـظ شـوارع باريس كمـا يحفـظ ملامح زوجتـه عدا أن ملامـح زوجته كانت أبسـط لكنها أقـل نعومة. اتصلت عالية بميشـيل فعرفت أنه لن يكون هنا قبل عشر دقائق ولذا اقترحت أولجا أن يصعدا وينتظرانهمـا فـي البيـت. أولجـا رغبت فـي الصعود للبدء فـي إضاءة الشموع قبل وصول الضيوف.

- "لو أننا فقط كنا اشـترينا شـجرة عيد الميلاد يا صغيرتي!" قالت أولجا معاتبة نفسها.

أولجـا كانت صادقة في قولها. صحيح أن تعاليم دينها تحرّم عليها الاحتفـال بعيد الميـلاد. (وهذا لا دخل له أبدًا بفكرة أن اليهود هم من قتلوا المسـيح). لكن لأنها كانت - على عكس فرنسـيس - متسامحة

t.me/qurssan

مع الآخرين، فضلًا عن قدومها من بلد ظل تابعًا للاتحاد السوفيتي لفترة طويلة وهو ما جعلها لا تلتزم بهذه التعاليم في أي عام من أعوام حياتها. أولجا لم تندم فقط على عدم شراء شجرة لكنها أيضًا ندمت على أنها لم تشتر حلوى للطفلة. في بلدها وحين كانت طفلة صغيرة كان اليهود يشاركون المسيحيين عيدهم بتقديم الحلوى للصغار. الحقيقة تلك كانت من عادات المسيحيين التي رأى اليهود فيها - فيما عدا المتشددين - تصرفًا لن يغضب الرب.

فور دخولهما البيت بدأت أولجا في البحث عن الشموع، بعد أن اقترحت على عالية أن تذهب لغرفة النوم لتزين نفسها.

- "اخلعي الحذاء الرياضي الغبي هذا. لا يمكن لامرأة أن تنتظر حبيبها بحذاء رياضي. ضعي عطرًا. لا تضعي عطرًا من عطورك. ليس لأنها عطور سخيفة ولكن لأنه ليس من المعقول أن تكوني في باريس ولا تضعي عطرًا باريسيًا. على منضدة الزينة سوف تجدين عطورًا تخص ماري. ماري لم تكن تشتري إلا العطور الغالية والتي يشتق اسمها من كلمة إغراء".

عالية كانت سعيدة لكن ليس للدرجة التي تجعلها تتزين لميشيل. بحس الأنثى كانت تعرف أن تزينها سوف يسلب عقل ميشيل لكن بحس المرأة التي لم تتأكد بعد من رغبتها في الاستمرار في علاقتها بميشيل وجدت نفسها ميالة أكثر لعدم الاستجابة لنصائح أولجا. رفضت حتى أن تدخل لتغسل وجهها. عالية كانت عنيدة ولم يكن

t.me/qurssan

من السهل دفعها لفعل شيء لم ترتب هي لفعله، بالطبع باستثناء الفرار من الجنون.

- "إن لم تتعطري فسوف أتعطر أنا ولا تغضبي إن سرقت صديقك منك" قالت أولجا مداعبة. لكن مداعبتها لم تغير من موقف عالية.

أسفرت رحلة أولجا للبحث عن شموع أخيرًا. لم يكن الصيد ثمينًا لكن على الأقل سوف يدخل الضيوف فيجدون لديها شموعًا مضاءة فيعرفون أن البيت معد لاحتفال جماعي. رن جرس الباب فطلبت أولجا من عالية أن تفتح هي. ووقفت عن بُعد مترقبة مشهد لقاء الحبيبين. كانت ترغب في مشاهدة قبلة، فآخر قبلة تم تبادلها في هذا البيت مر عليها فترة طويلة. كان بيتًا محرومًا من القبلات - فكرت أولجا - لكنه - طمأنت نفسها - على الأقل مضاء بالشموع.

خاب أمل أولجا. كان باها مَن بالباب. دخل غاضبًا. ليس لأنه لم يجد المحل مفتوحًا ومن ثمّ لم يشتر شيئًا لعشائه لكن أيضًا لأنه أدرك خدعة أولجا. هجم عليها كما لو كان يعتزم خنقها وهي بدورها أفلتت منه بخفة كقطة لا ترغب في أن يحملها أحد. في النهاية استسلم لكنه لعنها في سره. لم يتصور أبدًا أن امرأة عجوزًا يمكنها أن تخدعه. كانت مصريته قد صارت على المحك الآن.

أخيرًا رن الجرس مرة أخرى. وقف باها وأولجا متسمرين وعيونهما على الباب. لم ترغب عالية في فتح الباب وهما على هذه الحال. كانت محرجة. لم ترغب في أن يتفرج عليها الآخرون وهي

t.me/qurssan

نحاول تجنب قبلة تعرف أنها ليس بمقدورها أبدًا تجنبها. رن الجرس مرة أخرى فاضطر باها للذهاب لفتح الباب فيما ترددت عالية بين التحرك لاستقبال القادمين - على الأقل من أجل ليلي - وبين الذهاب للوقوف بجانب النافذة التي - ككل نوافذ بيت أولجا - بلا ستائر.

لحسن حظ عالية أن ليلي انزلقت بخفة أسفل ذراع باها الذي فتح الباب والذي - دون أن يتعمد- ظل واضعًا ذراعه في طريق ميشيل كما لو كان يمنعه من الدخول. ليلي جرت على عالية بسرعة أكبر حتى من سرعة عالية لاستقبالها. في الوقت الذي قطعت فيه ليلي سبع خطوات كانت عالية بالكاد قد قطعت خطوة واحدة. وحتى بقياس الاختلاف بين خطوة الصغيرة وبين خطوة أمها سوف يكون اللقاء في صالح ليلي. لم يكن ذلك مؤشرًا بالطبع على حجم الاشتياق الذي نشعر به كل منهما للأخرى، فلو كان حساب الاشتياق بالخطوات التي يقطعها المرء للآخر لفاز ميشيل بالطبع بالجائزة الأولى في هذه الحالة. أي حَكم عادل كان يجب أن يأخذ حتى المسافة من بازل لبيرن بعين الاعتبار. صحيح أنها كانت مسافة في الطريق المعاكس لكنها قُطعت بنية حسنة من أجل إشعال جذوة حب أوشكت على أن تخبو.

في النهاية شعر باها بالحرج فأبعد ذراعه عن الباب. أخفى باها إعجابه بوسامة ميشيل حتى يحافظ على نجوميته - على الأقل أمام نفسه. سلّم ميشيل بود على باها دون أن يُقدّم أيٌّ منهما نفسه للآخر. باها تصور أن عالية حدثت ميشيل عنه فاعتبر ذلك كافيًا لإرضاء نزعة

t.me/qurssan

النجومية. أما ميشيل فلم يجد الأمر مهمًا طالما أن عالية كانت في انتظاره. أولجا لم تتحرك من مكانها وإن ابتسمت لميشيل عن بُعد مرحبة بود. كانت في انتظار القبلة وتمنت أن تكون أكثر من قدرتها على التخيل. تمنت أن تكون كقبلة ألكسندر. كانت تتابع الموقف كما نشاهد مشهدًا غراميًا يُقبّل فيه البطل البطلة فنشعر كما لو كنا نحن الذين قَبّلنا أو قُبّلنا - حسب موقفنا. لكن للأسف البطلة كانت خجولة للغاية. كانت خجولة فيما يتعلق بالحب بشكل عام. وجودها في أوروبا طوال الأعوام السابقة لم يُزح حجر خجلها ليحرر مشاعرها. طوال الأعوام شاهدت العشاق في كل مكان يتبادلون القبل، بل إنها رأتهم يمارسون الجنس علانية في حدائق سويسرا دون حتى أن يهتموا بتغطية مؤخراتهم. ومع هذا فإن الشيء الوحيد الذي استطاعت أن تتسامح معه هو تعرية ساقيها. لكن تعرية مشاعرها أبدًا لم تنجح في التسامح معه.

صحيح أن القُبلة التي كانت تتمناها أولجا لم تحدث لكن في نهاية الأمر قبلت بالحضن الذي نالته عالية. نالته عالية هي العبارة الصحيحة لأنها لم تشارك فيه كما كان من المتوقع أن يحدث. كانت كطفلة تستسلم - مجبرة - لحضن عم له لحية كالشوك.

برغم الشموع وبرغم النبيذ الذي أخرجته أولجا - والذي لم يكن باها يحتاجه لأنه لا يشرب - وبرغم الطعام الذي أعلنت أنه سوف يكون جاهزًا في غضون دقائق فإن ميشيل اقترح دعوتهم جميعًا على

t.me/qurssan

العشـاء. كان يرغـب في حفل بهيج يناسـب العيد ويناسـب المسـافة الطويلة التي قطعها. احتجت أولجا في البداية لكنها استسلمت فجأة. فجـأة تحول أداؤهـا لامرأة عجوز لم يعد يناسـبها السـهر وترغب في النـوم مبكـرًا. اقترحـت - الحقيقة أصـرّت - أن يتركا نيلـي معها لأن الأخيرة لن يمكنها تحمل السهر في مكان كهذا. لم يكن ميشيل قد ذكر أي مكان لكنها بخبرتها كانت تتوقع مكانًا من الأماكن غير المسـموح فيها بدخول أطفال. ميشـيل وافق. عالية أبدت اعتراضها. ليلي وافقت فقـد كانت ترغـب حقيقة في النوم بعد أيام مـن التنقل كطائر في رحلة شتوية. باها فكر بينه وبين نفسه: أي جانب سوف أُدفع إليه. كان يعرف أن رأيـه لا يهم أيًا من الأشـخاص الثلاثة (أو الأربعة إذا حسـبنا ليلي) الموجوديـن في البيت. عرف أخيرًا أن ليلته سـوف تنتهي وسـط امرأة عجوز وطفلة صغيرة وليس بالتأكيد وسط حبيب وحبيبة. وعلى سبيل الاحتجاج غير المباشـر على هذه النهاية أعلن أنه سـوف يذهب لبيته. كاد يلقـى حجة للذهـاب لكن يبدو أن أحدا لم يكـن في حاجة لحجة من باها.

- "تصبحون على خير" قال باها وتحرك باتجاه الباب.

حتى أولجا لم تعرض عليه البقاء. باها - في الخطوات التي خطاها تجاه الباب - شـعر كم هو خائب الأمل. شـعر أنه فقد لتوه فرصًا لأن يعيـش كباريسـي لبعـض الوقت. الغريـب أن الشـخص الوحيد الذي تحرك لإنقاذ فرص باها كان ميشيل. عالية شعرت بالحرج بالتأكيد من

t.me/qurssan

الخروج الغريب لباها لكن لم تبد أي رد فعل لحفظ ماء وجهه. أولجا كانت مشغولة أكثر بتدبير لقاء للحبيبين، أما ليلي.. فمن يلومها؟.. ليلي - دون أن تسأل أحدًا - ذهبت لأقرب مقعد وأسندت رأسها على كتفه وسقطت في النوم. وحده ميشيل الذي - رغبة في ألا يكون الشخص الذي جاء من ميونخ ليفسد على الناس تجمعهم الاحتفالي - أمسك بذراع باها كما يمسك أب بذراع طفل ليكون في أمان أثناء عبور الشارع.

- "انتظر يا عزيزي.. لا يمكنك الرحيل قبل مشاركتنا هدايا عيد الميلاد". قال ميشيل.

التقط باها طوق النجاة من يد ميشيل كما التقط من يده أيضًا علبة شوكولا موتزارت. باها لم يكن يعرف موتزارت، فالموسيقي الأشهر بالنسبة له كان بتهوفن لأنه - فقط وليس لأية أسباب أخرى - كان يعرف أسطورة صممه. ومع هذا وقع باها في غرام موتزارت حتى أنه - وحده - التهم نصف الشوكولا التي على شكل بيضة ومرسوم عليها وجه موتزارت. أولجا اعتذرت عن أكل موتزارت متحججة بالسُكّر. عالية شكرت ميشيل بمبالغة طفولية. ميشيل - بدوره - كافأ نفسه على فطنته. كان يعرف أن النساء - مهما كن غاضبات - يضعفن أمام الشوكولا. كانت تلك واحدة من الأشياء التي علمتها له نساؤه. كان ميشيل واقفًا في منتصف الصالة مبتسمًا. عالية التقطت قطعة شوكولا وأخذت في امتصاصها بهدوء ولذة جوار النافذة. أولجا ذهبت لجلب كؤوس لأن ميشيل فاجأهم أيضًا بزجاجة نبيذ فرنسي اشتراها من

t.me/qurssan

المطـار. أمـا ليلي فكانت مسـندة رأسـها كمـا هي على كتـف المقعد وغارقـة فـي النـوم. حين عـادت أولجا مـن المطبخ حاملـة الكؤوس ووجـدت أن باها قد التهم نصف علبة الشـوكولا صرخت في وجهه. شـعر باها بالحرج وترك العلبة من فوره. ميشـيل حـاول التدخل لكن أولجـا لـم تصرخ في باها لأنـه التهم نصف الهدايا ولكـن لأنها كانت تعرف أن شوكولا موتزارت بها كحول وأن باها لم يكن من المفترض أن يأكل شيئا ممزوجا بالكحول. باها حين عرف جلس واجمًا. وفجأة شـعر بأنه مخمور وبأن سـاقيه لن تحملاه هذه الليلة. وبدأ التفكير في احتراقه في جهنم.

علـى أيـة حال اتفق الجميـع على أن يمضيا بعـض الوقت في بيت أولجا قبل أن يفكروا في النزول. أولجا بسرعة أخرجت بعض الأطباق المجمدة والتي يسـهل تحضيرها في دقائق داخـل الميكروويف. بعد دقائـق بالفعل كانوا كلهـم متحلقين حول مائدة أولجـا التي أثبتت في هذه الليلة أن اتهام اليهود بالبخل هو محض دعاية من الجانب الآخر. باهـا - وكان نهمًـا لأكل اللحـوم - أكل مطمئنًـا لأنه عـرف أن اليهود لا يأكلون الخنزير، لكنه أصر على أن يبسمل ويحوقل قبل كل قضمة، وكان قـد اسـتبعد احتراقه فـي الجحيـم لأن الله لا يعاقب على سـهو الأكل من شوكولا موتزارت.

كـؤوس النبيـذ كانت من نصيب ميشـيل وعالية. باسـتثناء كأسـين ارتشـفتهما أولجـا بعد أن اعتـذرت وأكدت أنها تشـرب - بين الحين والآخـر - بسـبب أوجاع المعدة. باها اسـتعاد حضـوره بالطريقة التي

t.me/qurssan

كان يرغبها. حتى ميشيل الذي لم يفهم نصف دعابات باها شُوهد وهو يضحك بصدق. وبالقرب من جلوسهم كانت ليلي قد نُيّمت على الكنبة وغُطت جيدًا، وكانت في تلك اللحظات تحلم حلمًا سعيدًا.

الحقيقة أن الليلة كانت ليلة سعيدة على الجميع. ولأول مرة منذ فترة طويلة يجد كل منهم نفسه سعيدًا بهذه الصورة. أولجا بعد أن انتهوا من الطعام قررت تجهيز أطباق من الطعام الفائض لتهديه لجيرانها في الصباح وحضّرت كلماتها جيدًا.

"كانت لديّ رفقة جيدة في المساء يا ليتكم كنتم معنا".

كانت تريد أن تزيل من أعين جيرانها نظرتهم إلى امرأة عجوز وحيدة تستعد للموت.

على الجانب الآخر من النهر - وهذا ليس مجازًا لأن المقصود هنا الجانب الآخر من نهر السين - كان فرنسيس ساهرًا - في أحد الفنادق الكبيرة والتي يرتادها الأثرياء ونجوم المجتمع - مع المرأة التي وصفتها أولجا صباح الأمس بالعاهرة. تلك المرأة التي كانت عالية على وشك لقائها بعد العطلة لتحدد مصير عملها مع الدار. أو لتحدد مصيرها في باريس.

t.me/qurssan

2

ليل باريس قصير. وككل الأعمار التي تعاش في سعادة، أو تعاسة: بتنهي.

لكن ليل باريس - عشية عيد الميلاد - يبدأ في اللحظة التي ينتهي فيها عادة. ولهذا فإن ميشيل - وبعد أن انتهت السهرة لدى أولجا - جدّد دعوته للجميع، لكن أولجا - هذه المرة بصدق - كانت ترغب في النوم. أولجا في المساء تخلع شخصيتها القوية المدعاة مع شعرها المستعار وتصبح مجرد امرأة عجوز. باها اعتذر عن الدعوة لأنه - بحسب كلماته بالضبط - اكتفى من باريس كلها، رغم أنه لم يتعرف على باريس بعد. اعتذر عن الدعوة لكنه طلب - بلطف شديد - أن يرافقه أحدٌ لبيته. قال بلُغته التي لا تفهمها غير عالية إن ساقيه لا تحملانه. كانت مبالغة شديدة للغاية لأن أي شخص سليم وشاب لن يعتريه أي خطأ لمجرد التهامه بضع قطع من الشوكولا. لكن باها استسلم للوهم الذي سيطر عليه. نهاية السهرة تمنى أن يكون في هذه اللحظة في سريره.

ميشيل وافق على طلب باها لأنه فيما يبدو قد أحب باها، رغم أنه كان يرغب في ألا يُضيّع لحظة لا يكون فيها وحده مع عالية، ولحسن

t.me/qurssan

حظ ميشيل كان سرير باها على بعد عدة شوارع حتى أنهم لم يحتاجوا للبحث عن تاكسي. على أية حال لم يكن أي تاكسي متاحًا في ذلك الحي الذي تسكنه أولجا.

باها لم يتوقف عن لعن ساقيه اللتين لا تحملانه ولعن دماغه التي وصفها عدة مرات - أسفًا - بالخفيفة. لم يتحدث باها طوال الطريق بغير لُغته. الليلة أنسته شخصيته الافتراضية، التي كان بفضلها يعمل في مكتب فرنسيس، حتى أنه لم يهز رأسه مرة واحدة. أمام بيته - والذي في الحقيقة كان بيتًا للمغتربين وواحدًا من تلك البيوت التي تُؤجَّر غُرفها - احتضن ميشيل وعالية ممتنًا لهما مشاركته هذه الليلة السعيدة.

بعد توصيل باها، قدم ميشيل لعالية عرضين: قضاء الليلة معًا بالتنزه في حدائق توليري أو في أي مكان تقترحه، أو عبور النهر للقاء صديقه ألبير الذي كان يقيم حفلًا لبعض الأصدقاء في جناحه بالكريستال شانزليزيه. ترددت عالية قليلًا لكنها كانت تود أن تكون لطيفة فطلبت منه أن يختار عوضًا عنها. لكن ميشيل أصرّ. بعد لحظات من التفكير اتخذت قرارها بالذهاب لحفل ألبير.

على عكس ما يمكن أن يتوقع المرء، لم تختر عالية ذلك لأنها تتحاشى وجودها مع ميشيل بمفردهما، لكنها فعلت ذلك لأنها من ناحية كانت ترغب في رؤية ما لم تره في باريس، وأيضًا لمشاهدة ميشيل في وسطه الطبيعي من ناحية أخرى. منذ عرفت ميشيل عرفته كشخص طوباوي انعزالي حتى أن أي ذِكر لحياته الماضية كانت

t.me/qurssan

،منبره وهمًا مثل ثمالة باها بالضبط. كانت تشعر تجاه ميشيل شعور من اشترى قطة من متجر الحيوانات الأليفة وذهب بها لبيته متجاهلًا ان للقطة أمًا وبعض الأشقاء الذين سبقوها للوجود - أو لحقوا بها - بدقائق معدودة. أرادت هذه الليلة أن تعود بميشيل لأمه ولأشقائه لتراه على حقيقته. من حسن الحظ أن ميشيل كان يرغب هو الآخر في أن يلتقي رفاقه القدامى، فبعد لقاء ألبير السريع رغب في أن يختبر جدية قراره بالانعزال عن العالم. ميشيل كان عقلًا قلقًا، وميله للتفلسف جعله ذا مزاج ضجر أغلب الوقت.

ميشيل نظر في ساعته وفتر ذلك لعالية بأنه يتمنى أن يلحقا بالرفاق قبل أن يثملوا، وابتسم. ابتسامة لم تكن تعرفها عالية. ميشيل بدأ في استعادة حياته السابقة كمريض - بعد إجراء جراحة - ينسحب المخدر من وعيه تدريجيًا. عالية شعرت بالسعادة كأي شخص يشاهد عرضًا مسرحيًا جديدًا، ومسليًا. بالنسبة لعالية - التي اعتبرت لقاءها بأولجا بداية لتعرفها على العالم - أحست أنها في طريقها للتعرف على العالم من زاوية أخرى. عالية أحست أنها في طريقها لأن تكون بالغة. لكن ذلك لم يخل من بعض التوتر بالطبع، لكنه توتر فتاة تسقط قطرات أنوثتها الأولى لكنها مستوعبة أنها لم تُجرح.

استقلا تاكسيًا لأن الأوتيل كان أبعد من أن يتحملا الوصول إليه سائرين. فتح شاب لا يعرفه ميشيل باب جناح ألبير بالفندق. كان المكان مزدحمًا للغاية. عالية شعرت فور دخولهما أنها اختارت لتوها

t.me/qurssan

ثانـي أكثـر اختياراتها خطأ. حين دخلت شـعرت كأنها تخترق شاشـة لتدخل مشـهدًا احتفاليًا في فيلم أمريكي. المشهد ذكّرها تحديدًا بفيلم تايتانك. شـعرت أنهم - جميعًا - على وشـك الغرق، وأسـفت لأنها سـوف تغرق دون أن تكون مسـتعدة. كانت ترتدي ملابس ماري التي كانت تبدو بها كفنانة شـارع. كان ميشـيل ممسـكًا يدها بحنان فتسرب لها بعض التطمين. ميشـيل نفسـه كان يبدو - بملابسـه الرياضية التي جاء بها من سويسـرا - كشخص يسـتعد لقطع بعض الخشب لإشعاله في مدفأة كوخه الريفي. الحقيقة لم يكونا الوحيدين اللذين لا يتناسب زيهمـا مع حفل في الكريسـتال عشـية عيـد الميلاد، لكـن لأنها المرة الأولى التي تذهب للكريستال لم تلحظ ذلك.

للوهلـة الأولـى أدركـت كـم كان ميشـيل رجـلًا محبوبًـا. أكثـر الموجودين بالغوا في الترحيب به رغم أنها لم تتذكر طوال العام الذي عاشـاه معًا أن أحدًا منهم طلبه ليسـأل عنه. ميشـيل لم يكن فقط رجلًا محبوبًـا لكنـه كان أيضًـا رجلًا وسـيمًا. عالية كانت تعـرف ذلك جيدًا لكن أمكنها التأكد الآن، لأن كثيرًا من النسـاء اللاتي كن موجودات لم يعرنهـا انتباهًا وهن يغازلنه علانية حتى وهـن يقفن مع أزواجهن. بعد ربع سـاعة فقط تعرفت عالية على ميشيل كبلاي بوي. الغريب أنها لم تشـعر بالغيرة بل بالابتهاج حتى أنها منعت نفسـها من الضحك ثلاث مـرات. بعد عدة مـرات من المغازلـة اعتادت عليها، حتـى أنها بدأت فـي الفرجة على طريقة الباريسـيات في المغازلة كما لو كانت تشـاهد فيلمًا كوميديًـا صامتًا. كن مضحكات للغاية بالنسـبة لعالية ومبالغات

t.me/qurssan

ومتصنعـات. ورغم مظهر فنانة الشـارع بدأت في الشـعور بالثقة لأنها كانـت - وهـذا لم يكن رأيهـا وحدها - أجمل منهن. بعـد أن اعتادت المكان وبعد أن اعتاد أصدقاء ميشيل على وجودها حظت هي الأخرى ببعض المغازلات البريئة. مغازلات مبالغة ومتصنعة أيضًا.

ميشـيل لا يعـرف كل الحاضريـن لكنـه كان - بتأنـق باريسـي كلاسـيكي- يبـادل الجميـع الابتسـام. فـي دقائق قـدم ميشـيل لعالية دسـتين من الموسـيقيين والكتّاب والرسامين والصحفيين وأصحاب الأعمال. في دمشق - أو في بيروت - لم يتسن لها الوجود وسط حفل يؤمـه مثل هؤلاء الناس. ارتسـم على وجهها شـعور بالاندهاش ليس لأنها وسـط كل هؤلاء النجوم ولكن لأنها لم تسـمع عن أي منهم من قبل. ميشـيل كان يقدم لها الشخص وبعد تبادل المجاملات المعتادة يميـل علـى أذنها ليخبرها عنـه فكانت تفتعل الدهشـة لإخفاء جهلها، وبعد عدة مرات ظلت الدهشـة على وجهها كما لو ولدت بها. قررت الاحتفاظ بسـخريتها لنفسـها حتى نهاية الحفلة ومواجهة العالم بوجه مندهـش. ولو أن أولجا كانت معهما لسـألتها إذا ما كان اندهاشـها قد أخفى وجهها الغاضب أم لا. لكن أولجا لم تكن هنا لتسألها، ولا أيضًا السيدة التي التقتها في القطار.

انقضت سـاعة كاملـة دون أن تلتقي بألبير، ذلك الذي قال ميشـيل إنه صاحب الدعوة والمكان. كانت قد نسيته لبعض الوقت لكن بعدما بدأ الملل يدب في أوصالها سـألت عنه. ألبير لم يكن موجودًا. ميشيل قال إنه ربما نسـي الحفل أو ربما كان يشـوي سـمكة طازجة. لم تفهم

t.me/qurssan

عالية لكن الرجل والمرأة اللذين كانا واقفين معهما ضحكا. استنتجت بالطبع أن السمكة الطازجة يُقصد بها امرأة. لم تشعر بالغضب رغم أن مثل هذه التلميحات تغضبها كأنثى، لكنها شعرت بالغيرة. غارت عالية لأنها تألمت لافتقادها الكود المشترك الذي يجمع ميشيل بالآخرين. الغريب أنها لم تشعر بالغيرة من مغازلات النساء وشعرت بها فقط حين تبادل مع صديقين تلميحًا لم تفهمه. سألت نفسها عن السبب الذي جعل ميشيل يتحفظ في كلامه معها لدرجة أن تلميحًا مخفيًا وبسيطًا كهذا بدا لها كسر غاية في الخطورة لم يطمئن ميشيل لمعرفتها به. كانت غيرة امرأة ضبطت رجلها ينظر لامرأة أخرى بشهوة. قاومت عالية شعورها بالغيرة حتى أنها تركتهم وذهبت لإحضار كأس نبيذ معتمدة على نفسها.

- "أنا أحسدك".

عالية بعد أن أحضرت كأسها فضّلت أن تستند على جدار متأملة ميشيل عن بُعد. كانت ترى شخصًا غير الذي عرفته. شخصًا متحررًا منطلقًا ومغويًا للنساء أيضًا. كانت واقفة حين سمعت صوت امرأة تخبرها أنها تحسدها. الصوت جاء من خلفها فدارت حول نفسها لتجد امرأة ثملة توشك على الوقوع وهي تحاول فك سيور حذائها لخلعه. نظرت لها عالية مستفهمة لكن المرأة أشارت لها أن تساعدها أولًا. ذهبت عالية فاستندت المرأة على ذراع عالية ريثما تفك حذاءها. نجحت أخيرًا في فكه فابتسمت لعالية بشعور من تحرر لتوه من السجن.

t.me/qurssan

- "حسدتك على حذائك الرياضي.. ولأني لا أحتفظ بواحد قررت خلع حذائي والسير حافية.. هذا أفضل من التعثر بسبب الكعب العالي لحذائي.. أليس كذلك؟" سألت المرأة وهي تلقي حذاءها أسفل أحد المقاعد.

كادت عالية أن تفسر لها أمر الحذاء الرياضي، وأن تخبرها كم ودت لو جاءت حفلة كهذه وهي مرتدية حذاء أكثر أنثوية لكنها لم تشأ أن تفسد خيال المرأة.

- "بهذه المناسبة.. أنا سهيلة" مدت المرأة يدها لتسلم على عالية. مدت عالية يدها فكادتا تقعان. كانت سهيلة ثملة وبالكاد كانت تستطيع الوقوف مقاومة جسدها الضخم. كانت امرأة طويلة وعريضة ولها شفاه منتفخة وحاجبان مرفوعان بسبب عمليات الشد المتكررة. وجه سهيلة كان يبدو كوجه دمية. لا يمكنك تحديد عمرها إلا بالاطلاع على بطاقتها الشخصية. ستحار جدًا لكنك في النهاية سوف تقطع بأنها ما بين الأربعين والسبعين. ولن يمكنك التحديد أكثر من ذلك.

- "عربية؟" سألت عالية سعيدة.

- "لا يمكن لامرأة أن تكون عربية بقدري يا عصفورة" قالت سهيلة وهي تجلس على ذراع أحد المقاعد التي كان يجلس عليها رجل أربعيني يُقبّل امرأة ثلاثينية تجلس على المقعد المجاور له. سهيلة كادت تجلس على حجره لولا أنه كان منكمشًا في مقعده ليصل بسهولة لشفتي صديقته، لكن سهيلة لم تجد بدّا من إسناد مرفقها على كتف الرجل لتتمكن من فرد جسدها. لا شك أن عالية اندهشت لأن

t.me/qurssan

سهيلة أزالت الرسميات ببساطة حين وصفتها لتوها بالعصفورة لكنها اعتبرت ذلك طريقة أسهل للتعرف بأشخاص آخرين.

- "لا يمكن لامرأة أن تكون عربية بقدري" أعادت سهيلة عبارتها كما لو كانت تدلي بحديث صحفي.

- "أبي عراقي وأمي كويتية. انفصلا وأنا طفلة وعشت مع جدتي لأبي لفترة في الأردن". ضحكت سهيلة "جدتي كانت فلسطينية تعيش في الأردن مع زوجها الأردني.. بعد فترة أرسل أبي لإحضاري للمغرب.. تزوج مغربية ورحل للعيش معها في تطوان. حين كبرت أرسلني للدراسة في لندن. في لندن تعرفت بزوجي الأول. كان سعوديًا. ومنه أنجبت ابنتي التي صارت سعودية الآن وممنوع عليّ السفر لرؤيتها" زفرت بكراهية.

"لم أعد لتطوان لأن أبي طلق زوجته المغربية وسافر للقاهرة ليستثمر في شيء ما. طلب مني المجيء للقاهرة فرفضت. تعرفت في لندن على رجل فرنسي من أب مغربي فأقنعني بالبقاء معه في باريس".

كانت قد أنهت كأسها فمدت يدها لعالية بنظرة آمرة أن تذهب لتملأه مرة أخرى. لو لم تكن ثملة لاعتبرت عالية تصرفها مهينًا لكنها كانت ثملة،كما أن عالية شعرت بالإثارة ورغبت في أن تعرف أكثر.

- "فودكا" قالت سهيلة بتسلط.

ذهبت عالية فملأت لها الكأس ولما عادت لم تجدها في مكانها. بحثت عنها فلم تجدها كأنها تبخرت. دارت في المكان باحثة عنها.

t.me/qurssan

أثناء مرورها التقت بميشيل الذي كان واقفًا هذه المرة مع امرأتين. كانت سهيلة قد سلبت عقل عالية فلم تهتم. في النهاية وجدتها ممسكة بقبضتيها بستارة الشرفة حتى لا تقع. أعطتها عالية الكأس. لم تشكرها. اقترحت عليها أن تخرجا للشرفة. كان تصرفًا غير معقول بالمرة لأن البرودة في الخارج كانت مميتة. عالية بالكاد قالت نصف عبارة غير مسموعة لأن سهيلة جذبتها بقوة من يدها. قوة لم تكن تتناسب أبدًا مع الثمالة التي بدا لعالية أنها تغرق فيها. أخذتها سهيلة للمكان الذي يترك فيه الناس معاطفهم. سهيلة ألبست عالية معطفًا نسائيًا ووضعت على رأسها قبعة رجالية ولفت عنقها بوشاح رجالي أيضًا. لم تبال سهيلة باحتجاج عالية. عالية لم تحتج لأن سهيلة ألبستها ملابس رجولية لكن لأنها لم تسمح لها بالبحث عن معطفها الشخصي. سهيلة لم تبال وارتدت هي الأخرى أقرب معطف امتدت له يدها. بدت المرأتان كمهرجتين وهما في طريقهما للشرفة. لكن في حفلة مثل هذه من كان ليهتم؟!

خرجتا للشرفة. كان الجو غير محتمل حتى بكل هذه الأشياء التي اختفت فيها. لكن سهيلة لم يبد عليها الشعور بالبرد. أما عالية فقد قاومت الرعشة التي أصابت جسدها. اقتربت سهيلة من حافة الشرفة حتى أن عالية شعرت بالخوف. بالنسبة لطول جسد سهيلة فإن أي اهتزاز بفعل السُكر كان يمكن أن يجعلها تطير خارجًا. الغريب أن سهيلة استطاعت أخيرًا أن تقف ثابتة. اندهشت عالية لقدرة سهيلة على السيطرة على نفسها في الوقت المناسب. ظلت سهيلة صامتة لدقائق حتى أن عالية ترددت في تركها والعودة للداخل لكن سهيلة بدأت في الكلام مجددًا.

t.me/qurssan

- "أترين هذا المشهد يا عصفورة؟!" سألت سهيلة.

كانتا من مكانهما يمكنهما رؤية باريس كلها. كان مشهدًا مبهجًا للغاية. على البعد كان برج إيفل ملونًا بألوان علم فرنسا. وحوله كانت الألعاب النارية ما زالت تطلق متدفقة مشكلة أشكالًا مبهجة للغاية.

- "مدينة ساحرة" قالت عالية بإعجاب.

- "هذا كليشيه يا عصفورة" قالت سهيلة مستنكرة فلم تفهم عالية.

- "هذا كليشيه.. يمكن لأي شخص أن يقف هنا ويقول مدينة ساحرة.. لو أننا في فيلم فرنسي لوُضعت تلك العبارة في الغالب على فم البطلة الصغيرة التي تشبه عصفورة.. مدينة ساحرة.. أنت لا تعرفين شيئا عن هذا السحر يا عصفورة.. كل هذا السحر لا شيء.. هذا سحر مصنوع.. كليشيه.. مدينة ساحرة.. يا لكِ من عصفورة غبية.. من أين أنتِ" سألت بقسوة.

عالية شعرت كأنها تلميذة فاجأتها المدرّسة بسؤال لم تستعد له.

- "من سوريا" قالت عالية وهي خائفة أن تكون قد أجابت الإجابة الخاطئة. هزت سهيلة رأسها كمدرّسة اكتشفت أن تلميذتها لم تنه واجباتها المدرسية جيدًا.

- "لهذا السبب.. مدينة ساحرة.. أترين كل هذه الأضواء؟" سألت سهيلة. عالية كانت تلميذة على وشك الاعتراف بخطئها. لم تحر جوابًا.

t.me/qurssan

- "هذه ليست أضواء يا عصفورة.. هذه طاقة.. أتدرين كم تستهلك باريس من الطاقة لتظهر بهذا المظهر.. مظهر المدينة الساحرة؟.. لن يمكنك التخيل.. هل تدرين كيف يحصلون على كل هذه الطاقة لإفراغها هنا؟.. من هناك" وأشارت إلى اتجاه ففهمت عالية أنها تقصد الشرق.

- "كل هذا السحر على نفقتنا يا عصفورة.. تعرفين بالطبع أن باريس مشهورة بعطورها.. هل تدرين أنهم يستخدمون أشياء غير معقولة لصنع عطورهم حتى يسلبوا عقول العالم؟.. بالطبع أنتِ لا تدرين.. أنا لا أضع عطرًا فرنسيا أبدًا.. أبدًا.. فأنتِ لا تعرفين أبدًا إن كانت قارورة العطر الذي تضعينه في باريس يحوي دهن حيوان مسكين أم مَنيّ رجل أفريقي.. قارورة العطر التي تضعين منها لتجنني رجلك قُتل من أجلها رجال كثيرون في الشرق يا عصفورة.. مدينة ساحرة!". شعرت عالية بالاشمئزاز. أقسمت أنها لن تستخدم عطورًا فرنسية مرة أخرى. كانت سهيلة جادة جدًا ولم تكن تتلعثم من أثر الشراب.

- "كل هذا هراء يا عصفورة.. كل هذا العالم هراء.. كل الفرنسيين هراء.. عصابة تتاجر في السلاح.. يضعون السلاح في يد الرجال في بلادنا لكي يقتلوا به بعضهم البعض.. وحين ينفد يُرسلون لهم المزيد.. وسوف يُرسلون المزيد مهما كانت مرات نفاده.. سوف يُرسلون المزيد يا عصفورة حتى ينفد الرجال.. وحينها سوف يُرسلون السلاح مجددًا لتتقاتل النساء.. لن يُوقفوا إرسال السلاح طالما لم يتوقف

t.me/qurssan

إرسـال الطاقة.. أتعرفين لماذا يا عصفورة؟.. لكي تقفي أنتِ الآن في مسـاء باريسـي بارد لتخبري رفيقتك وأنتِ تنظرين من الكريسـتال أن باريس مدينة ساحرة".

شعرت عالية بالاختناق رغم أنهما كانتا واقفتين في الخارج. أدانت نفسها لأنها قالت بسذاجة إن باريس مدينة ساحرة. شعرت أنها ترغب في استئناف هروبها لكنها الآن لم تكن تعرف إلى أين يمكن أن تهرب. نظرت لها سهيلة نظرة أقرب للاحتقار منها للغضب. لكنها فجأة قبلتها قبلة خاطفة في شـفتيها. وقفت عالية متصلبة فضحكت سهيلة بعنف. كانت قد استعادت سُكرها مرة أخرى بعد انقطاع مؤقت. لم يعد في إمـكان عاليـة معرفة الوقت الذي كانت فيه سـهيلة ثملـة ولا أي عبارة قالتهـا تحـت تأثيره. سـهيلة أعطت كأسـها الفارغة مرة أخـرى لعالية بالطريقة الآمرة نفسها.

- "هذا يكفي" قالت عالية بتوسل. أشاحت سهيلة بوجهها ولم ترد. الطريقة التي أشاحت بها بوجهها كانت كافية لردع عالية عن ممانعتها. ذهبت عالية مسـرعة لملئه مجددًا. فـي الطريق انحدرت دموعها لأنها شعرت بالانسحاق لكنها تجمدت من أثر البرودة. من يرى عالية الآن كان يمكنـه رؤية دمعتيـن متجمدتين على خديها وهو ما كان يظهرهما كدمعتين غير حقيقيتين لكنهما - للأسف - كانتا حقيقيتين.

عـادت عالية بالـكأس الممتلئة بالفودكا. ملأته أكثـر مما هو معتاد لكـي تتجنب إرسـالها مرة أخرى. وقفت جوار سـهيلة التي ارتشـفت رشفة من كأسها بتمهل.

t.me/qurssan

- "أتدرين لماذا أحب الخمر يا عصفورة؟" لم ترد عالية. كان صوتها - كما دمعتيها - قد تجمد.

- "حين أكف عن الشرب أفكر في العالم كحقيقة. العالم مرعب يا عصفورة. هذه ليست مدينة ساحرة.. هذه مدينة مرعبة.. مدينة للحيوانات البرية.. هذه المدينة ككل المدن الغربية تشبه مدينة خيالية في فيلم أمريكي.. نحن فقط لا نراها على حقيقتها.. هذه مدينة منتهية.. مدينة في نهاية العالم.. حيث الأشرار يسيطرون على العالم.. الأشرار المختفون تحت الأرض.. المختفون في مدينة أسفل المحيط.. ومن مكانهم يديرون العالم.. وحين أشرب لا أتوقف حتى أسكر.. لأني في سكري أبدأ في تخيل أننا كلنا شخصيات في رواية.. أو في مشهد من فيلم.. أكاد وقتها أسمع صوت المخرج يصرخ بالتوقف.. وحينها أفكر أن كلًّا منا سوف يستأنف حياته مجددًا.. سوف يخلع قناع الشخصية ورداء الدور ويستقل المترو عائدًا إلى بيته".

كانت عالية في أشد حالاتها ارتباكًا ولم تعد تعرف أيًا من الأشياء التي تتحدث عنها سهيلة. فالعالم مخيف في الحالتين. فسواء كنا في مدينة خيالية من أفلام دي سي أو في فيلم فنحن خياليون. عالية خطر لها أن تسأل عمن يضمن لها ألا يكون وجودها في ذلك الحفل وجودًا خياليًا. هل هذه حفلة خيالية؟ هل سهيلة شخصية خيالية؟ هل أنا شخصية خيالية؟ هل ميشيل وأولجا وباها شخصيات خيالية؟ وأمي.. وأبي.. وسوريا.. والحرب؟ تمنت بالطبع في تلك اللحظة أن تسمع صوت

t.me/qurssan

المخرج الذي يتسنى لسهيلة سماعه. فكّرت في حاجتها للشرب لكي تستطيع سماعه. لكنها تذكرت ليلي. ليلي النائمة الآن في بيت أولجا والتي سوف تحب أن تراها في الصباح. كانت ليلي الشيء الوحيد الذي يدفعها للبقاء في هذا العالم. في هذه المدينة الخيالية المرعبة.

- "هيا بنا نعود للداخل".

لو تصادف أن كنت قريبًا منهما لسمعت صوت عالية بالكاد. صوتًا مختنقًا. ومتوسلًا. ومهزومًا. كانت حنجرتها متجمدة تمامًا. حتى أن أحبالها الصوتية كانت متجمدة لدرجة أنها لم تتمكن من دفعها للارتعاش. مع هذا يبدو أن سهيلة سمعتها.

عادتا للداخل. كان المكان في الداخل دافئًا، ويمكن أن نقول حارًا. ذهبت عالية لتعيد المعطف فتبعتها سهيلة. على الرغم من أن سهيلة لم تكف عن الشراب لكن كانت الآن أكثر قدرة على الوقوف وعلى الظهور بمظهر واعٍ. كانت كما لو كانت تشرب لتستعيد وعيها لا لتفقده. كانت مخيفة بالنسبة لعالية التي حاولت في تلك اللحظة الإفلات منها والبحث عن ميشيل الذي لم يكن في مرمى بصرها في تلك اللحظة، لكن سهيلة بعد أن خلعت معطفها هي الأخرى وضعت ذراعها في ذراع عالية كصديقتين. بحثت سهيلة عن مكان لتجلسا فيه فيما كانت عالية تبحث عن ميشيل كطفلة تاهت من أهلها في الشارع. أشارت سهيلة إلى مقعدين متجاورين خاليين. ذهبتا وجلستا. كانت عالية تفتش بعينيها عن ميشيل وتسرّب لها خوف أن يكون قد رحل بدونها. أو - وهذا هو الأكثر رعبًا - أن يكون شخصًا خياليًا لا وجود له.

t.me/qurssan

- "أتريـن هؤلاء الناس يا عصفورة؟" كانت تشـير إلى الموجودين في الحفل. هزت عالية رأسها.

- "آجلًا أو عاجلًا سـوف يعودون لبيوتهم وينزعون أقنعتهم.. كل مـن يعيش في هـذه المدينة لا يمكنه العيش بغير قناع.. لو أنك ظهرت بوجهك الحقيقي فسوف تتعرضين للافتراس".

لـم تكن عالية تحمل قناعًا فلم تفهم جيدًا.

- "لا تتظاهـري بالبـراءة يا عصفورة" قالت سـهيلة بقسـوة. "أنت تخفيـن حقيقتك خلـف وجهك الغاضب". وأضافت بفحيح سـاحرة "لم يمكنك خداعي". ثم ابتسـمت فظهرت فجأة كامرأة طيبة. كانت مخيفة لكنها كانت تبدو ساخرة.

- "تذكّرينني بصديق" قالت عالية للتخفيف من انفعالها.

- "أرأيـت؟" أومـأت سـهيلة مبتسـمة. كانتـا الآن قد عادتـا للحياة الواقعيـة. وحولهما كان رجال ونسـاء يحتفلون بعيـد الميلاد ولم يكن أي مـن الموجودين يسـتعد للانقضاض على الآخـر كما كانت تتصور منذ دقائق.

- "صديـق مصري.. مضطـر لكي يعمل في دار للنشـر الادعاء بأنه هندي" قالت عالية وابتسمت. كان الأمان قد بدأ يتسرب لها مرة أخرى بعد أن عادتا للداخل.

- "أرأيت يا عصفورة؟" قالت سهيلة. "وأنتِ" سألتْ.

t.me/qurssan

- "أنا؟" سألتْ عالية.

- "صديقك يدعي أنه هندي.. ما الذي تدعينه أنتِ أيضًا؟!".

- "أنا لا أدعي شيئًا".

- "لا تحاولي خداعي.. أنا لا أحب أن يستخف أحد بذكائي.. حين أسألك شيئًا فيجب أن تجيبيني" قالت مهددة. شعرت عالية بالتهديد فعلاً.. وكحيلة دفاعية أخفت خوفها ونظرت في عين سهيلة مباشرة لتريها كم أنها لم تخيفها.

- "وأنتِ ما الذي تدعينه" سألتْ عالية بصوت حافظت على ثباته.

- "أنا؟!" ابتسمت سهيلة.

- "حين أكون في وعيي أدعي أنني مخمورة.. وحين أكون مخمورة أدعي أنني في وعيي".

ثم ضحكت ضحكة منتصرة فاهتزت ثقة عالية في قدرتها على مجاراة سهيلة. في تلك اللحظة ظهر ميشيل.

ميشيل كان يبحث عن عالية. رغب في الرحيل خصوصا حين تأكد له أن ألبير لن يأتي. بحث عنها فلم يجدها. وقتها كانت بالشرفة مع سهيلة ولأنه لم يتوقع أن تكون هناك فلم يبحث في الشرفة. الآن رآها. كانت تجلس جوار امرأة ليس متأكدًا إن كان قد التقاها من قبل أم لا. ذهب باتجاه عالية مباشرة وكان مندهشًا لأن جسدها كان يرتعش. حين وصل لعالية نظرت سهيلة له نظرة مستطلعة.

t.me/qurssan

- "صديقك يا عصفورة؟" سألت سهيلة.

- "أين كنتَ؟" سألتْ عالية بغضب.

- "كنتُ أبحث عنك" أجاب ميشيل بهدوء.

وقفت عالية لينصرفا لكنها اضطرت أن تقدمه لسهيلة. سهيلة لم تكن من الضروري أن تقف لتحية ميشيل، فهذا يتعارض مع التقاليد الفرنسية، لكن لسبب ما وقفت. للدقة حاولت الوقوف لكنها سقطت في مكانها بسرعة. كانت مخمورة للغاية. لكن عالية لم تكن متأكدة من ذلك. حين أدارا ظهريهما سمعا سهيلة تهتف "في صحة المدينة الساحرة".

في المصعد لاحظ ميشيل أن عالية ترتعش. وضع كفه على جبينها فوجده يغلي.

- "أنتِ محمومة". قال ميشيل بقلق.

- "ما كان يجب أن تتركني أبدًا" قالت عالية بغضب.

- "أنتِ التي تركتيني يا عالية.. كنا معا حين..." قاطعته عالية.

- "ما كان يجب أن تدعني أتركك" قالت بغضب.

t.me/qurssan

3

- "قد يكون مخمورًا".

- "لا أظن.. أعتقد أنه إرهابي".

- "أنت لا تكف عن التفكير كأنك تتعرض لمؤامرة دائمة".

- "إنكار المؤامرة جزء من المؤامرة.. تذكر ذلك".

- "سوف ترى أن تقديري كان صحيحًا.. سينتهي الأمر بالإعلان عن أن الحادث تسبب فيه شخص مخمور.. لا تنس أننا في عشية عيد الميلاد".

- "أراهنك على ما تريد أنه عربي.. شرطة باريس أعلنت منذ أيام عن توقعاتها بحدوث أعمال إرهابية".

- "شرطة باريس لا تعرف شيئًا.. هي تقول ذلك دائمًا من باب الحيطة".

- "أنت دائمًا ما تعارضني متعمدًا.. أكاد أقسم بأنني لو اتهمت مخمورًا لكنت الآن تراهن على العربي".

كانا - ميشيل وعالية - يستمعان لهذا الحوار بين عاملين في استقبال المركز الطبي أثناء توقيع ميشيل بيانات عالية. ميشيل شعر بالاضطراب

t.me/qurssan

لأنه خاف على عالية من سماع مثل هذا الهراء الباريسي حتى أنه انشغل في تسجيل بعض البيانات. فكّر في أن يقاطعهما لكنه خاف أن تنتبه عالية لأنه لم يكن متأكدًا من سماعها لهما بشكل جيد. كان يقف بجوارهما بينما كانت تجلس على مقربة مستندة برأسها على الحائط بانتظار دعوتها للدخول إلى الطبيب. بعد مغادرتهما الكريستال أصر ميشيل على الذهاب بعالية للطبيب للاطمئنان عليها. كانت محمومة بالفعل ولم يكن ميشيل يبالغ في الحنان كعادته. خرجت ممرضة شابة ودعَت عالية للدخول وأصرّت على مساعدتها. حين غابت عالية في الداخل تمكن ميشيل أخيرًا من توجيه اللوم للعاملَيْن.

– "بغض النظر عما كنتما تتحدثان بشأنه لكن وصف الإرهابي بالعربي لا يفتقد فقط لليّاقة لكنه أيضًا يعرضكما للقانون" قال ميشيل وهو يؤكد على كل حرف لأنه فكر في الظهور بمظهر المحامي. العامل الذي نعت الإرهابي بالعربي ارتبك. اعتذر بتأدب شديد. في ظروف أخرى كان يمكن أن يرتكب جناية لو أنهما كانا في حانة مثلًا لكن لأن حديثه مع زميله كان في محل عمله ولأن ميشيل بدا قانونيًا للغاية فضّل العامل الاعتذار بتأدب مهني. زميله والذي كان مصممًا على موقفه فيما يتعلق بالمتسبب في الحادث انبرى للدفاع عن زميله بطريقة كانت ممكن أن تورطه أكثر لو كان ميشيل رجل قانون بالفعل وليس مهندسًا للصوت وموسيقيًا سابقًا.

– "عفوًا.. لكن زميلي لم يكن يقصد المعنى بالضبط.. لكن عذره أن الذين يرتكبون الأفعال الإرهابية عادة ما يكونوا عربًا.. أنا شخصيًا

t.me/qurssan

شـاهدت عدة فيديوهات لحوادث إرهابية مشـابهة كان فيها مرتكبوها يهتفون الله أكبر".

نظر ميشـيل بضيق شـديد للعامـل الذي ما إن تفوه بعبـارات كاملة حتى أظهر أنه يفوق زميله غباء.

- "ليـس كل عربي مسـلم.. هذا ما أردت قوله.. وليس كل مسـلم إرهابي" علّق ميشيل بيأس ثم لحق بعالية لدى الطبيب.

نظر العاملان كل منهما للآخر. وبدلًا من أن يشـكر العامل صديقه لأنه حاول الدفاع عنه قرر تعنيفه.

- "فيما بعد لا تتحدث نيابة عني.. يمكنني الدفاع عن نفسي جيدًا.. أنـا فقط لـم أكن أريد إضاعـة الوقت في مجادلة شـخص لا يعرف أن العربي والمسلم والإرهابي في نهاية المطاف شخصٌ واحد".

كان جوزيـف - وهـذا كان اسـمه لأنه كان مدونًا علـى بطاقة مثبتة بصدره - سـعيدًا بجهله فلم يجد رغبة في اختبار معرفته في أي لحظة من لحظات حياته. كان فرنسـيًا خالصًا وعلى الأرجح أن أحد جدوده - أو كلهم - شاركوا في الأذى الذي وقع لكوازيمودو وأزميرالدا.

حيـن خرجـا من المركـز الطبي كانت عالية قد شـعرت بالتحسـن فصـارت في مزاج أفضل رغم أنها لم تُخـف إرهاقها. الطبيب أعطاها بعض الأدوية واقترح إجراء عدد من التحاليل التي عزم ميشيل إجراؤها في أسرع وقت.

t.me/qurssan

- "حين يصيب المرء دور برد لا يكون عليه إلا التدفئة في السرير المزق. يومان على الأكثر ويكون البرد قد ذهب لحاله" أكدت عالية، لكن ميشيل بدا غير مقتنع.

كان النهار قد طلع. الشوارع كانت شبه خالية. فلول الشباب العائدين من سهراتهم الماجنة كانوا يعبرونهما بين الحين والحين وهم يصرخون للا سبب. بانتظار تاكسي شاهدوا عشرات الأشخاص الذين انتهت بهم ليلة الاحتفال بالنوم على الأرصفة. كانت الشوارع فوضى كبيرة. وكانت علب البيرة وزجاجات الخمر وأكياس الطعام ملقاة في كل مكان.

- "حين كنا نشاهد مشهدًا مثل هذا في بلادنا كنا نتحدث دائمًا عنكم كأشباه ملائكة. الصور التي كنا نراها على الإنترنت وفي الأفلام كانت خدعة" قالت عالية. ولم يكن المقصود هو ميشيل، ولا باريس. كانت ترغب في الانتقام من العامل الذي وصفها بالإرهابية. ميشيل فهم من عبارتها أنها سمعت الحوار بين العاملين فاضطر للدفاع عن أبناء جلدته.

- "تسبب شخص في حادث دهس في شارع قريب من الشانزلزيه هذا المساء" قال ميشيل.

- "لكن لم يتبين بعد إن كان عربيًا أم لا.. أم أنهم أعلنوا؟!" سألتْ عالية متعمدة إبراز سخريتها لتنال من ميشيل.

- "لا.. لم يعلنوا بعد" أجاب ميشيل منسحبًا من مواصلة النزاع.

t.me/qurssan

- "مـاذا لـو كان عربيّـا بالفعل لكنـه كان مجرد رجـل مخمور؟!" سألت عالية، هذه المرة كانت تسأل بفضول.

- "أتمنى أن يكون فرنسـيّا.. بصدق أتمنى أن يكون فرنسيّا لأبوين فرنسيين أيضًا" أكد ميشيل بحدة.

ظنـت عالية أنه لـم يحب توجيه اللـوم له، وأن ذلك سـبب حدته. ميشـيل كان فرنسـيّا مهمـا حـاول التنكر لهـذه الحقيقة. هـذا ما كانت عالية تخبر به نفسها كثيرًا الفترة الماضية. ميشيل فرنسي. فرنسي آخر. فرنسـي يحاول أن يتواضع بلعب دور الفرنسـي المسـتاء من فرنسيته. لكن أحدًا لا يمكنه أن يسـتاء من كونه فرنسـيّا. منذ اكتشـفت عالية أن ميشيل مجرد فرنسي آخر وهي ترغب في الانفصال عنه. كانت تعرف أنـه لـن يجيـد التنكر طويلًا وأنـه آجلًا أم عاجلًا سـوف يسـترد وجهه الفرنسـي مـرة أخرى. لهـذا طلبت منـه الانفصال وسـاءها أنه رفض. أضمـرت عاليـة رغبتها فـي الانفصال قبل السـفر لبيـروت. لكنها في بيروت قررت مصارحته. فكرت في سؤاله أولًا لكنها لم تكن شجاعة بما يكفي لسـؤاله عن الطريقة التي يراها بها. قبل عدة شـهور من الآن كانت تعبر الطرقة حين سـمعت صوت ميشيل وهو يستعد لفتح الباب من الخارج. ذهبت لمفاجأته لكنها سمعته يتحدث إلى جاره. لم تقصد التنصت على حديثهما بالطبع فلم يكن ذلك من طبعها، لكنها سمعت كلمـة "عربية" فأنصتت. كان جـاره يحذره من إفراط الثقة في "صديقة عربية". سـمعت الجار وهو يتحدث عن العرب الذين يتخفون وسـط

t.me/qurssan

الأوروبيين لتحين فرص قتلهم. انتظرت أن تسمع مهاجمة ميشيل للرجل لكنها لم تسمع شيئًا. لم يقل ميشيل شيئًا. انتظر حتى انتهى الرجل من كلامه ثم اعتذر للدخول. حين فتح الباب ودخل لم تسأله عن شيء ولم يخبرها بدوره عما جرى بينه وبين جاره. في المساء رفضت النوم معه وقررت أن أوان الرحيل قد حان.

لكن الحدة التي تكلم بها ميشيل لم تكن احتجاجًا على توجيه اللوم له. ميشيل كان يخشى على عالية من أبناء بلاده الذين كانوا يحتاطون ضد العرب مع كل حادث إرهابي. كان الفرنسيون غير ملومين. كانت لديهم مخاوف كثيرة. كانوا يخافون من أن يتغير العالم من حولهم فجأة. عدد العرب يزداد يومًا بعد يوم بسبب قوانين الهجرة. مارسيليا مثلًا تستعد لأن تكون أول مدينة أوروبية ذات أغلبية مسلمة. المدارس الإسلامية انتشرت وكان يمكن لأي شخص رؤية مئات البنات الصغيرات خارجات من مدارسهن وهن يغطين رؤوسهن بالحجاب. جوزيف كان غبيًا وجاهلًا لكن من يملك تطمينه على عالمه؟!

- "ونحن في الكريستال حجزت غرفة في أوتيل قريب من دار النشر" قال ميشيل. وقبل أن تعلّق عالية أضاف "يمكنني أن أحجز غرفة أخرى إن شئت". صمتت عالية.

- "لا أريد أن أجادلك.. كل ما أريده الآن هو احتضان ليلي حين تفتح عينيها والنوم في سرير دافئ حتى أتعرق".

- "يمكننا إذن أن نذهب لإحضار ليلي ثم الذهاب للأوتيل" قال ميشيل فلم تعلق عالية. لم يكن لديها ما تقوله.

t.me/qurssan

أولجا ودّعت ليلي بقبلة كبيرة. وذكّرت عالية بموعدها في دار النشر بعد انتهاء العطلة. وتمنّت لهما الخير. وطلبت من ميشيل الاعتناء بعالية. ولم تنس أن تدخل غرفتها لإحضار حقيبة عالية وأيضًا الملابس التي كانت قد غسلتها وجففتها لعالية. عالية كانت متعبة والدواء الذي ابتلعته بدأ مفعوله في التطاير فلم يمكنها شكر أولجا بطريقة مناسبة لكن أولجا حين لمست حرارتها أثناء تقبيلها تفهمت. أعادت على الباب وصاياها مرة أخرى.

باها كان سعيدًا لأنه تذكر أن اليوم هو يوم الجمعة. استحم رغم برودة الجو. صلى ركعتين قبل النزول من البيت. وحين دخل المسجد صلى ركعتين تحية للمسجد ثم ركعتين لله. كان موعد الصلاة لم يحن بعد فجلس في ركن يقرأ القرآن. كان يثق في أن الله سوف يغفر له أكله للشوكولا لكنه لم يكن واثقًا إذا ما كان الله سوف يغفر له مشاركته الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، لهذا بالغ في التعبد في هذا اليوم. ولأن يومي السبت والأحد كانا يومي عطلة من المكتب قرر أن يقضيهما في غرفته يصلي ويقرأ القرآن. لكن لما كانت خطبة الجمعة عن مشاركة أهل الكتاب أعيادهم اكتشف أنه قد احتفل مع يهودية ومسيحي دفعة واحدة فشعر بالرضى. وعليه قرر الاكتفاء بالاعتكاف في غرفته لنهاية اليوم فقط واللف في شوارع باريس يومي العطلة. باها كان يحب أن يعاقب نفسه بنفسه وأن يكافئها بنفسه. باها كان يحب نفسه كطفل عليه ترويضه وإسعاده في الوقت نفسه.

t.me/qurssan

كان الأوتيل قريبًا بالفعل من دار النشر لدرجة أنهم مروا من أسفلها. عالية أشارت للمكتب وأخبرت ليلي أن هذا هو مقر عملها الجديد. ليلي كانت فرحة لأنها أخيرًا أصبحت مع أمها ومع ميشيل في الوقت نفسه. عالية سألت ميشيل كيف عرف أن الأوتيل قريب من دار النشر فأخبرها بأنه بحث عن عنوانها على الإنترنت قبل أن يقوم بحجز الفندق. عالية شعرت بأنها مَدينة لميشيل لكنها - كالعادة - لم تجرؤ على الاعتراف. في التاكسي كانت تجلس في الخلف محتضنة ليلي. ليلي نبهت أمها أن جسدها ساخن. التفت ميشيل وجس جبينها. كانت الحرارة في ازدياد متسارع. ميشيل كان قلقًا وكانت عالية متعبة فلم تستطع تطمينه. أسندت رأسها للخلف لكن ميشيل خشى أن تفقد الوعي. طلب من السائق التوقف. انتقل للجلوس جوارها ولم يسمح لها حتى بإسناد رأسها على كتفه. كان يريد أن يستبقيها صاحية لحين الوصول للأوتيل.

في الأوتيل طلب طبيبًا. الطبيب كشف عليها واطلع على الأدوية التي كتبها لها الطبيب في المركز الطبي. لم يقترح شيئًا إضافيًا. طلب منها الراحة التامة على الأقل لمدة أسبوع. واقترح إجراء التحاليل نفسها. عالية سألت الطبيب عن مبرر إجراء التحاليل لأنها بدأت في الشعور بالقلق. الطبيب أخبرهما أنها مجرد تحاليل خاصة بالأنيميا والأنزيمات. توقع الطبيب أن تكون في حاجة لبعض الفيتامينات وفواتح الشهية.

t.me/qurssan

في الصباح التالي فتحت عالية عينيها. كانت في سريرها وكان ميشيل وعالية نائمين على السرير الآخر. مدت يدها لتشرب فأوقعت علبة دواء. استيقظ ميشيل. سألته عالية عن الوقت ففوجئت أنها نائمة من صباح الأمس. قال ميشيل إنها كانت نائمة طوال الوقت وإنها كانت تخرف بالكلام. سألته عن الأشياء التي قالتها فابتسم محرجًا خافت عالية فأصرت على إخبارها.

- "للأسف كل ما قلتيه كان بالعربية فلم أفهم منه شيئًا" قال ميشيل آسفًا. "لكن ليلي أخبرتني أنك ذكرت أمك عدة مرات" أضاف.

- "لم أحدث أمي ولم تحدثني منذ ثلاثة أيام تقريبًا".

- "لماذا؟".

- "يبدو أنها غاضبة مني".

- "وما الذي يغضبها؟".

- "اتصلت بي وأنا في المكتب.. كان لديها مزاج لأن تطيل الكلام لكني كنت مشغولة فلم أستجب لها". قالت عالية. ميشيل هز كتفيه لأنه لم يفهم. ثم ابتسم ساخرًا. نظرت له عالية بلوم.

- "لا أذكر آخر مرة اتصلت بأمي ولا آخر مرة اتصلت بي.. هذا كل ما في الأمر" فسّر.

- "أنا وأمي أمر آخر".

ابتسم ميشيل كما لو كان قد فهم أخيرًا.

t.me/qurssan

الحقيقة أن علاقة ميشيل وأمه مثلها مثل علاقة عالية وأمها. ميشيل كان من الريف الجنوبي ولم يتعرف على طبيعة العلاقات في المدينة حتى رحل إلى باريس. قبلها كان كأي ابن في مدينة عربية. أخوه برنارد - مثلًا ما زال يعيش بالقرب من أمه حتى الآن. وأغلب الظن أنه يعيش معها في نفس البيت حتى بعد زواجه.

عالية كانت أفضل بكثير في يوم السبت منها في يوم الجمعة. تمكنت من القيام من سريرها والذهاب للحمام دون احتياج لمساعدة. حرارتها انخفضت نسبيًا. وجدت أن لديها شهية مفتوحة وجاهزة لالتهام خروف لكن ميشيل أصر على أن تلتزم بالطعام الذي أوصى به الطبيب. قبل بداية المساء اقترحت عليه أن يخرجا للتمشية لكنه رفض بحجة البرودة. اقترحت كحل بديل أن يخرجا فقط من الغرفة. رفض أيضًا. لكن لأن ليلي كانت متحمسة اقترحت عالية أن يجروا تصويتًا. ميشيل كان ديمقراطيًا فوافق بشرط ألا يخرجا من الأوتيل.

حرص ميشيل على أن ترتدي عالية ثيابًا كثيرة حتى أنها بدت أكثر بدانة. جلسوا في كافيتريا الأوتيل وطلب كل منهم مشروبًا. أصر ميشيل على أن يطلب لعالية مشروبًا ساخنًا. كانت عالية سعيدة بكل هذه العناية لكنها أجّلت اعترافها بذلك لبعد تمام الشفاء. ألبير اتصل ليطمئن على عالية ففهمت أن ميشيل أخبره. كان هاتفها مغلقًا ففتحته. لم يتصل بها أحد غير ريما. أرجأت الاتصال بريما. وجدت رسالة طريفة من أولجا في نهايتها تذكّرها بموعدها صباح الغد في

t.me/qurssan

المكتب للقاء عاهرة فرنسيس. ابتسمت. سألها ميشيل فناولته الهاتف ليقرأ الرسالة. استفسر عن عاهرة فرنسيس فأخبرته أنها امرأة لديها سطوة كبيرة على فرنسيس وأن فرنسيس أسند إليها قرار عملها معهم. لم يجد ميشيل شيئًا مهمًا ليقوله فاكتفى بالابتسام. اقترح ميشيل أن يصعدوا لغرفتهم لترتاح طالما أن لديها في الصباح موعدًا مهمًا. طلبت أن يبقوا قليلًا. ليلي كانت مشغولة باللعب على هاتف ميشيل فوجدتها عالية فرصة لسؤاله.

- "لماذا تفعل معي كل هذا يا ميشيل؟!".

- "ما الذي أفعله؟" سأل ميشيل بفضول.

- "لماذا أنت رقيق معي إلى هذا الحد؟".

هز ميشيل كتفيه.

- "ميشيل أنت تعرف أننا لم نمارس الجنس منذ..." قاطعها ميشيل بوضع إصبعيه على فمها.

- "ما علاقة الجنس؟" سأل ميشيل. شعرت عالية بالحرج.

- "يمكنني الحصول على الجنس بأية طريقة.. لا تشغلي بالك".

- "أندهشُ كثيرًا لهذه المسألة يا ميشيل.. إن شئت الدقة تلك واحدة من أكثر الأشياء غرابة بالنسبة لي".

- "ماذا تقصدين؟".

t.me/qurssan

- "تتعاملون مع الجنس كالأكل والشرب.. لهذا لا تتحرجون منه مثلما نفعل.. وفي الوقت الذي نبدو متحفظين بشدة بشأنه تظل أنت لمدة شهور دون أن تمارس الجنس معي كما لو أنك في صوم طويل".

- "لم أفكر في الأمر بهذه الصورة. لست راهبًا بالطبع لكن يلزمني حد أدنى من الحس الإنساني للذهاب مع إحداهن للفراش".

- "هل أنت مخلص لي يا ميشيل أم أنك تعاقبني؟".

عند هذه النقطة قام ميشيل وقرر أن أوان العودة للغرفة قد حان. شعرت عالية بأنها قست مرة أخرى على ميشيل. أنّبت نفسها لأن الوقت لم يكن مناسبًا أبدًا للقسوة. استجابت لقرار ميشيل فنادت على ليلي التي كانت منهمكة جدًا في اللعب لدرجة أنها لم تنتبه لوقوفهما.

- "ليلي" هتفت عالية. "هيا بنا".

- "جاءتك رسالة يا ميشيل" قالت ليلي وأعطت الهاتف لميشيل.

كانت رسالة من نيمو. لم تسأل عالية عن الرسالة. حتى ولو كانت تريد أن تفعل ما كان لها أن تسأل أبدًا. كانت تعرف حساسية رجل كميشيل من مثل هذه الأمور. خصوصًا وأن ميشيل لم يوجه لها أي سؤال منذ انتقلا للعيش معًا، حتى أنه لم يسأل عن والد ليلي. تقبلها هي وليلي معًا دون التفكير فيهما كشيئين منفصلين.

t.me/qurssan

"عزيزي ميشيل.. كيف حالك.. صدق أو لا تصدق.. اشتقت إليك. لا أعرف إن كنت مهتمًا بمعرفة أخباري أم لا.. لكن بصفتك ملاكي المرسل افترضت أنك سوف تعنيك معرفة نتيجة دعوتك باعتباري أول مؤمنة بقداستك!».

«أنا الآن في خير حال. زرت قبر أمي أول وصولي كما زرت عائلتي أخيرًا. والآن أنا أقيم مع عمي شخص ودود للغاية. حين شاهدته في المطار ظننت أن أبي عاد من موته. لم أتخيل أن يكونا متشابهين إلى هذه الدرجة. لدى عمي ولدان.. يبدو أنهما أحباني هما الاثنان لأنهما طوال الوقت يبحثان عن كيفية إرضائي».

«حتى الآن لا يبدو أني وجدت بعد شيئًا على الجانب الآخر من الطريق، لكني بالكاد وصلت. أتمنى أن تكون أنت أيضًا عبرت الطريق. أثق أن الشجاعة لا تنقصك. صديقتك نيمو".

"عزيزتي نيمو.. سعيد بمعرفة أنك بخير.. أما أنا فالحقيقة لا يمكنني إخبارك بشيء محدد.. أشعر كما لو أني في منتصف الطريق.. ما زلت لا أعرف الوجهة التي عليّ قصدها.. ولا الطريق الذي عليّ عبوره.. ما زلت محدقًا كقطة تترقب ولم تتخذ قرارها بعد.. قبلاتي.. ميشيل".

حين ضغط ميشيل على زر الإرسال كانت ليلي قد استسلمت للنوم فيما كانت عالية ممددة على سريرها بانتظار موعد دوائها المسائي حتى تنام. كانت تفكر فيما ينبغي عليها ارتداؤه. حاولت تخيل المرأة التي سوف تذهب للقائها في الغد لكن الصورة الوحيدة التي كانت تقفز

t.me/qurssan

لمخيلتها كانت صورة الساحرة الشريرة في حكايات الطفولة. حاولت نطمين نفسها بأن أولجا قد يكون لديها حس مبالغ، أو أنها ربما كانت - لسبب ما - تكره تلك المرأة لدرجة أنها لا تفوت فرصة للإساءة لها. تخيلت أيضًا أن أولجا تحب فرنسيس سرًا ومن ثمّ فإنها تغار من تلك المرأة. بالغ خيالها في تصور حياة جنسية سابقة لأولجا مع فرنسيس - رغم أنه يصغرها بعشر سنوات تقريبا. في النهاية صرفت خيالها لأنها كانت تحتاج للنوم. طلبت من ميشيل أن يعطيها الدواء لتنام. نظر في ساعته.

- "موعده بعد ساعة من الآن".

- "ساعة واحدة مبكرة لن تتسبب في أذى".

ميشيل كان يعرف ذلك لكنه أصر على الاتصال بالطبيب قبل أن يعطيها الدواء. الطبيب سخر منه فيما يبدو لأن وجهه غشيه احمرار. ابتسمت عالية بشماتة. تجاهل ميشيل شماتتها. ناولها الدواء. وقبل أن تنام قبّلها بحنان. عالية لم تجد في نفسها القوة للاعتراض فلم تعترض. عاد ميشيل لسريره. نام على الجانب الذي يمكّنه من رؤية عالية. كان وجهها الغاضب قد حل محله وجه متعب ومتعرق لكنه كان وجهًا محبوبًا.

رأت عالية فيما يرى النائم أنها تبحث عن أمها. كانت مع أمها في سوق الشهداء. طلبت منها أمها أن تبقى إلى جوارها ريثما تحاسب البائع لكنها تبعت قطة كانت تبحث بين بقايا الخضراوات عن شيء

t.me/qurssan

تأكلـه. ابتعـدت عالية للحظات ثم عادت فلم تجد أمها. سـألت البائع فهـز كتفيه. جرت تبحث عـن أمها في كل مكان لكنهـا لم تجدها ولم يبد أنها سوف تكون قادرة على إيجادها لأن السوق فجأة صار خاليًا. لا باعة ولا مشـترون.. صمتت أصوات الباعة وجلبتهم فجأة.. دارت فـي كل مكان فلم تجد أحـدًا.. بدأت في الصراخ لكـن أحدًا لم يظهر كما أن صوتها لم يكن مسموعًا حتى لنفسها.

t.me/qurssan

4

حين استيقظت عالية من نومها فوجئت بميشيل يجلس على طرف سريرها ووجهه محتقن. وعلى الطرف الآخر كان الطبيب جالسًا في انتظارها. جالت ببصرها بحثًا عن ليلي مفزوعة ولم تهدأ إلا حين رأتها قادمة بخير من الحمام. نظرت لميشيل والطبيب مستفهمة.

كانت تهذي وهي نائمة. حرارتها ارتفعت بصورة مفزعة لدرجة أجبرت ميشيل على استدعاء الطبيب. حين وصل الطبيب كانت قد فقدت وعيها. اقتربت ليلي منها وكانت ترتعش من الخوف على أمها. نظرت لها عالية لتطمينها لكنها لم تستطع فعل شيء أكثر من إلقاء نظرة تطمين. قام ميشيل لتوصيل الطبيب لباب الغرفة وسمعته وهو يوصي ميشيل بالراحة التامة.

- "ميشيل.. لديّ موعد" قالت عالية وبالكاد وصل صوتها الوهن إلى ميشيل.

كان لديها موعد لا يمكن تفويته أبدًا. كان الوضع خطرًا لأن الطبيب سُمع - لأول مرة - وهو يتحدث بحزم، حتى أنه أعلن صراحة عن إخلاء مسئوليته إذا ما تحركت مريضته من مكانها. شعرت عالية

t.me/qurssan

بالخطر لكن كان لديها موعد لا يمكن تفويته. لم تكن عالية في حاجه لترديد عبارتها ليتأكد ميشيل من أنها لن تفوت موعدها حتى لو كانت على فراش موتها. نظر الطبيب لميشيل نظرة إشفاق. كانت عاليه الآن قد صارت - بصورة كاملة - ضمن مسئوليات ميشيل. قبل أن يغادر الطبيب الغرفة كانت عالية قد وقفت في منتصف الغرفة لتغيير ملابسها. ميشيل عرف من الطريقة التي نزعت نفسها بها من سرير مرضها أنه لن يكون في مقدوره منعها أبدًا. كان عليه الآن التفكير في كيفية مساعدتها بدلًا من منعها. لكن من قال إن شخصية كعالية يمكن أن تسمح لأحد أن يقدم لها يد العون. ومع هذا فإن شخصية كعالية، عنيدة - ومريضة لهذه الدرجة - سمحت - على مضض - بأن يقوم ميشيل بتوصيلها للمكتب وانتظارها في أقرب مكان. كان ذلك أكثر مما كان ميشيل يحلم به في هذه اللحظة؛ لهذا فقد اعتبر سماحها بتوصيلها انتصارًا كبيرًا كان يتمنى أن يشهده الطبيب ليتأكد من أنه ترك مريضته في يدٍ أمينة.

في الطريق للمكتب لاحظت أنها متأخرة عن موعدها. حاولت تنبيه السائق لكن التزامه بقواعده كان أكبر من أن يسمح لامرأة متأخرة عن موعدها بإجباره على أن يضغط دواسة البنزين أكثر مما هو معتاد. بالأمس كانت تفكر في أن أولجا قد أوحشتها رغم أنها لم تغب عنها أكثر من يومي العطلة، أما الآن - ولأن أولجا لم تتصل بها لتعرف أسباب تأخرها - شعرت بالغضب تجاه أولجا حتى أنها عزمت على معاتبتها. لكنها حين وصلت ووجدت أولجا في أشد حالاتها غضبًا وعصبية قررت إرجاء عتابها.

t.me/qurssan

- "العاهرة.. عاهرة فرنسيس.. أتدرين أول قرار اتخذته فور وصولها؟.. لقد طردت باها" قالت أولجا ثم جلست باكية في غضب.

- "لماذا؟.. وكيف سمح فرنسيس بذلك؟" سألت عالية بانفعال مقاومة تعبها.

- "فرنسيس؟!.. فرنسيس لا يملك شيئًا.. إنه مسلوب الإرادة أمامها كدمية".

- "وأين باها الآن؟".

- "منذ عرف بالخبر حبس نفسه في الحمام لا يريد الخروج".

ذهبت عالية مسرعة إلى الحمام. طرقت الباب لكن باها لم يفتح ولم يرد. حاولت مرة أخرى لكنها فوجئت بفرنسيس واقفًا عند باب مكتبه. وحين نظرت إليه أشار إليها أن تتبعه. دخل غرفة مكتبه فلحقت به. كان المكتب مظلمًا كما في المرة السابقة. جلس فرنسيس على منضدة اجتماعاته وأشار إليها أن تجلس. بحثت في الغرفة عن عاهرته لكنها لم تجدها، لكنها انتبهت لوجود باب جانبي ربما كان يفضي لغرفة أخرى. باب لم تنتبه له في المرة السابقة. تأكدت من أن عاهرته خلف هذا الباب لأن فرنسيس نظر للباب عدة مرات. جلست أمامه فدفع ملفًا أمامها.

- "يبدو أنك محظوظة.. لسبب ما لن تكون هناك حاجة لاختبارك من قِبل خبرائنا.. لقد اتخذتُ قراري.. سوف يتم توظيفك.. في هذا

t.me/qurssan

الملف العقد الذي سوف يكون علينا توقيعه معًا.. سوف تحصلين على عرض جيد.. الحقيقة أن خبراءنا اقترحوا أجرًا سخيًا يفوق أي قدرة لديك على التخيل".

كانت عالية محدقة في عيني فرنسيس طول الوقت. همت بأن تسأله عن خبرائه ولم يكن لديها شك بأنهم - أو بأنها - تجلس خلف هذا الباب الذي ينظر له فرنسيس كما لو كان يرغب في التأكد من أن صوته مسموع خلفه. شعرت عالية بأنها تجلس أمام مفستوفيليس لدرجة أنها انتظرت أن يطلب منها فرنسيس توقيع العقد بالدم. لكنه لم يطلب، وبدلًا من ذلك وضع قلمًا أمامها.

- "يمكنك الآن الاطلاع على بنود التعاقد.. لو لديك أية ملحوظات يمكننا مناقشتها لكني أعتقد أن السخاء الذي كُتب به العقد...".

لم يكمل فرنسيس كلامه لأن عالية مدت يدها والتقطت القلم ووقعت على صور العقد بغضب دون حتى أن تقرأ حرفًا فيه. كان لديها مهمة لتنجزها وكانت تظن أن توقيعها شكل من أشكال إثبات حسن النوايا.

- "ليست لديّ أية ملاحظات.. لديّ فقط سؤال.. لماذا طردت باها؟" قالت بطريقة تبدو كمساومة أكثر منها كاستفسار.

- "لا شيء يلزمني بمناقشة أمر إداري كهذا معك.. لكن يمكنني إخبارك بأنه شخص كذاب.. ونحن لا نوظف كذابين". قال فرنسيس بجدية مهنية ثم قام وفتح درجًا في مكتبه ليضع العقد كما لو كان

t.me/qurssan

بخشى تراجعها. كان فرنسيس محقًا لأن عالية كانت بالفعل تفكر في التراجع لو أن محاولة مساومتها على رجوع باها لم تنجح، لكن الباب الجانبي فُتح فجأة ورأت عالية سهيلة خارجة منه.

سهيلة كانت حافية كما لو أنهما ما زالا في حفل الكريستال. كانت سهيلة مبتسمة بطريقة أزعجت عالية لكنها ظلت واجمة من المفاجأة. سهيلة كانت عاهرة فرنسيس ولسبب لا يعلمه إلا الله تصادف أن كانت في السهرة نفسها التي كانت فيها عالية، ولسبب لا يعلمه إلا الله تصادف أن قضت عالية سهرتها مع سهيلة مفشية سر باها.

كان فرنسيس منسحقًا بالفعل أمام سهيلة لدرجة أنها حين خرجت ابتسم لها ليطمئنها على توقيع عالية. تأكدت عالية الآن أن فرنسيس لم يكن مفستوفيليس نفسه ولكنه مجرد مندوب عنه. كان أضعف حتى من أن يكون الشيطان. جلست عالية بتحد فاقتربت منها سهيلة وابتسامتها ما زالت مرسومة على وجهها. سهيلة نظرت لفرنسيس نظرة متسلطة فخرج من المكتب مذعنًا.

- "لماذا باها؟" سألت عالية بغضب.

- "لأنه لم يتقن استخدام قناعه" قالت سهيلة بهدوء وهي تشعل سيجارة ولم تفارقها ابتسامتها.

- "أتقنه" قالت عالية بيقين كما لو كان يقينها سوف يفيده.

- "لكن مصادفة غبية جعلتني أفشي سره" قالت عالية بغضب.

t.me/qurssan

- "هذا ما أقصده.. من يحمل قناعًا لا يجب أن يسر به لأحد مهما كان.. جوهر القناع أن يظل سره مخفيًا" قالت سهيلة ببساطة كما لو كانت تلقي محاضرة في الفلسفة.

- "أنتِ أيضًا أفشيت سرك لي" قالت عالية بتحد. ابتسمت سهيلة. ودت عالية لو تقتلها لتمنعها من الابتسام بهذه الطريقة.

- "أنا لا أفشي سري لأحد يا عصفورة".

- "قلتِ إنك حين تكونين في وعيك تدّعين أنك مخمورة.. وحين تكونين مخمورة...".

لم تكمل عالية عبارتها لأن سهيلة بدأت في الضحك. بدت كشريرة الحكايات بالفعل.

- "وأنتِ صدقتني؟!.. يا لك من عصفورة غبية" ضحكت سهيلة مرة أخرى.

قامت عالية لتخرج فنادت عليها سهيلة. التفتت لها. سهيلة بهدوء شديد ذهبت للمكتب وأخرجت من درج المكتب صورة من العقد ومدت يدها لعالية.

- "نسختك".

- "لست في حاجة لها".

- "سواء حصلت على نسختك أم لم تحصلي عليها فيكفي أن يكون توقيعك هنا" قالت سهيلة وهي تعيد العقد للدرج لكن عالية

t.me/qurssan

بنحـد ذهبت ونزعت صورتهـا من العقد وخرجت وهي على يقين من أنها قد باعت نفسها للشيطان لتوها.

حين خرجت كانت أولجا تدخن. لم تشاهد أولجا تدخن من قبل. تبادلتا نظرة يائسة. ذهبت إلى الحمام وطرقت مرة أخرى بإصرار.

- "افتح يا باها.. أنا عالية". فتح باها الباب فدخلت عالية وأغلقت البـاب مرة أخرى. عاد باهـا ليجلس على الأرض. أسـند مرفقيه على ركبتيه. كان مهزومًا.

- "باها.. ليش عم تركت بلدك؟" سألت عالية.

رفع باها نظره لعالية وكان يبكي.

- "في قريتي لم يبق غير النساء والأطفال والعجائز. كنا نكبر ونحن نستعد للرحيل. كان الرحيل صعبًا لكنه في السنوات الأخيرة صار أسهل. رحلت مع بعض الشبان إلى ليبيا. الوصول إليها لم يكن بنفس صعوبة ركوب البحر إلى الشواطئ الإيطالية. وفي إيطاليا بحثنا عن عمل. البعض وجد عملًا والبعض الآخر لم يجد. لم أجد شيئًا لأفعله في إيطاليا. مرت الأيام دون أن ألحق بأي عمل. ذات صباح ركبت القطار حتى وصلت باريس. كنت أريد عملًا. وإن لم أجد عملًا هنا لأكملت الرحيل إلى حيث يمكنني العمل. حتى لو عبرت المحيط. حين جئت لهذا المكتب عرفت أولجا قصتي فنصحتني بأن أهز رأسي. كنت ماهرًا في هز رأسي حتى أن أحدًا لم يمكنه كشف خدعتي. لكن يبدو أنني لم أكن ماهرًا لهذه الدرجة".

t.me/qurssan

بالكاد كان بإمكان عالية سماع قصة باها لأنه لم يتوقف عن البكاء. كان يائسا ومهزومًا لدرجة أنه أرهق نفسه بالحديث بلغة لم يتقنها بعد. لم يكن بإمكانها سؤاله مجددًا عن أسباب رحيله لأنها لا تعرف على وجه الدقة أسباب رحيلها. شعرت في هذه اللحظة أنه يختلق أسبابًا للرحيل. أسبابًا غير حقيقية. كما أسبابها، وكما أسباب أولجا، وكما أسباب الآخرين.

- "باها.. واضح أني ارتكبت خطأ كبيرًا" قالت عالية بصوت آسف ومهزوم. نظر لها باها مستفهمًا.

- "أنا يالي كشفت سرك.. قابلت مَرة يبدو إنها أكتر شر مما تخيلت.. أكتر حتى من أنها تستحق اللقب يالي عطته إياها أولجا.. بس أنا ما كِنت باعرف.. أنا ارتكبت خطأ كبير" لم يفهم باها لكنه أوقف بكاءه وابتسم ليخفف عليها الطريقة التي تلوم بها نفسها. في هذه اللحظة سمعت صوت صراخ في الخارج. قامت لتخرج وتبعها باها. في الخارج كانت أولجا تصرخ في فرنسيس. كانت تهدده بالرحيل عن المكتب. كان فرنسيس يقف أمامها بمظهر الشخص الذي ليس بيده شيء رغم أنه يملك المكتب والدار. خرجت سهيلة من الداخل حاملة حذاءها بأطراف أصابعها. عبرت بهم كلهم وعلى وجهها الابتسامة نفسها. لوّحت لفرنسيس مودعة وخرجت من المكتب حافية. كانت كإله غاضب أتم مهمته في تدمير العالم. شعرت عالية كما لو كانوا جميعًا يقفون على تل بينما العالم يغرق من حولهم في الطوفان، لكن لم تكن هناك سفينة في أي مكان، ولم يكن هناك شخص ليدلهم على النجاة.

t.me/qurssan

كانوا جماعة من اليائسين. جماعة من الغرقى. نظرت عالية لباها، لكنه لم يعد موجودًا في أي مكان. باها لغى وجوده من المشهد لينقذ الآخرين، لكن الآخرين لم يكونوا كأشخاص على وشك النجاة بل الغرق. فرنسيس دخل مكتبه دون أن يترك عبارة واحدة يمكن لصداها أن يتردد في المكان، ولا حتى ضحك ضحكات شريرة كما في الحكايات. انهارت أولجا على مكتبها كما لو أنها تلقت طعنة لتوها. كان المكتب الآن كمشهد من مشاهد نهاية العالم. انتهى العالم فجأة في لحظة كراهية غير أن أحدًا لم يكن يعرف أسباب كل هذه الكراهية التي زرعتها سهيلة في المكان، ولا الحكمة منها.

سهيلة كانت الآن تشرب كأسها في هدوء صباح باريسي. وكان يمكن رؤيتها الآن وهي تبكي. كانت كإله اختبر قدرته لتوه على التدمير، لكنه حين نظر للعالم لم يمكنه القول هذا حسن. كان العالم الذي صنعته سهيلة مرعبًا حتى لها. كانت قد اطمأنت الآن لقوتها لكنها لم تكن سعيدة بكل هذه القوة. كانت تخشى على نفسها من قدرتها على التدمير. في سرها - وفي أحلامها - كانت تعرف أنها سوف تنتهي لتدمير نفسها في النهاية. لم يكن أحد بمقدوره فهم سهيلة مثلما كانت تفهم نفسها. كان العالم - بالنسبة لسهيلة - خفيفًا كريشة لدرجة أن تدميره لم يكن يبعث على الأسى. والآن لم تكن تبكي إلا على نفسها. كانت خائفة، ولا يعرف أحد ما يمكن للخوف أن يفعله.

طوال الطريق للأوتيل كانت عالية صامتة، وواجمة، ومهزومة، وغارقة. كان كفها قابضًا على كتاب صغير، وكفها الآخر قابضًا على

t.me/qurssan

صـورة العقد بقوة تـكاد تمزقه. لكن تمزيقه الآن لم يكن ليعني شـيئًا. ميشـيل لم يحـاول سـؤالها. كانت معـه الآن وكانت تبدو قـادرة على الحياة وهذا كان يكفي.

فـي الأوتيـل ظلت صامتـة أيضًـا. ألقت بجسـدها على سـريرها. بالقـرب منها كانت ليلي تلعب بهاتف ميشـيل. ظلت عالية تنظر لليلي وكانـت تشـعر أنها مدينة بالاعتـذار لابنتها لكنها لـم تكن تعرف علام ينبغي أن تعتذر. ميشيل قرأ العقد. كان عرضًا سخيًا بالفعل. كان عليها ترجمـة روايـة لكاتب سـوري فـي غضون شـهرين مـن الآن. اندهش ميشـيل لأن العقد تضمن شـرطًا جزائيًا مرعبًا. كان على عالية أن تدفع للدار نفس قيمة أجرها لو أنها لم تسـلّم الترجمة في الموعد المحدد. كان عرضًا مزدوجًا. رهان متسـاو للطرفيـن. كان مبلغًا كبيرًا قد تحدد وكان علـى طرف مـن الطرفين دفع المبلغ للآخر. لكن كان على عالية وحدها تقديم شـهادة باستحقاقها هذا المبلغ. بعد شهرين سوف يدفع أحـد الطرفيـن المبلغ للآخر. بخبرة ميشـيل في العقـود كان يعرف أنه اختبـار أكثـر منه اتفاق. نظـر لعالية بتعاطف كبير. كانـت عالية ما تزال تفكر في السـبب الـذي من أجله عليهـا تقديم اعتذار لليلـي. أما ليلي فكانـت تلعـب وكانت ما تـزال لا تعرف عـن العالم أكثر مـن أنه لعبة للتسـلية. تسـلية لتمضية الوقت. عند هذه اللحظة فقـدت عالية وعيها مـرة أخرى. هذه المرة فقدت وعيها طواعية. كانت ترحل لكنها كانت ترحل عن العالم كله.

t.me/qurssan

5

عـادت أولجـا لبيتها فوجـدت زوجها فـي انتظارها. كان مبتسـمًا لكنهـا كانت خجلى منه فلم تسـتطع النظر إليه. بسـببها عبر ألكسـندر عدة آلاف من الأميال ليموت. يقول الكتاب المقدس إن ألكسندر كان مقدرًا عليه الموت في كل الأحوال، وهي - كمؤمنة - تصدق الكتاب المقدس، لكنها حين تختلي بنفسها - مثلما هي الآن - حتى في وجود ألكسـندر - تعرف أن الخمسة وخمسين يومًا التي قضياها في الطريق وهمـا يفران كان يمكن أن يفعلا فيها الكثير من الأشـياء التي ليس من بينها الفرار من الموت.

أولجـا كانـت نادمـة أيضًـا لأنهـا - بينمـا كانـت ترتـب حقائـب هروبهما- نسـيت الكاميرا الخاصة بها. أعارتها قبل أيام لصديقة وفي وسـط انشـغالها بترتيـب أغراضها نسـيت - أو لعلها تكاسـلت - عن اسـترادادها. كان يمكن أن تحتفظ بعشـرات الصور لها ولألكسندر في الطريـق. فـي كل مدينة مرا بها، عند سـفح كل جبل، كل جسـر عبراه، كل شـارع، كل ناصية. لكن لأنها نسـيت اسـترداد الكاميرا فقدت كل هـذه الصـور التي - بدلًا من أن تكـون معلقة على الجـدار - انطبعت فـي ذاكرتهـا، لكنها - ولكننا - للأسـف - لن يكون في اسـتطاعتها -

t.me/qurssan

ولا استطاعتنا - المرور بمكتب تصوير لتطلب - ولنطلب - منه طباعة الصور المنطبعة في ذاكرتها - أو ذاكرتنا.

خطر لأولجا الآن أنها بسبب نسيانها - أو تكاسلها - سوف تتسبب في موت ألكسندر مرة ثانية حين تموت. حين تتوقف عن سرد حكاية هروبها معه. وبعد سنة أو سنوات من الآن لن يكون في مقدور أي شخص تذكر ألكسندر، ولا تذكرها. بالنسبة لها كان تذكرها أمرًا لا لزوم له، لكن ألكسندر! ألكسندر كان يستحق أن يُخلّد؛ لأنه كان رجلًا جيدًا. لا يقابل المرء رجلًا جيدًا مثل ألكسندر كل يوم أبدًا.

كانت ابتسامته كما هي، وكان يمكنها من مكانها عند باب الشقة - لو أنها تخلت عن خجلها ورفعت نظرها - رؤيته واقفًا جوار المدفأة ينظر إليها، لكنها كانت تعرف أنه غير موجود الآن، لأنه كان موجودًا في نفس مكانه وعلى وجهه الابتسامة نفسها منذ مات. يوم مات عادت من جنازته فرأته واقفا عند المدفأة مبتسمًا، ومن يومها ظل واقفًا هكذا طوال الوقت، حتى في الأوقات التي عاشت فيها ماري معها. وطوال الوقت كان واقفًا ليلقي لها بطوق نجاة في الأوقات التي كانت فيها في حاجة لطوق نجاة. وهو ما يعني في أوقات مثل تلك.

شعرت أولجا - مثلما شعرت عالية في المكتب - أن العالم ينتهي وأنهم جميعًا يغرقون. بالنسبة لأولجا كان شعورها بالغرق ناجمًا عن فقدانها كل قدرة على أن تكون جادة وهي تهدد فرنسيس بالرحيل. كانت تصرخ فيه وتهدده بالرحيل عن المكتب، وكان فرنسيس واقفًا

t.me/qurssan

أمامها وكان يرتجف من الخوف غير المبرر، لكنها بينها وبين نفسها كانت تعرف أنها لن تجرؤ على الرحيل. ليس فحسب عن المكتب ولكن أيضًا عن باريس. بعبورها - مع ألكسندر - الطريق من شرق القارة لغربها فقدت كل الطرق. كما لو أن الأرض قد انشقت فجأة وكما لو أن الشق أخذ يتسع وطرفي الأرض أخذا يتباعدان كلما خطت خطوة جديدة نحو الفرار. كانت قد صارت في نصف الكرة ولم يعد الوصول إلى نصفها الآخر ممكنًا. كان ألكسندر واقفًا مبتسمًا وعلى وشك إلقاء طوق النجاة حين رن هاتف أولجا. كان فرنسيس يطلبها. ظلت تنظر لشاشة الهاتف وقرأت الاسم عشرات المرات لكنها لم ترد، ليس لأنها غاضبة، ولكن لأنها كانت تعرف أن فرنسيس لا يصلح أن يكون طوق نجاة.

عند تقاطع شارع سيباستبول وطريق أورس كانت سهيلة جالسة على طاولة في مطعم ساكر فرانشيه بالقرب من النافذة المطلة على طريق أورس. كانت جالسة تأكل طبقًا من لحم الضأن الذي طلبت ألا يكون مطهيًا جيدًا، وطبقًا من البطاطس المهروسة، وبين الحين والآخر كانت ترشف كأسا من النبيذ الأحمر. كانت تأكل بهدوء مستمتعة بوجبتها وعينها - خلال النافذة - على الخارج. لم يكن هناك عدد كبير من السائحين - على غير العادة - فاستطاعت أن تنعم - فضلًا عن الوجبة اللذيذة - بالهدوء الفرنسي. كانت الموسيقى تتسرب بنعومة خلال مسامها فشكرت الله - الذي لم تكن تثق كثيرًا في وجوده - على أن الأرض ما زال فيها مكان يمكن للمرء أن يسعد فيه بحياته.

t.me/qurssan

كان التدخين ممنوعًا داخل المطعم - كما هو في كل مكان فاضطر رجل باريسي للوقوف في الخارج لتدخين سيجارة بينما كان يناقش مع صديقة تفاصيل لقائهما في المساء. الرجل تبادل مع سهيله النظر والابتسام بتأدب ومن الخارج لم يكن في حاجة لفطنة كبيرة كي يعرف أنها تتطلع لقدوم شخص ما لأن عينيها لم تتوقفا عن النظر إلى الشارع. حين انتهى من مكالمته وسيجارته عاد للداخل. كان الجو دافئًا فخلع معطفه وبدّل مكان جلوسه ليستطيع مراقبة سهيلة. تابعها وهي تأكل. ولأنه كان بارعًا في لعبة التوقع راهن نفسه على الشخص الذي تنتظره. كانت طريقتها في الأكل توحي بأنها في لحظات نشوتها. ولأنها تترقب - كما يتوقع - ظهور رجل استنتج أن نشوتها سببها توقعها المغادرة مع الرجل لمكان ما. فكّر: هي امرأة توشك على الخمسين لكنها ما زالت كفاكهة ناضجة. في عينيها تطل نظرة تشي بقلة خبرتها فيما يتعلق بالتعامل مع الرجال. من الطريقة التي تجلس بها مباعدة بين ساقيها استنتج بأنها تحب الاستسلام للرجال ولعب دور المرأة على الطريقة الكلاسيكية. غير متطلبة وهذا ما استنتجه من طريقتها في التهام الطعام على مهل. لكل هذا استبعد أن تكون في انتظار شاب. لأن النساء غير المتطلبات - كما عرفهن - لا يقعن فريسة لإغواء الشبان الأصغر منهن بسهولة.

توقّع أن يدخل الآن رجل في منتصف الخمسينيات. فارع الطول لأنها كانت طويلة. وسيم. لسبب ما تخيل شكل آلان ديلون في فيلم لا يتذكر اسمه. شعره الأبيض المصفف بعناية. ونظرته الحالمة

t.me/qurssan

، معطفه الجديد. لكن الشخص الذي وصل الآن والذي رحّبت به سهيلة لم يكن يشبه آلان ديلون في شيء، ولا يشبه أي رجل كان يتوقع قدومه. الشخص الذي وصل كان متوسط الطول، نحيلا، ومرتبكا، وغالبًا لم يكمل عامه الخامس والعشرين بعد، وبالنظر لسمرته يمكن توقع أن يكون موطنه باكستان مثلًا. كان - بهيئته تلك وبمعطفه الرخيص وقبعته المحلية - يبدو نشازًا على مائدة امرأة كتلك. توقع الرجل أن يكون مجرد رسول أرسله الرجل الذي كان يتوقع وصوله لينقل لها اعتذاره عن الحضور كما في الأيام الخوالي. توسل إلى الله ليكون مجرد رسول لكي يفوز بلعبة توقعه التي يزجي بها الوقت، لكن الشاب لم يكن مجرد رسول لأحد فقد نظرت له سهيلة نظرة من كانت تتطلع لوصوله هو وليس شخصًا آخر. ولهذا فإن الشخص الذي وصل الآن لم يجلس في المقعد المواجه لها فقط لكنها أيضًا طلبت له طعامًا، كما مسحت شفتيها معلنة توقفها عن الطعام.

لم يكن الرجل قريبًا بما يكفي ليسمع سهيلة وهي تقول للقادم الذي حاول - بأدب - منعها عن طلب الطعام من أجله.

- "من الأفضل أن تأكل طعامك أولًا قبل مناقشة أي شيء يا باها فلا تكن لحوحًا".

بقدر الرقة التي قالت بها الجملة بقدر ما كان فيها من نغمة آمرة. كان صوتها رقيقًا وحادًا كسكين سويسري. انتظر باها طعامه لكن الرجل لم يمكنه الانتظار أكثر من ذلك. أنهى طعامه منذ قليل وكان

t.me/qurssan

فقـط ينتظـر لحظة دخول آلان ديلون ليطلب حسـابه ويغادر مسـتمتعًا بانتصـاره. لكنه الآن وجد نفسـه مضطرًا للاستسـلام. طلـب الفاتورة ودفع الحسـاب، ولأنه قد خسر رهانه لتوه لم يترك أي بقشيش. وعلى أي حال لم يكن أحد يتوقع بقشيشًا من رجل باريسي مهووس بذكائه. حيـن كان خارجًا من الباب نظر لسـهيلة بغضب شـديد كما لو أنها قد تعمدت خداعه، حتى أنه كان يرغب في أن يصفع الباب خلفه لولا أن الباب لم يكن من الأبواب التي يمكن صفعها في وجه أحد. سهيلة لم تلحـظ الرجل ولم تلحظ بالطبـع نظرته الغاضبة لأنها كانت مشـغولة بباهـا. لكـن باها كان مرتبـكًا وكان يجـول ببصره في كل مـكان بحثًا عن نقطة مناسـبة للتحديق لهذا فإنه لاحـظ النظرة الغاضبة التي ألقاها الرجل على سهيلة.

- "هـل تعرفيـن هـذا الرجل؟" سـأل باهـا بسـذاجة، وكان الطعام يُرص على مائدتهما.

نظرت سهيلة للرجل وكان الآن مارًا في الخارج أمامها.

- "لا.. لماذا تسأل؟" سألت بلا مبالاة.

- "ظننت أنه صوّب نحوك نظرة غاضبة" قال باها فابتسمت سهيلة.

- "يغضب الرجال من النسـاء اللاتي يتجاهلنهم" قالت ثم أشارت له ليبدأ في الأكل.

- "مـاذا كان يريـد؟" قال مرتبكًا وهو يبدل الشـوكة والسـكين بين كفيه ليتأكد من أنه يستخدمهما بطريقة صحيحة.

t.me/qurssan

- "ما يريده الرجال من النساء" قالت وهي تلتقط من يده الشوكة والسكين وتبدأ في تقطيع اللحم في طبقه. ثم أضافت "وما تريده النساء من الرجال".

شعر باها بالحرج. لم يتحدث مع امرأة من قبل بهذه الطريقة المكشوفة. بخيال شاب غير مجرب يجلس أمام امرأة مجربة وقادرة على الإطاحة به في لحظة تسرب له قلق. خطر له أنها تنوي إغواءه. ظل يراقب طريقتها في تقطيع اللحم في طبقه كما لو كانت تقوم بتقطيع جسده فتألم وشعر بحرارة مفاجئة. سهيلة لم تكن مخيفة فقط لكنها أيضًا كانت خطرة لدرجة أنها كانت قادرة على قراءة ما يفكر فيه المرء.

- "لا تقلق فليس في نيتي التهامك" قالت وهي تحدق في عينيه فشعر أنها تخترق وجوده.

- "لماذا لم تفكر فيّ كامرأة يا باها؟.. خطر لي أن أسألك هذا السؤال الآن.. ألا تراني امرأة جميلة؟!". كانت قد طمأنته حين قالت إنها لا تنوي التهامه وها هي الآن تهاجمه بشراسة. لم يجب باها. نظر لها وابتلع لعابه وشعر أن هذا كافيًا.

- "الرجال يا باها يفكرون في المرأة.. في أية امرأة.. حتى ولو في أحلامهم.. لكني أراهنك على أنك لم تفكر فيّ حتى في أحلامك". لم يجد باها شيئًا مناسبًا ليقوله ولم يجد حتى القدرة على ابتلاع لعابه.

t.me/qurssan

- "هذا يجعلني أشعر بالأسف يا باها". تجمد تمامًا.

- "أنا لا ينقصني الرجال لهذا فأنا لا آسف لأنك كرجل أفلت من الوقوع في سحري.. لكني آسف عليك لأنك بذلك تدلل على أنك لست رجلا". طعنته الآن بسكينها السويسري.

- "أتعرف لماذا طلبت من فرنسيس طردك؟" سألت فانتبه باها الذي كان يفقد وجوده أمام مهاجمتها.

- "لم أكن في حاجة لأن يخبرني أحد بأنك تهز رأسك محاولًا خداعي.. كانت لديّ شكوكي.. لقد كنت تهز رأسك أكثر مما ينبغي كشخص يحاول التمويه على سر.. كانت لديّ شكوكي لكني لم أهتم.. كنت حشرة أخرى تحاول الخروج من شق في حائطي لتجد ما تطعمه".

- "لكن حين حكت لي عالية عن صديقها الذي يهز رأسه محاولًا خداع الجميع شعرت بالإهانة".

- "ليست لديّ غضاضة يا باها في أن تشاركني حشرة طعامي لكني لم أحتمل أن تهزأ بي يا باها.. نعم أنت رغبت في أن تهزأ بي.. هز رأسك كان خدعة طيبة لكن التفاخر أمام الآخرين بأنك قادر على خداعي أجبرني على مطاردتك".

- "أنت ضعيف يا باها.. ضعيف حتى أنك لم تتجرأ على التفكير في امرأة.. مجرد امرأة.. ولا على تعريتها في خيالك.. أنا أقوى منك

t.me/qurssan

لهـذه الدرجـة يا باها.. فالرجـل حين يفكر في امرأة فإنـه يصبح أقوى منهـا.. يسـتطيع امتلاكها.. حتى ولـو لم يتجرأ على البـوح لها.. حتى نجمـات هوليوود يا باها.. نجمـات هوليوود ضعيفات لأن أي مراهق يمكنـه امتلاكهن في أحلامه.. لن يمكنك غلـب امرأة يا باها لم تُعرِّها فـي أحلامك.. أنت ضعيف يا باهـا.. وكان عليك التفكير في ضعفك قبل أن تتفاخر بخداعي".

باها شـعر كأنه فريسـة تتعرض للالتهام. كان كغزال صغير وقع في أسـر القوة الهائلة لأسـد جائع. كان غير قادر على المقاومة فتضاعف شـعوره بالألـم. كان ضعيفًـا بالفعـل. أضعـف حتـى مـن أن يقـاوم. كان بالطبـع قـد توقف عن الأكل. يحاول السـيطرة على جسـده حتى لا يرتعـش أمامها. كان ثباته وهو يتعرض للافتـراس أكثر فعل مقاومة يمكنه فعله. كان مشـهدًا من المشـاهد التي يتعلم منهـا المرء كيف أن الاستسلام يمكن أن يكون فعل مقاومة.

- "لقـد انتهيت منك يا باها.. لقد عاقبتـك وانتهى الأمر.. يمكنك الآن أن تعـود لعملـك.. ولا داعـي بالطبـع لمعاودة هز رأسـك.. لقد طلبت من فرنسيس إعادتك وقد أبلغ صديقتك أولجا بذلك.. على أية حال طلبت أن أجلس معك لكي تتعلم يا باها.. كان درسًـا قاسـيًا لكن تعلّم أن تكون دروسك القاسية مفيدة".

قالت سـهيلة كل هذا لأنهـا كانت اكتفت بالفعل. قالتها كشـخص يحـرك طبق طعامـه بعيدًا لأنه اكتفى، لكـي يُعلِم النـادل أن عليه إبعاد

t.me/qurssan

الطبق وإحضار طبق التحلية. كانت الآن في انتظار طبق تحليتها. كانت تعرف أن باها سوف يعتذر، سوف يحاول تبرير خطأه، سوف يتحجج بالظروف، ثم يبدأ في شكرها، وتمني لها الخير الكثير. لكن باها لم يفعل. كان يشعر بالإهانة. إهانة أكبر من إهانة سهيلة. شعر بأن العالم قد أهانه. في الظروف التي كان فيها يشعر بإهانة أقل من هذه كان يذهب للنوم. كان يهرب. لكن الإهانة هذه المرة بدت كتعرض امرأته للاغتصاب أمام عينيه. الاستسلام لم يعد كافيا لمقاومة الافتراس. كان عليه أن يقاوم أكثر. أن يحتج. أن يتحدى. أن يبادل الطعن بأنيابه. باها اختار أفضل الطرق لفعل ذلك، أفضل الطرق وأبسطها. باها قام فغادر المكان بهدوء بعد أن قال بعبارة فرنسية قصد أن تكون واضحة.

- "لن أعود للعمل معك مرة أخرى.. شكرًا على الدعوة لكني لم أعد مهتمًا بالعمل معك.. وبالمناسبة أنا لم أفكر فيك كامرأة لأنك لا تعجبينني.. ولأنك أكبر مني بدرجة تجعل التفكير فيك يبدو كزنى المحارم".

لسبب لا يعرفه باها - ولن يعرفه حتى مستقبلًا - أمسك الفوطة ومسح شفتيه رغم أنه لم يأكل شيئًا. كانت سهيلة ممسكة بكأسها بانتظار التحلية، ولما لم تأت اضطرت لتحطيم كأسها، حتى أنها جرحت يديها. لم يكن باها هنا للأسف وإلا لأصبحت لديه أسباب أخرى للتفاخر.

في الخارج وقف باها عند الناصية. كانت إشارة المرور مغلقة أمام المارة لكنه رغب في المجازفة بعبور الطريق، فعبره.

t.me/qurssan

ألبير وصل للمركز الطبي بصحبة فتاة لم يرها ميشيل من قبل. الفتاة كانت رقيقة للغاية لأنها أخذت ليلي معها إلى الكافيتريا مُفسحة لألبير وصديقه مساحة لينفردا معا. سأل ألبير عن عالية - والتي لم يكن قد نعرف بها حتى الآن - باهتمام. فطمأنه ميشيل بأنها صارت أفضل الآن وإن كانت ما زالت في حاجة لراحة حقيقية. كانت منهارة عصبيًا ولن نفيدها المهدئات إن لم تبعد نفسها - أو يجبرها الآخرون - عن أي ضغوط.

- "أنت زوج جيد يا ميشيل" قال ألبير.

- "لكننا لم نتزوج" قال ميشيل.

- "لا يهم.. هذه نقطة فرعية.. الزوج الجيد يا عزيزي هو الذي يجلس على نفس المائدة.. مهما كان الطعام طيبًا أم لا.. أما الزوج غير الجيد مثلي فإنه لا يتنازل أبدًا عن أن يكون الطعام ممتازًا.. يتنقل بين مائدة وأخرى طالما وجد طعامًا جيدًا.. لكنه للأسف يا عزيزي.. في النهاية إما أنه سوف يزهد الطعام وإما أن معدته لن تتحمله مرة أخرى.. لهذا أقول إنك زوج جيد يا عزيزي حتى ولو لم تتزوج.. لهذا فأنا أشعر نحوك بالحسد".

- "تصلح هذه أن تكون نظرية طيبة.. عليك بالبدء في كتابتها" قال ميشيل ساخرًا بالقدر الذي سمح له قلقه المتزايد على عالية.

- "على أي حال طلبت حضورك لأمر آخر" نظر ألبير مستفهمًا. حين طلبه ميشيل ظن أنه في حاجة للمال، ولهذا اقترح على صديقته أخذ الطفلة بعيدًا حتى لا يشعر ميشيل بالحرج في طلبه.

t.me/qurssan

- "طلبت حضورك لأسألك عن امرأة كانت في جناحك ليلة عيد الميلاد".

- "أنا شخصيًا لم أحضر هذه الحفلة يا عزيزي" ضحك ألبير.

- "أعرف.. لكن على الأقل أنت تعرف ضيوفك. كانت هناك امرأة عربية تسمى سهيلة.. أريد أن أعرف من تكون؟" سأل ميشيل. حاول ألبير التذكر. كرر نطق الاسم عدة مرات كما لو أنه يستدعي عفريتًا. في النهاية تذكر.

- "سهيلة.. شاعرة عربية.. واحدة من المثقفات الكبيرات في بلدها فيما أظن لأن الصحافة في فرنسا...". قاطعه ميشيل.

- "ليس هذا ما أردت معرفته.. لقد بحثت عنها على الإنترنت وعرفت أكثر من ذلك بكثير. ما أردت السؤال عنه هو مدى قوتها. يبدو أن لها سطوة كبيرة على دار نشر تدعى...".

- "هذا لأنها من النادي" قال ألبير مقاطعًا.

- "أي نادٍ؟" سأل ميشيل.

- "أخوية ما.. هي عضوة في أخوية يهودية أو يسارية أو يهودية يسارية ما.. أخوية من الأخويات التي تمزج بين أشياء لا يمكن المزج بينها".

- "ولماذا لها كل هذه السطوة على مالك الدار؟".

- "فرنسيس؟.. لأنها أقدم منه في الأخوية.. هذا كل ما في الأمر" قال ببساطة.

t.me/qurssan

- "لا يبدو لي سببًا معقولا" قال ميشيل.

- "أخبرني عن شيء واحد له سبب معقول يا عزيزي" قال ألبير ساخرًا.

- "قلت لك حين كنا في بيرن إن السياسة ماتت منذ زمن.. ومنذ أن حل الاتحاد الأوروبي محل القوميات والليبراليون الجدد محل السياسيين لم يبق للمرء إلا الدين والأخوية ليحتمي بهما.. نحن كائنات تشعر بالضياع يا عزيزي.. تشعر بأنها معلقة على جدار بدبوس.. وهي تحتاج لأن يحميها شيء".

شرد ميشيل. لم يكن يتخيل المسألة بهذه الصورة. لم يكن حتى قادرًا على تصديقها. كان يتوقع أن يخبره ألبير بأن سهيلة شريكة فرنسيس مثلًا في الدار أو بأنها رئيس مجلس الإدارة أو شيئًا من هذا القبيل، لكن ما لم يتوقعه أن تكون سهيلة بكل هذه القوة لمجرد أنها انتمت لأخوية ما قبل فرنسيس.

- "نسيت أن أخبرك بأني عازم على العودة للعمل" قال ميشيل. احتضنه ألبير حتى أنه اعتصره بجسده الضخم.

- "هذا خبر سعيد.. يمكنك العودة للستديو في أي وقت.. لو لم نكن في مركز طبي لدعوتك للاحتفال". كان ألبير صادقًا في فرحته حتى أن ميشيل شعر بالحماس.

- "لا.. لن يكون في مقدوري العودة الآن.. سوف يكون أمامي على الأقل شهران" فترت سعادة ألبير وحماسه لكنه لم يسأل عن

t.me/qurssan

الأسباب، لأنه اعتاد ألا يسأل أحدًا عن شيء لم يخبره به من تلقاء نفسه.

- "هذا يشبه العودة لنقطة البداية لاستئناف المسير" قال ألبير سعيدًا.

***

"عزيزتي عالية.. حاولت الاتصال بك لكني وجدت هاتفك مغلقًا. أردت فقط إخبارك بأن فرنسيس أبلغني لتوه بأنه أعاد باها للعمل. لقد هددت فرنسيس بالرحيل عن المكتب ولهذا السبب قرر إعادة باها. لن تخيفنا عاهرته مرة أخرى يا عزيزتي.

ملحوظة: عرفت أيضًا أنك وقّعت العقد. يبدو أننا سوف نجتمع معًا مرة أخرى لنسعد بوقتنا. تحياتي للجميلة ليلي ولصديقك الطيب ميشيل. أحبك".

هذا نص رسالة لن يكون في مقدور عالية قراءتها إلا بعد أيام، حين تقطع - بصحبة ميشيل وليلي - بضع مئات من الأميال للوصول إلى بلدته.

t.me/qurssan

6

كانت المرة الأولى تقريبًا التي تحظى فيها عالية بغرفة خاصة. حتى وجود ليلي معها لم يقطع هذه الخصوصية، لأن ليلي - منذ جاءوا إلى هنا - لا تدخل الغرفة إلا للنوم. قبل وصولهم أبلغ ميشيل أمه بقدومهما. ميشيل كان الابن المحبب لجانيت لذا فقد أخلصت في إعداد كل شيء ليكون على أفضل ما يكون عند وصول ابنها وضيفته. وفي قريرتها أجّلت التفكير في الشعور بالقلق حتى ترى المرأة التي يصاحبها ابنها هذه الأيام. وجود ليلي - التي يبدو أن ميشيل لم يذكرها في اتصاله سهوًا - طمأنها بشدة. وجود ليلي يعني علاقة عابرة أو علاقة دائمة، وهذا فقط ما كانت جانيت تقبل أن يتورط فيه ابنها. علاقة طويلة غير دائمة كانت تعني ألمًا كبيرًا وهدرًا لسنوات وفرص جديرة بأن تُهدر بطريقة أفضل.

كانت الغرفة في الدور الأعلى من البيت المكون من دور أرضي ودور علوي فقط. كان بيتًا ريفيًا، لكنه - مقارنة بالبيوت الريفية التي عرفتها - كان واسعًا ومنسجمًا وله ذوق كلاسيكي. كان يشبه البيوت الريفية التي كانت تراها في الأفلام والتي لم تكن تصدق أن الفلاحين

t.me/qurssan

يسكنونها حقيقة. من خلال النافذة التي كان يقبع أسفلها مكتب صغير كان يمكنها - وهي جالسة - التطلع للمزارع. كانت سهولًا ممتدة إلى ما لا نهاية. كانت خضراء. خضراء أكثر مما ينبغي لأن موعد قطف العنب قد انقضى في سبتمبر. ورغم أنها - كشابة نصف ريفية - كانت لها خبرتها بالمزروعات بالكاد - في الطريق - تعرفت على بعضها لكن المزارع الخاصة بعائلة ميشيل كان أكثرها مزارع للعنب. ورغم جمال السهول أمام عينيها لم تتمكن من تجاوز حنينها للتلال التي كانت تطل عليها نافذة بيتهم. التلال كان لها سحرها، في الطريق رأت تلالًا مشابهة حتى أنها منّت نفسها بأن يكون بيت ميشيل أعلى تبة مثلما كان بيتها، لكنها حين وصلت خاب أملها. حكايات الجدات كانت ممكنة فقط في التلال؛ لأن كل طريق كان يتلوى بينها لم تكن معروفة نهايته. أما هنا فالأرض المنبسطة أمامها لا توحي بشيء، ككف يد بلا خطوط. وإن كانت أكثر شعورًا بالراحة وهي تتطلع لانبساطها كما لو أنها - بقدر حنينها للسحر - ضجرت من تعقيدات حياتها.

استقبلتهم أم ميشيل بترحيب ذكّرها بطريقة أمها في الترحيب بالضيوف. العبارة الوحيدة تقريبًا التي لم تقلها أم ميشيل هي "زارنا النبي". امرأة قصيرة وذات جسد ضئيل ورغم عمرها كانت مفرودة الظهر. كانت تخفي تقوسه بعزيمة جبارة. وكانت جميلة أكثر من المعتاد لامرأة في مثل سنها. شعر قصير مصفوف ومعتنى به. ورغم برودة الجو ارتدت ما يشبه جلبابًا عربيًا من الكتان الأبيض وفوقه غطاء

t.me/qurssan

مـن القطيفـة النبيذية. وفـي أذنها تدلى قرط فضي فـي نهايته خرزة من العقيـق الأحمـر. وشـفتاها طلتهما باللون نفسـه. اسـتقبلتهم بود كبير وأبـدت اهتمامًا أكبر بالطفلة ولامت على ميشـيل عدم إخبارها. ليلي بدورها تعلقت بها سريعًا.

وصلـوا فـي الصباح - وعلى عكـس باريس - كانت الشـمس في الأفق مبتسـمة. صحيح أنها اختفت سـريعًا كفتاة خجلى من الضيوف لكن الوقت الذي ظهرت فيه في السـماء كان كافيًا للشـعور بالسعادة. أم ميشيل أعدت لهم فطائر محلية وقعت ليلي في غرامها فورًا. طلبت المزيـد بإلحـاح، فطلبـت منهـا عالية التوقـف حتى لا تُرهـق معدتها. جانيـت - على عكس الجدات - دعمت عالية، وأخبرت ليلي أن هذا فـي مصلحتها حتى لا تصبح في المسـتقبل فتاة بدينـة، وأكدت "الفتاة البدينة لا تحصل أبدًا على شـاب وسيم". الغريب أن ليلي توقفت كما لو كانت حجة جانيت أقنعتها. عالية ابتسمت. ومن مكانها كان يمكنها مشـاهدة صورة لوالد ميشيل. كان رجلًا وسيمًا للغاية حتى أنه - رغم حداثة الصورة - يبدو أكثر وسامة بكثير من ميشيل نفسه.

ميشيل في بيته كان شخصًا آخر. كان هو نفسه لكن مستريحًا أكثر، ما ذكّرها ببيتها. لو أنها عادت لبيتها هل ستكون هي نفسها لكن مستريحة أكثر مثل ميشـيل؟ كان سـؤالًا خاطفًا لكنه عكّر صفحـة مزاجها الذي بـدأ في التحسـن، ففضلًا عن أنها تتوقع ألا يكـون بيتها في مكانه فإنها أيضًا لو عادت فلن تكون هي نفسـها. الحقيقة أننا لا نكون أنفسـنا أبدًا

t.me/qurssan

مرتين لكن لعالية أسبابها في التفكير في نفسها كشخصية استثنائية. الحقيقة أننا لا نفكر في أنفسنا أبدًا إلا على هذا النحو، فعلى الأقل يجنبنا ذلك الشعور بأن تعاستنا متشابهة ومثلها مثل آلاف التعاسات الأخرى. يسعدنا التفكير في أننا مميزون حتى في الشعور بالتعاسة. ولو أنها قرأت أفكار ميشيل - الآن - لبدا لها كم هي مخطئة.

ميشيل لم يكن مستريحًا إلى هذه الدرجة التي تصورتها عالية. كان مستريحًا حتى الآن، لكنه كان يعرف أن وجوده قد يتسبب في كثير من التوتر، لهذا فإنه في قراره عزم على الرحيل فورا إذا تأزمت الأمور، وطالما تأزمت الأمور في كل زيارة على تباعد الزيارات. كان يشعر بنفسه كرجل من الماضي، وكما في المسرحيات الأمريكية التي قرأها في شبابه وكرهها فإن عودته قد تتسبب في استعادة الماضي كله دفعة واحدة. جانيت وابنها برنارد وزوجته سيمون وأطفالهما، وحتى والده - الغائب بالطبع والمتوقع ظهوره في أية لحظة - كانوا كلهم شخصيات تعيش في الحاضر، في حاضرهم، ولكي يعيشوا كان عليهم التنكر للماضي، أو على الأقل تجنب تذكره، والانشغال بالمستقبل، أو حتى بالحاضر، موعد قطف العنب، السعر الذي سوف يدفعه التاجر في المدينة، الدقيق اللازم لإعداد فطائر جانيت، في الأطفال، في مدارسهم، في خطط حمايتهم من الأنفلونزا لنهاية الشتاء، لكن حضور شخص مثل ميشيل، لم يكن معهم حين جرى ما جرى، أو حين جرى التفكير في كل هذا، سوف يكون كشخص خارج

t.me/qurssan

حاضرهم ومستقبلهم، ولأنه - الغائب أكثر الأوقات - لا وجود له في حاضرهم ومستقبلهم فلن يكون له حضور أبدًا غير في ماضيهم، وماضيهم شيء يحاولون - كلهم - نسيانه، ليس كوصمة لكن كشيء لم يعد النبش فيه مجديًا.

لكن لا جانيت ولا برنارد - وبالطبع سيمون - لم يفكرا في ميشيل أبدًا على هذا النحو. صحيح أن حضوره في الزيارات الماضية شهد بعض الحوادث المؤسفة لكن هذه الحوادث تحدث دائمًا سواء كان ميشيل موجودًا أم لا كان جاري- والد ميشيل - مزعجًا. بعد عامين من انفصالهما عاد مجددًا لكن جانيت رفضت أية محاولة لإصلاح الأمور، ومنذئذٍ لم يفقد الأمل أبدًا. وطوال السنوات الأخيرة اعتبر حضوره إلى البيت لاستجداء المحبة طقسًا أسبوعيًا. بعد فترة من تكرار الطقس اعتاد الجميع عليه فأصبحت رؤيته في البيت والمزرعة معتادة. حتى أن رؤيته راكعًا أمام جانيت بصورة مفرطة في عدم واقعيتها صارت معتادة - وغير ملفتة للنظر - أكثر من رؤية الشمس وهي تشرق وتغرب كل يوم وليلة دون كسل. لكن لأن ميشيل لم يكن ضمن الجمهور اليومي لمثل هذه المشاهد اعتبر حدوثها أمامه وأثناء زياراته القصيرة حدثًا استثنائيًا ومربكًا. وعليه شاب اجتماع شمل العائلة سوء تفاهم متبادل على هذا النحو.

حين وصلا كان برنارد وزوجته غير موجودين لهذا أمكن لعالية وليلي التعرف على الأبناء الثلاثة لبرنارد. ميشيل بدا كأنه يتعرف

t.me/qurssan

عليهم للمرة الأولى. لكن الحقيقة أنه كان قد تعرف على الابن الأكبر ذات مرة. في آخر زيارة كانت الابنة الوسطى مختبئة طوال الوقت من الخجل فيما كان الابن الأصغر في بطن أمه ما يزال. جانيت قالت ساخرة وهي تردد أسماءهم إن سيمون - أمهم - حامل، وعلى وشك الولادة.

- "أخوك يرغب في أن تكون له إمبراطورية". قالت جانيت.

ابتسم ميشيل ولم يعلق. كان برنارد بالفعل تحول مع الوقت - وبعد قراره بعدم استكمال دراسته - إلى رجل في طريقه لصنع إمبراطوريته. في الزيارات السابقة كان يكتشف كم ينضج مثلما ينضج العنب على الشجر. برنارد لم يكتف برعاية مزرعة العائلة بل اشترى أيضًا مزرعة أخرى. مزرعة بعيدة إلى حد ما لكنها ليست بعيدة بالقدر الكافي الذي يجعله يستقل في السكن عن أمه وعن بيت العائلة.

- "ما رأيك أن تشاركني يا ميشيل؟" سأل برنارد الزيارة الماضية.

- "لم يتبق معي الكثير" قال ميشيل صادقًا.

- "حتى هذا القليل يمكنني أن أجعله أكثر مما تتخيل" قال برنارد بثقة.

- "لم أتخذ قراري بعد بشأن المستقبل".

- "لا أتصور كيف أن شخصًا مثلك لا يعمل. لا يمكنني تصور أن شخصًا لا يقضي يومه في العمل. العمل يا عزيزي هو ما يجعل الحياة

t.me/qurssan

ممكنة. حين أعود نهاية اليوم حيث تكون عظامي على وشك التحطم أشعر فقط بأني حي".

كان برنارد فخورًا بنفسه وبعمله ولم يتحمل ميشيل كل هذا الحديث عن العمل فقرر يومها قطع زيارته فجأة.

ليلي انضمت للعب مع الابن الأكبر فورًا. جانيت أشارت لعالية أن تطمئن حين جر الولد ليلي للخروج معهم. أمام البيت كانت مساحة مخصص نصفها للسيارات ونصفها الآخر لحظائر الدواجن والديكة التي كان يمكن سماع صياحها. بعد لحظات كان تميز صياح الديكة من صياح ليلي والأولاد متعذرًا. من خلال الباب الواسع رأت عالية كلبًا قادمًا يجري. كان أكبر حجمًا من الولد الأكبر لكن يبدو أنهما كانا صديقين لأن الكلب قفز على الولد فأسقطه وظلا يتمرغان على أرضية الفناء بمرح طفولي. وإلى جوارهما كانت ليلي تضحك بسعادة. بعد أن هدأ الكلب قليلًا فوجئت بليلي تلعب معه. لم تكن تعرف أن ليلي تحب الكلاب. متى تعرفت ليلي على الكلاب كي تحبها؟ كانت شاردة حتى أنها لم تسمع سؤال جانيت التي اضطرت لإعادته.

- "كم مكعبًا من السكر ترغبين؟".

- "مكعبين".

- "أنا أشرب الشاي بدون سكر.. أضع اللبن للتحلية مرة في اليوم فقط".

t.me/qurssan

كانت جانيت تصب الشاي حين وصل برنارد وسيمون. برنارد أقصر من ميشيل وأقل وسامة بشكل ملحوظ، كما كان بدينًا بعض الشيء. كانت لحيته غير مشذبة، وكان يشبه فلاحًا حقيقيًا رغم أنه صار الآن يمتلك مزرعة أكبر مما تمتلك عائلته مجتمعة. أما سيمون فنحيفة. أطول من زوجها ببضعة سنتيمترات. يبدو حملها كما لو كان مجرد انتفاخ بسيط في المعدة بسبب أكلة دسمة. في عينيها شراسة غير مفهومة رغم وجهها الطيب. خجولة لأقصى درجة، ولأنها لم تغادر بلدتها حتى للدراسة في المدينة كانت تخشى سخرية الآخرين دائمًا، لهذا كانت تفضل عدم التورط في أي مناقشة مهما كانت، حتى ولو بخصوص تربية الأبناء، وهو الشيء الوحيد تقريبًا الذي كانت لديها ثقة كبيرة في فهمها له. برنارد قابلهما بحفاوة شديدة. كان من السهل رؤية الطريقة التي ينظر بها لميشيل كأخ أكبر. ليس فحسب بسبب ثلاثة عشر عامًا تفصل مولده عن مولد ميشيل لكن أيضًا للطريقة التي رعاه بها ميشيل بعد رحيل أبيهما. احتضن عالية بقوة لكنه نادرًا ما ضُبط يوجه لها حديثًا فيما بعد. برنارد كان من الأشخاص الذين يوفرون كل طاقة الكلام للعمل. كان وزوجته ثنائيًا رائعًا وصامتًا. بالكاد سُمع خلال جلوسهم يتفوه بثلاث عبارات. كان صوته - ربما بسبب قلة استخدامه - مدغومًا حتى أن معرفة ما يقوله على وجه الدقة كان أمرا صعبا. ميشيل أيضًا كان قليل الكلام لكن يبدو أن دوافعه هو وأخيه كانت مختلفة. برنارد قليل الكلام لأنه يعتقد أن ما من شيء مهم يمكن قوله، أما ميشيل فيعتقد أن ما من شيء مهم إلا وقد سبق أن قيل

t.me/qurssan

ولا مبرر إذن لإعادة قوله. ومن حسن الحظ أن جانيت كانت موجودة لتنوب عن الآخرين في الكلام. جانيت كانت تتكلم لثلاثة أشخاص دفعة واحدة ورغم ذلك لم يكن من العدل النظر إليها كامرأة ثرثارة لأنها لم تكن تقول شيئًا لا يحتاج المرء لسماعه أو يمكن الصمت عنه.

على عكس أم عالية التي لم تكن تتوقف عن الكلام كما لو أنها سوف تعيش بقدر الحكايات التي تحكيها. كانت حياتها أبسط ورغم ذلك كانت حكاياتها أعقد. لم يمكنها في أي يوم أن تحكي حكاية دون أن تعبر على جثث حكايات كثيرة. كانت حكاياتها كخيط متشابك ليس في مقدور أحد سواها فكه. وكانت تحكي كأنها تفك تشابكاته أمامك لهذا فإن إيقاع حكاياتها كان يبطئ أحيانًا عند كل عقدة. ومع هذا ما كان المرء يمكنه عدم محبتها خصوصًا وأنها - على عكس أم ميشيل - كانت أكثر عاطفية ومبالغة في الحنان. جانيت كانت تتحدث كثيرًا لكنها كانت إما تسأل سؤالًا وإما تلقي تعليقًا وإما تقدم اقتراحًا وإما تطلب طلبًا.

- "أتمنى ألا يكون الطريق قد أرهقكما".

- "كم مكعب سكر تودين؟".

- "ما رأيك في فطيرتي؟".

- "يكفي يا صغيرتي حتى لا تصبحي فتاة بدينة".

t.me/qurssan

- "الفتاة البدينة لا تحصل أبدًا على شاب وسيم".

- "لا تخافي على البنت أبدًا".

- "يا ميشيل.. يمكنك الآن أن تصعد مع صديقتك لتريها غرفتها".

حين صعدت غرفتها شكرت ميشيل. كانت ممتنة حقيقة لكل ما يفعله ميشيل من أجلها، وأجلت محاولة فهمه فيما بعد. لم ترد مقارنة ميشيل بعمار - ولا بأنطون بالطبع - لكن فكرت في أنها لم تفهم شخصًا مثل عمار فكيف يمكنها فهم شخص مثل ميشيل. كان يمكنها التفكير في أن الرجال غير مفهومين لتكف عن محاولة فهمه لكن خطر لها أن النساء أيضًا غير مفهومات. ورغم أنها لم تتجاوز الثلاثين بعد فقد توصلت إلى النتيجة التي يتوصل إليها الفيلسوف عادة في عمر السبعين وهي أن لا شيء في هذا الكون قابل للفهم. كان عليها العيش في عالم غير مفهوم وسط بشر غير مفهومين فيما كان عليها فهم نفسها.

في اليومين الماضيين لم يناقشا غير كيفية تعافيها أما مناقشة كل ما جرى في مكتب فرنسيس فلم يسمح ميشيل حتى بتذكره. حين صعدا إلى الغرفة التي خصصتها جانيت لها أخبرها ميشيل أن عليها من الغد البدء في عملها. إتمام ترجمة الرواية في الموعد المدون في العقد كان تحديًا كبيرًا اعتبره ميشيل موجهًا له شخصيًا لهذا أقسم أن يساعدها قدر ما يستطيع لإنجاز المهمة في وقتها. فهم من الصورة التي رسمها

t.me/qurssan

لسهيلة أن رؤية عالية ذليلة هو الشيء الذي خططت له وكان عليه ألا يسمح لها بذلك أبدًا. قبل مغادرة باريس اشترى ميشيل كل ما يلزمها من قواميس حتى أنه اضطر لشراء حقيبة جديدة. قبل أن تصعد لترى غرفتها صعد هو ليتأكد أن كل شيء في مكانه كما خطط له وكما طلب من أمه. صف القواميس جوار المكتب. وضع اللاب توب الخاص بها على المكتب بعد أن حركه قليلًا ليتوسط المكان أسفل النافذة. أفرغ حقيبتها في الدولاب. كان يرغب بشدة في أن تبدأ بالعمل في التو رغم أنه هو نفسه كان مرهقًا من السفر. لهذا فإنه حين صعد مرة أخرى ليفرّج عالية على غرفتها لم يبق كثيرًا ولم يستسلم للرقة والتدلل اللذين عبرّت بهما عن الشكر. أخبرها أن عليها الاتصال به إن احتاجت لشيء ثم تركها ونزل. حين خرج من الغرفة تذكرت أنها لم تفتح هاتفها منذ أيام. أوصلت الهاتف بمقبس الكهرباء. تطلعت للسهول من خلال النافذة. وصلها صوت ليلي ضاحكة أكثر من مرة. رأت والد ميشيل ينزل من سيارته الرينو أمام البيت. قاومت فضولها لمعاودة النزول للتعرف عليه. ما إن استعاد الهاتف الحياة حتى وصلتها عدة رسائل كان من بينها رسالة أولجا بخصوص باها. شعرت بسعادة لا حدود لها وتسرب إليها الشعور بأن العالم ليس سيئًا للدرجة التي نتصورها. ربما اتصلت بها مرات عديدة لكنها فضلت أن تتصل بأمها أولًا.

t.me/qurssan

7

حيـن وصل جاري وجد أن أحفاده ازدادوا طفلة. خشـي أن يكون قد أخطأ في الحساب لكن برنارد - الذي استقبله بمحبة وود - أخبره أنها ابنة صديقة ميشـيل. ميشـيل ظهر في تلك اللحظة هابطًا من أعلى فاحتضنـه والده بقـوة فاجأته. جاري كان أطول وأعرض من ميشـيل، ورغـم أنـه تجاوز السـبعين كان يبـدو كرجل في الخمسـين. كان أكثر نشـاطًا من الجميع ولم يكن يبذل مجهودًا لإظهار ذلك. كانت حركته مفرطـة وخصوصًا مع الأطفال الذين يبـدو أنهم يحبونه حتى أكثر مما يحبـون جانيـت. كانت جيوبه ممتلئـة طوال الوقت بحلـوى للأطفال حتـى أنه أخـرج من جيبه بعض البالونات وجلس على الأرض وسـط الأولاد مصممًا على أن ينفخها بنفسـه رغم أن جانيت أتت له بمنفاخ. ليلي شـعرت ببهجة كبيرة. بعد أن نفخ البلالين أخذ في إطلاقها لتطير معًا دفعة واحدة وشارك الأطفال في الجري في الفناء خلف البالونات حتـى أنه وعد بمكافأة كبيرة لمن يلتقـط العدد الأكبر منها. في الأعلى كانت عالية تتابعه وهي بانتظار صوت أمها على الهاتف.

بعـد دقائق عـاد للداخل حاملًا هديـة ملفوفة بعناية. تبادل ميشـيل وبرنارد النظر أما جانيت فتجنبت النظر لأنها كانت تستعد لرؤيته راكعًا

t.me/qurssan

أمامها. أكثر الحضور ابتهاجًا كانت سيمون، لكنها كالعادة ذهبت إلى الزاوية مخفية بهجتها. جانيت تقبلت هديته بدلال وأصرت على عدم فتحها مقاومة إلحاحه.

- "أرأيت يا ميشيل.. أمك كلما تقدمت في السن كلما صارت أجمل وأكثر شبابًا.. حتى أنها صارت أكثر شبابًا من سيمون.. أين صديقتك؟.. أود التعرف عليها.. مؤكد أنها جميلة لأن ابنتها جميلة بهذا القدر.. لم تخبرني من قبل أن لك صديقة.. لقد كبر الأطفال وصاروا يخشون من تقديمي لصديقاتهم يا جانيت.. لا تقلق يا ميشيل لن أسرق منك صديقتك.. فأنا واقع في الحب حتى أخمص قدمي.. لا يمكن لرجل مغرم بأمك أن يفكر في امرأة أخرى مهما كان مقدار جمالها".

كان جاري مندفعًا في الكلام حتى أنه لم يلحظ أن أحدًا لم يكن مهتمًا بسماع ما يقول. جاري نفسه لم يكن مهتمًا بأن ينصت إليه أحد بخلاف جانيت، التي حاول طوال سنوات التودد إليها للسماح له بالعودة للعيش في البيت. جانيت لم تعلق على كلامه واكتفت بتقديم الفطائر له. حين مدت يدها بالطبق حاول التهام يدها لكنها سحبت يدها بسرعة حتى أن الطبق كاد يسقط على الأرض. ضحكت بغنج. كانا كشابين يتغازلان.

- "لماذا لا تسمح له بالبقاء طالما أنها سامحته" سأل ميشيل برنارد بعد أن خرجا للتمشية في الخارج. وكان الابن الأكبر لبرنارد يجادل

t.me/qurssan

أخته وليلي ويقسم أنه جمع العدد الأكبر من البلاليـن. تابعا الأولاد حتى دخلوا ببلالينهم للداخل قبل أن يجيب برنارد.

- "لأنهما بهذه الطريقة أكثر سعادة.. الحقيقة لم يكونا أبدًا أكثر سعادة إلا بهذا الحال" قال برنارد فنظر له ميشيل مندهشًا.

- "أحيانًا أشعر أنه خانها من أجلها" تابع برنارد فازداد تعجب ميشيل.

- "طرق المحبين في التعبير عن الحب مختلفة يا عزيزي ميشيل.. لقد كانا يعيشان حياة رتيبة ومملة.. ولإشعال جذوة الحب مجددًا كان عليه أن يفعل شيئًا.. كان ذلك أكثر ما يمكن فعله للتدليل على حبه" قال برنارد مفسرًا.

- "كان يمكنه الاكتفاء بإثارة غيرتها" حاجج ميشيل.

- "لم يكن هذا كافيًا. أمك امرأة صلبة.. يبدو أنها كانت تريده كعصفور في قفصه لكنها فيما بعد اكتشفت أن ما تريده أكثر كان قطًا".

- "كانت تحبه". قال ميشيل.

- "وهي الآن تحبه أكثر".

- "لا يمكنني فهم ذلك".

- "بالعكس.. هذا أكثر الأشياء التي يمكن فهمها".

t.me/qurssan

- "على أية حال أنا لا ألومه إن كنت تقصد الدفاع عنه".

- "لا أقصد الدفاع عنه.. أنا أشرح فقط ما فهمته مع السنوات التالية لرحيله.. أنا أيضًا لا ألومه.. لا أحد يمكنه أن يلوم أحد على شيء لم يكن في مكانه حين فعله.. أنت لم تكن هنا وهي تطارده متهمة إياه بالخيانة.. كنت قد رحلت إلى باريس.. أنا كنت هنا.. كنت شاهدًا.. لم يخلص رجل لزوجته مثلما خلص أبي.. لكن أن تجد نفسك متهمًا بشيء لم تفعله كان أمرًا قاسيًا.. شديد القسوة".

- "لكنه ذهب فخانها".

- "من أجلها.. من أجله ومن أجلها.. بخيانته كف عن الشعور بالظلم.. تسامح معها تمامًا.. لم يعد يضمر لها أية ضغينة.. وهي أيضًا كفت عن الشعور بأنه يخدعها.. صارا متعادلين".

- "لهذا أسأل مجددًا لماذا لا تسمح له بالعودة؟" سأل ميشيل متحيرًا.

- "لأنه حينها سوف يكف عن التذلل لها".

- "بهذه الصورة هو وحده الذي يدلل على حبه أما هي.." قاطعه برنارد.

- "وهي أيضًا تدلل على حبها بعدم مغفرتها لخيانته.. المرأة إما أن تحب وإما أن تتسامح.. لا يمكنها الجمع بين الأمرين وإلا كانت إلهة".

t.me/qurssan

- "كيف كبرت لهذه الدرجة يا برنارد؟" سأل ميشيل فخورًا بشقيقه.

- "لا يمكنك أن تنضج في المدينة يا عزيزي.. العنب يحتاج لكي ينضج للشمس والهواء.. لكن في المدينة.. أنت أكثر معرفة مني بالمدينة".

كان ميشيل أكثر معرفة من برنارد بالمدينة ولهذا السبب لفظها، حتى حين قرر السفر لبازل كان يبحث عن مدينة أقل في تمدنها من باريس. كان يكره باريس. لكنه وجد نفسه معلقًا. لم يعد قادرًا على الاستمرار في العيش في المدينة خصوصًا بعد خيانة زوجته، ولم يعد قادرًا على العودة لأن خيانة أبيه لأمه كانت تذكره بخيانة زوجته له. كانت أمه تسب أباه ليل نهار وكان ذلك يذكره بأنه لا يسب زوجته. هل كانت زوجته تقصد بخيانتها له التدليل على حبها له؟ كانت حياتهما رتيبة أيضًا. لكنه لم يفكر في خيانتها للتدليل على حبه مثلما فعل أبوه. فهم الآن أنه لم يخنها لأنه كان قد توقف عن حبها. لو أنه كان ما زال يحبها كان يمكنه خيانتها والتذلل من أجل أن تسامحه، لكنه لم يعد يحبها. حتى هي لم تعد تحبه، لأنها حين أخبرته بخيانتها لم تتذلل.. لم تطلب غفرانه. كانت تخبره كما تخبر زوجة زوجها بأنها تستعد لتغيير وظيفتها أو كما تخبره بنيتها تغيير تصفيفة شعرها. كان اعترافًا باردًا وخانقًا كبرودة جو المدينة.

لم يعد يمكنه فهم شيء. حتى علاقته بعالية. حتى علاقة عالية به. فكر كيف يمكن أن يستعيدها. لم يكن يقوى حتى على خيانتها. نظر

t.me/qurssan

الآن إلى الأعلى حيث من المفترض أن تكون عالية. لو أنها جالسة الآن على المكتب لاستطاع رؤيتها لكنها لم تكن جالسة. كيف يمكنه فهم عالية إن لم يكن قادرًا على النفاذ لعقلها. كيف يمكن لأي شخص فهم الآخر طالما نحن عاجزون كلية عن النفاذ لعقول أحدنا الآخر. ميشيل لم يكن عاجزًا فقط عن فهم عالية لكنه أيضًا كان عاجزًا عن فهم نفسه. على ميشيل أن يشفق على نفسه فمن منا يمكنه فهم نفسه.

- "سمعت أن زوجتك تستعد لوضع مولود جديد".

- "هذا فوق طاقة أمي على الفهم.. تظن أني أرغب في صنع إمبراطورية" قال برنارد ساخرًا.

- "وما الذي ترغبه إن لم تكن ترغب في صنع إمبراطورية برنارد؟" سأل ميشيل.

- "في أن يتذكرني الآخرون بعد أن أُدفن في مكان ما من هذه الأرض المتسعة".

على البعد كان يمكن لميشيل وبرنارد رؤية المقابر وسط السهول. هناك توجد رؤوس كل الذين عرفاهم في طفولتهما. لكن ميشيل لم يعرف لماذا كل هذا الهوس بأن يتذكرنا الآخرون. لن نكون هنا لنسعد بتذكرنا أو ليؤلمنا نسيان الآخرين لنا. وعلى عكس برنارد لم يكن ميشيل راغبًا في أن يتذكره أحد. كان يود أن يُنسى بسرعة. كان نسيانه أفضل من أن يتعثر أحدهم في محاولة تذكره.

t.me/qurssan

لم يكن ميشيل قادرًا على فهم نفسه لدرجة أنه لم يفهم أن رحيله عن الستديو كان بسبب أن الغياب داهمه كوحش خرافي. كانت الوجوه الضاحكة والتي كانت تعج بالحياة في الصور المعلقة على الجدران لها حضور أكبر للغياب التام. حضور أكبر مما كان في مقدوره كفنان تحمله. كان يهرب من الغياب بغياب أكبر. كان يرغب في هزيمة الغياب بالغياب. لكنه لم يفهم أن أي غياب مهما كان حجمه لا يمكنه ابتلاع الغياب الكامل.

أعاد النظر مرة أخرى لأعلى. لم تكن عالية جالسة فتساءل عن سر غيابها، لكنه لم يجرؤ على الصعود لاكتشافه، على الأقل ليس وهو في هذه المزاجية الداكنة.

لكن لو أنه صعد لاكتشف أن عالية الآن ليست أقل منه سوداوية.

عالية قررت البدء في قراءة الرواية التي وُظفت من أجل ترجمتها. الرواية كانت قصيرة حتى أنها قرأتها دفعة واحدة. كانت رواية متوسطة القيمة. ولأنها لم تسمع بمؤلفها من قبل فتشت عنه على الإنترنت. كان شابًا. في مثل عمرها تقريبًا. من الصور التي وجدتها له أدركت أنه لا يصلح أن يكون كاتبًا. كان متفائلًا أكثر مما يمكن لكاتب أن يكون، وكان أيضًا مزهوًا بتفاؤله كإنجاز. أثناء دراستها تعرفت ببعض الكتّاب من جيلها. حضرت حفلات توقيع وندوات روايات لكتّاب مشهورين وأنصاف مشهورين. عرفت مع الوقت أن الكاتب الحقيقي لا يمكنه أن يكون متفائلًا أكثر من اللازم ولا متشائمًا أكثر من اللازم.

t.me/qurssan

لا التفـاؤل التام ولا التشـاؤم التام يمكنه أن يصنـع كاتبًا جيدًا. التفاؤل التام والتشاؤم التام بالكاد يمكنه صنع كاتب محظوظ. التفاؤل التام أو التشاؤم التام كان يعني القدرة على طرح إجابات واضحة وباتة ونهائية لكـن الأدب الحقيقي هـو الأدب الذي في مقدوره طرح أسـئلة فقط. عالية كان يمكنها الآن كتابة روايتها، لكن الجرأة كانت تنقصها.

انتهـت عاليـة من قـراءة الرواية وبـدأت في البـكاء. كانت أحداث الروايـة تجري في أماكـن عرفتها جيدًا. سـوق حلب القديـم.. بأزقته الضيقـة.. قلعـة الحصـن بحمـص.. الشـوارع والمقاهـي والأزقـة.. الروائـح والألوان والأصـوات والطعـوم.. دفقات الدم فـي الرأس.. نـدوب الـروح الصغيـرة.. الغيبـات القصيـرة مـع القـدود الحلبيـة.. الآمـال الكبيـرة.. التعاسـات.. المخـاوف السـاذجة.. ارتعاشـات البهجة.. خمول الجسـد وتكاسـله.. سـخونته وتعافيه.. الأمطار التي انهمرت فجأة دون اسـتعداد.. ندف الثلج.. البرودة والحرارة.. اليأس والأمل.. الحياة والموت.. القضايا الكبيرة والهموم الصغيرة.. البراءة والقسـوة.. الحضـور والغياب. اسـتعادت حياتها بالكامل. في سـوق حلب سـاعدها أنطون علـى تدخين أول أرجيلة وحين سـعلت ناولها بسـرعة كوب اللوز الحلبي وأخذ يضحك. فـي قلعة الحصن اختبأت هي وعمار ليقبلها قبلتها الأولى. طاردهما الحارس حتى نهاية القلعة. كانـا يجريـان منه وهما مبتهجـان لأن طعم القبلة لم يكـن قد تبخر من شـفاههما بعد. اختبآ منه مجددًا خلف أحـد الأبراج.. دارا حوله حتى تأكـدا من أنه قـد أفلتهما.. جذبها عمـار ليُقبّلها قبلتهمـا الثانية. القبلة

t.me/qurssan

الأولى كانت خاطفة لكن الثانية كانت متمهلة.. قبلة رائقة.. قبلة غير مرتعشة.. غير خائفة من الملاحقة.. قبلة كان يمكن للمرء أن يتمنى لو تمتد لنهاية العالم. كانت قوية كاعتراف، وناعمة كوسادة، ومتسللة كنسيم، وخالدة كإله.

كتبت عالية على الإنترنت: قلعة الحصن. انهمرت صورها. صور دعائية. سياحية. لكن وسط صلابة الصور الدعائية انسالت صور القلعة وهي مدمّرَة كطوفان. أصابها - ضمن ما أصاب أماكن كثيرة - قصف عنيف، غبي، فوضوي، جلف، ممتلئ بالكراهية، والقسوة، والغضب، والجنون، واليأس. كانت الجدران متآكلة بسواد البارود ككلمات على صفحة مكموشة. الدخان كان متصاعدًا من بين الأبراج كرَاية إعلان عن نهاية. في مثل هذه القلاع لم تعد القبلات المسروقة ممكنة. كان الشيء الوحيد الممكن هو الخوف والخيبة.

بحثتْ بجنون عن سوق حمص على الإنترنت. لكنه لم يعد موجودًا. السوق الذي كان يعج بالباعة وبالخانات وبروائح العطور والبخور والتوابل والعطارة.. حجر البيلون والدريرة والشبة.. المشاوي والأرجيلة.. لم يتبق منه غير الخرائب. وفيه كانت الرائحة الوحيدة الممكنة هي رائحة البارود والحريق والتلاشي. بحثت عن سوريا.. كنيسة أم الزنار سقفها لم يعد موجودًا. الميتم السرياني.. دار المطرانية.. دير مارليان.. شارع الحميدية.. قصر الزهراوي.. مقهى الفرح.. مقهى الروضة.. شارع القوتلي.. سينما الكندي.. سينما

t.me/qurssan

حمص.. الأوبرا.. قصر السيد سليمان.. مئذنة الجامع الأموي.. ساحة الحطب.. المشربية.. كان زمان.. رائحة الياسمين التي كانت تتعربش على جدران المقاهي.. أبو عبدول الفوال.. الشجرة الكبيرة في وسط الساحة. كانت كلها ملقاة هناك على الخرائط ككتاب محترق، ومنه كانت تنبعث رائحة الغدر.

- "هذه ليست رواية يا ميشيل.. هذا فخ" قالت عالية بصوت مخنوق.

حين صعد ميشيل وجدها تبكي. كانت ترتعش لكن جسدها لم يكن محمومًا كما في الأيام الماضية. كانت مسامها تنتفض كما لو كانت تود أن تتشظى وأن تتبعثر في الفضاء كما في فيلم رعب حتى تتبخر تمامًا ولا يعود لها وجود، كذاكرة مفقودة. كانت جالسة على الأرض بجوار السرير. إلى جانبها الرواية وجهاز اللاب توب الذي كان مفتوحًا على صورة مرعبة لشارع الحميدية. شارع لم يكن يعرفه ميشيل.

- "هذا فخ.. لقد أعدّت لي سهيلة شراكًا.. هذا انتقام.. انتقام لست أعرف سببه.. لكنه فخ للانتقام.. انتقام لا حد لقسوته.. انتقام سادي".

بالكاد استطاع ميشيل تمييز كلماتها.

- "افعلي شيئًا إذن" قال بتوسل.

t.me/qurssan

- "ما الذي أفعله.. قل لي ما الذي ينبغي عليّ فعله وسوف أفعله" سألت عالية وهي تحدق فيه مرتعبة ومستجدية. كانت على استعداد لفعل أي شيء للإفلات من هذا الشرك، للإفلات من هذا العالم.

- "لن يمكنك الهروب من الفخ إلا بالسقوط فيه طواعية".

ميشيل الذي كان يرغب في الهروب من قَدَر الغياب بالغياب كان يرغب في مساعدتها على الهروب من فخ سهيلة بالسقوط فيه طواعية. ها أنا يا سهيلة قد سقطت في فخك وأنا أعرف أنه فخ. سوف أنزع عنك قلادة انتصارك بهزيمة كاملة.. باستسلام كامل. ليس أقسى على قائد مهووس بنفسه من أن تسقط أمامه مدينة بدون قتال، بدون دفاع، بدون تصدٍ، بدون مقاومة. لكن عالية لم تكن ترغب في هروب جديد. اكتفت من الهروب. ومن عبور الطرق. ومن المراوغة. ومن الأمل. لم تكن ترغب في هروب أو في مقاومة. كانت ترغب في أن يتركها العالم تكبر وتموت في هدوء، كشجرة في غابة لن يعرف بها أحد.

- "لا لن أفعل". قالت بحسم، وبصوت صارخ ومتشبث، حتى أن ميشيل شعر بالخوف.

- "أنتِ الآن غاضبة".

- "غاضبة؟" سألتْ.

- "ذكّرني بوقت لم أكن فيه غاضبة؟".

- "ذكّرني بوقت لم أكن فيه غاضبة لهذا الحد؟".

t.me/qurssan

- "نعـم أنا غاضبة.. كان لي وجـه غاضب لأني كنت غاضبة.. كان الجميـع يقولـون إن لي وجهًا غاضبًـا وكنت أغضب حيـن يقولون لي ذلـك لأني كنـت أظن أن ليس لي وجـه غاضب.. لكنـه كان لي.. كان هنا دائمًا.. وجه غاضب.. وجه غاضب أكثر مما يمكن لعقل أن يتخيل المدى الذي يمكن أن يبلغه الغضب.. كان لي وجه غاضب لأني كنت غاضبـة.. كنت غاضبة حتى وأنا لا أعرف كـم أنا غاضبة.. أنا غاضبة.. أنـا غاضبـة.. غاضبة لأني مجبرة علـى رحيل لا أريـده.. غاضبة لأني مجبـرة على العيش في بـلاد لا أريدها.. غاضبة لأني مجبرة على عمل لا أريـده.. غاضبـة لأنـي مجبرة علـى قطع مسـافات لا أريـد قطعها.. وطـرق لا أريـد عبورها.. أنا غاضبـة.. غاضبة لأن أمـي تموت في بلد لا تريده وسوف تدفن في أرض لا تريدها.. غاضبة لأني حتى لن أكون هنـاك لأبكيها.. لن أكون هنـاك لأطعم الناس البوظـة التي تحبها حين يأتون لتقديم العزاء.. غاضبة لأني لن أكون هناك.. غاضبة لأن أحدًا لن يكون هناك.. لأن أبي لن يكون هناك.. ولا خالتي نسرين.. ولا عمي.. ولا صديقتها أم ناصر.. ولا حتى جارتها النكدية.. أنا غاضبة.. غاضبة لأنها سـوف ترحل وحدها.. فـي صمت.. دون بـكاء.. أو نحيب.. أو لطمـة.. أو صرخة غاضبة.. لأن أحدًا لا يعـرف أمي.. لأن أمي لم يعد لها أحـد.. لأن الراحلين رحلوا والغاضبين غضبوا والميتين ماتوا دون أن يسـألونا عن رأينا.. غاضبة لأن الرجال حمقى.. متعطشـون للقتل.. مستسـلمون لعنادهـم وغبائهم.. غاضبـة لأني مجبرة علـى العيش مع رجـل لا أريده.. ومـع ناس لا أريدهم.. وفي أماكن لا أريدها.. غاضبة لأنـي مضطـرة حتى للإبقاء علـى حياتي.. حياتي التـي لا أريدها.. من أجل بنت.. لـم أعد أعرف.. إن كنت أريدها.. أم لا أريدها".

t.me/qurssan

8

"عزيزي ميشيل..

هـذه المـرة لـم أعبـر الطريق. هـذه المرة عبـرت المحيـط. عدت للولايات المتحدة. ذات مسـاء وأنا في قسـم الشرطة اتخذت قراري. كنا عائدين أنا وابن عمي بعد أن اشترينا علب البيرة. في الطريق أوقفتنا دوريـة أمنية. كنا نضحك على أمر ما حين أشـار لنـا الجندي. هدّأ ابن عمي من سـرعته ووقف، وكنا ما زلنا نضحـك. الجندي طلب تفتيش السيارة. شعرت بالخوف لكنه طمأنني. قال إنها إجراءات أمنية دورية. لم أفهم لكن ابن عمي كان مطمئنًا فشعرت أن لا حاجة للقلق. الجندي طلـب من ابن عمي النزول فاندهشـت. يبدو أنه كان معتـادًا على مثل هذه الأمور المحلية فنزل. فجأة سـمعت صوته يصيح في الجندي، ثم بدأ الجندي في الصياح هو الآخر. لم أكن أفهم مثل هذه الأمور. طلب الجندي مني النزول. ابن عمي أخبره أني أمريكية. لا أعرف لماذا أخبره بهذا. لكن الجندي استشـاط غضبًا. أصر على اقتيادنا لقسـم الشرطة. اتصـل ابن عمي بعمي ونحن في السـيارة. الحمد لله أنهم سـمحوا له بذلك. بعد أن وصلنا بدقائق وصل عمي. وبعد دقائق أقل كنا خارجين معًا من قسـم الشرطة. في البيت ظلوا يضحكون باعتبارها طرفة. لكن

t.me/qurssan

مـن بين الضحكات كانت تفلت منهم عبارات غاضبة. كانوا يحاولون تطميني فيما يبدو. أقسموا لي أن ما حدث لا يحدث أبدًا. وأنه حادث استثنائي. وأنه حتى غير قانوني. لـم يكن للجندي الحق فـي اقتيادنا لمجرد أنه كان بحوزتنا علب البيرة. حين جاء الجميع للسـهرة سمعوا الحكايـة. غضبوا. ثم ضحكوا. ثم أكدوا أنه حادث نادر. وأن الجندي أخطأ. كنت واثقة في كل كلمة قالوها. حتى من قبل أن أسمعها. لكني - وأنا في القسـم - كنت قد اتخذت قراري بالرحيل. بعبور الطريق أو بعبـور المحيط. لأني فكـرت في أن حياتي لا يمكنهـا أن تكون رهينة حادث استثنائي أو خطأ غير مقصود.

سـوف أشـتاق لعمـي ولزوجتـه ولأبنائه، كما سـوف أشـتاق لقبر أمي، وللمقهى التونسـي الجميل ذي الاسـم الجميـل: القهوة العالية، لمتحف باردو، والحمامات، لكنها سـوف تكون هناك دائما، وسـوف أكون مـستعدة دائمًا للإبحار مجددًا.

أنا الآن في طريقي لأمريكا، لم أرسُ رسـوا نهائيًا، ومن يعلم، ربما أرسو ذات يوم، بعد عشر سنوات، في باريس، وحينها أتمنى أن تكون هناك في انتظاري.

صديقتك المجنونة نيمو".

وصلت رسـالة نيمو في وقتها. كان ميشـيل يفكر. يفكر في أن شيئًا مـا، لا يعرفـه، يمكنه أن يسـاعده، ويسـاعد عالية. بعـد انهيارها ظلت يومًـا بليلة لا تخرج من غرفتها. طلب ميشـيل مـن أمه ألا تزعجها فلم

t.me/qurssan

تتدخـل. فقط شـعرت بالخوف على ميشـيل. كانت تريد لـه امرأة غير متقلبـة لهـذا الحد. ولكي تفهم أمه جيدًا ما تشـعر بـه عالية أخذها إلى الكنيسـة. أمـه كانـت متدينة كمـا لو أن اللـه تجلى لها شـخصيًا، لكن المسـألة لم يكن لها علاقة بالله ولا بتدينها. في هذه الكنيسـة عُمّدت أمه، وأمها. بعد أن خرجا من الكنيسـة طلب منها الجلوس في المقهى المقابل للكنيسة. جلسا في الشارع أمام الكنيسة. راقب أمه وهي تتابع المحال في الميدان وتتطلع لبرج الكنيسـة المنتصب كإصبع يشير إلى السماء. وفجأة سألها:

- "مـاذا لـو أتيـت إلى هنا ذات مرة واكتشـفتِ أن شـيئا هنا لم يعد موجودًا في مكانه؟".

- "اختفى؟". سألت جانيت وكانت تحسبها لعبة.

- "لا.. اختفاء الأشـياء قد يكون جميلًا.. اختفاء الأشـياء جميل.. حيـن تختفي تكـون موجودة في مكان مـا لكننا لم نعد نعـرف مكانها فحسب.. يكون علينا فقط أن نمعن التدقيق ونعيد البحث".

زاد ميشيل من غموض فزورته فتحمست جانيت.

- "لكني لا أقصد هذا الاختفاء الجميل.. أنا أقصد لم تعد موجودة لأنها قد دُمرت.. انتزعت من مكانها.. أحرقت.. تهدمت".

انقبـض قلب جانيت وظهر انقباضها على وجهها. عبر بخيالها يوم زفافها.. تعميد ميشـيل.. تعميد برنارد.. زواج برنارد.. تعميد كل ولد من أولاد برنارد.

t.me/qurssan

- "هذه لعبة قاسية".

قالت جانيت وهي تدفع كرسيها لتقوم. ميشيل ترجاها أن تجلس مرة أخرى. جلست على طرف الكرسي لتكون على أهبة الطيران في أية لحظة إذا ما أمعن ميشيل في لعبته القاسية.

- "أنا آسف يا أمي.. لكن هذا ما تشعر به عالية.. بلدها.. عالمها كله.. مُحي من على الخريطة.. كشخص غادر الأرض في مركبة فضائية وفي رحلة العودة اكتشف أن الأرض لم تعد موجودة. ما الذي يمكن أن يفعله شخص في الفضاء للأبد؟" سأل ميشيل.

بحسها العقلي فهمت جانيت ما يرمي إليه ميشيل. شعرت بالإشفاق نحو عالية لكنها لم تستسلم لهذا الشعور، ليس فحسب لأنها تريد الأفضل لابنها، لكن أيضًا لأنها - بنفس الحس العقلاني - استعادت رباطة جأشها. كما استعادت أيضًا وضعها على الكرسي.

- "على المرء يا ميشيل ألا يعيش في الماضي.. إذا أرادت صديقتك العيش بسعادة عليها البدء من جديد.. لتكن هذه بداية جديدة.. كلنا كانت لنا مثل هذه البدايات". قالت كما لو كانت تضع نقطة في نهاية جملة.

ضحك ميشيل هازئًا. لم تكن جانيت الشخص المناسب أبدًا للحديث عن التنكر للماضي. ما زال يذكر جيدًا حين سُمع صوتها صائحًا من غرفة برنارد حين كان صبيًا. يومها كان في الأسفل مع أبيه

t.me/qurssan

يلعبان الشطرنج، وكان برنارد يلعب الكرة في الساحة خارج البيت. صعدوا جميعًا مسرعين ليكتشفوا أن جانيت كانت تصيح لأن برنارد تجرأ وعلق علم نادي برشلونة على جدار غرفته.

- "ما الأمر؟" سأل جاري.

كانت ممسكة بالعلم ممزقًا في يدها وهي تقسم أن شيئًا مثل هذا لن تسمح بوجوده مرة أخرى في بيتها ولا في مزرعتها.

- "هذا النادي الذي أشجعه يا ماما" قال برنارد.

- "غير مسموح أبدًا بتشجيعه مرة أخرى" قالت بحسم ثم اندفعت خارجة. طلب جاري من برنارد أن يعذر أمه، لكنه لم يكن يعرف علام يعذرها.

- "لم تتسامحي أبدا مع إسبانيا يا جان" قال ميشيل مبتسمًا ففهمت على الفور ما يقصده. زفرت زفرة حارة وارتشفت الوجه الكريمي لقهوتها.

- "لقد طردونا يا ميشيل وأنت تعرف ذلك" قالت بعصبية فابتسم.

- "كان ذلك - فيما أذكر - قبل خمسمائة عام يا جان".

- "تلك أمور لا يسع المرء نسيانها". قالت وهي تبحث عن حجة للقيام. اقترب منها ميشيل.

- "ماذا لو أنك كنت من هؤلاء الذين تنصّروا من أجل البقاء في إسبانيا لكن الملكة المؤمنة لم تصدق إيمانهم وأصرّت هي وزوجها

t.me/qurssan

على طردهم؟.. ماذا لو أنك كنت من الخارجين من المدينة في طابور ممتد لعدة أميال لمجرد أنك يهودية؟.. هل كنت توديـن العودة؟.. أنتِ لم تتمكني من النسيان رغم أنك لم تكوني هناك.. لمجرد أنك تغذيتِ على هذه الذكرى منذ طفولتك". قال ميشيل فمحى النقطة التي وضعتها أمه نهاية الجملة.

- "لا تتحاذق معي يا ميشيل.. في هذه النقطة أنت محق.. لم يمكنني التسامح رغم أني كما ذكرت لم أكن هناك.. ورغم أني اليوم مسيحية كاملة.. لكن هناك نقطة لم تذكرها في خطبتك.. خطبتك الجيدة إذا ما أحببت".

- "وما هي؟". سأل ميشيل.

- "لقد ولدتُ مع الحرب يا حبيبي.. هذه الأرض التي تشير إليها وتسألني إن كان يشغلني أن تظل في مكانها طوال الوقت كانت معرضة للقصف.. السهول التي نزرعها الآن كانت ساحة للحرب للجنود العابرين من ألمانيا.. كنت في مثل عمر ليلي حين كنا نهرول تاركين بيتنا لنختبئ.. كان كل بيت هدفًا للألمان.. ليس هنا فحسب.. لو أنك شاهدت باريس.. آه.. باريس الجميلة.. كانت مدارسنا عقب الحرب تنظم الرحلات لنرى ما تبقى من باريس.. الأحياء المدمرة.. المقاهي التي كان يختبئ فيها رجالنا.. الحفرة الشاسعة التي رأيناها جوار برج إيفل بفعل القصف.. هل تعرف لماذا كانوا ينظمون مثل هذه الرحلات؟".

t.me/qurssan

نظر ميشيل لأمه مستفسرًا.

- "حتى لا ننسى.. وحتى نعرف أن قدرنا هو البدء من جديد. لهذا أقول لك وبصدق إن هناك بداية جديدة لكل شخص. وعلى صديقتك اختيار البداية الجديدة التي تود. هناك دائمًا بداية جديدة لكل شخص يا حبيبي فلا تهدرا أعماركما".

حين عادا كانت سيارة جاري موجودة فعرفا أنه جاء. كان الأطفال يلعبون ويتصايحون أمام الباب.

- "ما رأيك في أن يكون لك ولأبي بداية جديدة؟!".

سأل ميشيل وهو يركن سيارتها. ابتسمت جانيت بخجل ونزلت من السيارة وهي تقول إن عليها تحضير الفطائر. أسرعت للداخل. وقف يتطلع للأطفال وهم يلعبون وغافلون عن الخيبات التي يغرق فيها آباؤهم. تساءل إن كان سوف يكون موجودًا على هذه الأرض بعد أربعين أو خمسين عامًا من الآن ليكتشف الخيبات التي سوف يغرق فيها هؤلاء الصغار بعد ألا يكونوا صغارًا. أم أنهم سوف يكتشفون طرقهم لتفادي الخيبات؟ هل سيظلون هنا أم أن كلا منهم سوف يجد الطريق الذي يعبره آملًا في أن يكون فيه ما لم يجده في جانبه؟

عند باب البيت فوجئ بعالية جالسة مع جاري. جاري أحضر ألبومات الصور الخاصة به والتي أصر على الاحتفاظ بها بعد أن رحل عن البيت. جلبها معه ليفرج عالية عليها. لا يعلم أحد أي خاطر خطر له وهو يفكر في ذلك. لكن يبدو أنه كان أكثر من إلهام. عالية بدت في

t.me/qurssan

مزاج أفضل بكثير. ظل ميشيل واقفًا خلف عتبة الباب يتأملهما. كانت جالسة هناك تغطي كتفيها بالشال الذي صنعته أمها لليلي. كان وجهها جميلًا. لم يكن غاضبًا للحد الذي يمكن أن يوصف بأنه كذلك. كانت تتابع الحكايات التي يختلقها جاري لتوه عن كل صورة. كان صوته صاخبًا كالعادة. ومع كل صورة تجمعه مع جانيت كان يرفع صوته أكثر لتسمعه وهو يغازلها. ظن ميشيل أنه لمح عالية تبتسم أكثر من مرة. ابتسامة حقيقية. ليست من تلك الابتسامات التي ذكرت أنها مجبرة عليها. وبينما كان واقفًا هناك لمحته عالية، فاستأذنت جاري، وقامت، وعبرت الصالة إليه، فيما وجدها جاري فرصة ليعبر الطرقة وينقض على جانيت مجددًا متوسلًا من أجل الغفران.

الشيخ زايد

2015-2019

t.me/qurssan

"كقطة تعبر الطريق" رواية موضوعها "العالم" وليس مكانًا بعينه أو هوية دون غيرها. إنها رواية الإنسان المنسحق في آلة العولمة الجبارة، والذائب في مقدرات خلقتها قوى هائلة تحدد له مصيره وتمزق خرائطه لتدفعه نحو الموت أو الجنون. جميع شخوصها مغتربون، كلٌ منهم هارب من حربه الكبرى والخاصة معًا، باحث عن طوق نجاة ينتشله من جحيمه الشخصي. كل شخص هنا يعبر ضفته نحو ضفة أخرى، عبورًا سريعًا مرتبكًا، بالضبط كقطة تعبر الطريق طامحةً في الوصول إلى الرصيف المقابل.. لكن حياتها قد تضيع في لحظة، تحت عجلات سيارةٍ مسرعة.

يخوض الروائي "حاتم حافظ" مغامرة جديدة وغير معتادة في الأدب المصري، ليس فقط لأن شخصيات روايته من غير المصريين، لكن لأن الأحداث نفسها تدور بالكامل في "المنافي" بين بازل السويسرية وباريس الفرنسية، فضلًا عن منافٍ أخرى في الخلفية.

حاتم حافظ روائي وأكاديمي مصري، يكتب أيضًا المسرح والسيناريو والنقد الثقافي. أصدر عددًا من الأعمال الروائية والقصصية والفكرية التي حازت التفاتًا نقديًا ملحوظًا، منها "بسكويت وعسل أسود"، "لأن الأشياء تحدث"، "موسيقى لليلة قصيرة"، "إسلام أم إسلاميات.. قراءة في الخطاب الديني المعاصر". كتب حاتم حافظ عديد الأعمال الدرامية الناجحة، منها "استيفا" و"الشارع اللي ورانا". ترجمت نصوصه إلى أكثر من لغة كما قُدمت عروضه المسرحية في أكثر من بلد أوروبي منها ألمانيا وفرنسا.

الدار المصرية اللبنانية

t.me/qurssan